
أدهم العبودي
الخاتن
مدونة أبو عبدو
رواية

الخاتن

العنوان : الخاتن - رواية
المؤلف : أدهم العبودي
الطبعة : الأولى 2016
الناشر : مصر العربية للنشر والتوزيع
19 ش إسلام- حمامات القبة- الزيتون- القاهرة
تليفاكس 22562268
masrelarabia@hotmail.com

توزيع : مكتبة أطياف
1 شارع البستان السعيدي – متفرع من محمد صبري أبو علم
وسط البلد (عابدين) – القاهرة
محمول 01020097171

رقم الإيداع: 2015/25203
I.S.B.N : 978-977-428-082-5
تصميم الغلاف : محمد سيد

الخاتِن

رواية

أدهم العبودي

2016

مصر العربية للنشر والتوزيع

كمْ وددتُ لو أمنَحُ نفسي إهداءً..

ككلِّ الغرباءِ الذين منحتَهم يومًا..

أولئك الذين لا مَرح في أوطانِهم!

ولا جدوى...!

"ميس" ابنتي

أشدّ ما يُدهشني

إصرارُكِ - في كلّ مرّةٍ -

أن تلتقطي لنا "سيلفي" معًا

حيث يكون أبوكِ دومًا في الوضع؛

الذي يجب ألاّ يراه الآخرون..

لكنّي - مُجبرًا- أشاركك الـ"سيلفي"

لا لشيء إلاّ إنّي أعشق نظرتك تلك؛

المطلّة من الصورة.

ليسَ بيدي أن أؤمِن إيمانًا خالصًا بالإرادة! لست إلاّ نطفةً تتقاذف - دون حيلةٍ - مع سيرِ الأحداثِ في عشوائيتها، الأحداث التي تنتهي إلى مصيرٍ محدّد سلفًا، كلّنا في مُجمل الأمر نطفٌ، تدفع نطفًا، في سلسلةٍ قدرية، لتصبَ في النهاية كما يشاء المصير، الذي هو - للأسف - مصيرُ جميع الأحداث.. يا لها تلك مِن حياة!

الكُردي

مفتتحٌ للملائكةِ والقمرِ والشّجرِ والرّب

لعلّي أراكُم تنتظرون الحكاية، تتساءلون كيف نازعتني الأوطانُ بين أنيابها ونسّرتني وكيف عاقرتُ الخرافات؟ يستأثر بكم شغفُ التلصّص على عبث المصائر، لا بأس، أراكم تصغون بكاملِ أسماعكم، ووافر الفضول المطلّ من أعينكم، إذن أنصتوا مليًّا، ولا تنزعجوا، الحكايات في نهاية الأمر عظلةٌ للبعض، وتسريةٌ لبعضٍ آخر.

نعم لم أزل أذكر هذا الخريف البعيد، لمّا ماتت أختي "مَدّ"، وكانت تكبرني بعامين، إنّما رغم ذلك كانت صبيّة صغيرة لم تجرّب نكهة الحياة بعد، وكنّا نصدّق إذا قيل لنا من أمّهاتِنا أنّ بنات مدينتِنا ملائكة، وأنّ الملائكةَ نفسَها التي تقطن في السّماء كثيرًا ما تهبط لتسكن أشجار "السنديان" العالية وأشجار "الرّمان" و"العنب" التي تحوّط مدخل درب بيتنا المبلّط، وتتداعب بين السّهول، والسّهولُ حول نهر مدينتنا "نوشهر" خضراء زاهية تلمع عند حلولِ الصّباح، فقيل أنّها جنّة، تحتضن المدينةَ لمبلغِ جبل "طوروس" الراسخ في الأفق، والذي يطوّق المدينة، وتمتدّ من ورائه إلى حيث لا يصل بصرٌ ولا خيال. وكثيرًا ما رُوي لنا من الأمهات أنّ الرّبَّ نفسَه تفنّن في رسمِ تفاصيل مدينتنا، ولعلّه عاش فيها منذ زمنٍ بعيد، ولمّا كان البشر صعد الرّب للسّماء، وأنّ سرّ المطر والسحاب المتخم بالماءِ والخضارِ وسرّ جموح الطبيعة لم يكن معلومًا، على الأقلّ لنا نحنُ البشر، ولم يزل. وقيل أنّ ناسَ المدينةِ يسمعون مُزاح الملائكة وتلاسنها من وراء حُجب الغيوم، وأمّهاتنا طالما

كنّ يهمسن لنا: كم كان يطيب للملائكة أنْ تسكنَ أشجار مدينتِنا! كانت الملائكةُ تهبط من فوق، يحلو لها مذاقُ ثمرات الشّجر، فتقبع الّليلَ غافيةً بين أحضانها، الرّب قال إنّ القمر يحتضر، ودواؤه لدى ثمر مدينتنا، إنّه يحتاج إلى ثمرة مليحة من ثمرات الشّجر كي يستردّ ماء الحياة، فهبط ملاكٌ في البداية، اختلس ثمرة، لكنّه قبل أن يصعد بها للذي يحتضر، ذاقها، أمّا القمر، فعاش، لألف سنةٍ بعدها أو يزيد، وأمّا الملاك، فاستأذن الرّب أن يذوق ثمرة أخرى، وفعل، وأتت ملائكة، وذاقت، والثمرات حلوات، ثمراتنا ليست كمثلها ثمرات في الأرض، ولا في السّماء، ذوقوا، إنّما احتفظوا بالأسرار، خصوصًا عن العيال، العيال كاشفة، فها هي العيال تلهو تحت عين الشّمس، عين الشّمس حلوة، ساخنة، إنّما حلوة (الشّمس بهجة العيال).

يجري الأولاد، كما يجري الزّمن، لعلّ الصِغار فقط بإمكانهم أن يستكشفوا بحواسهم الناصعة أسرار المدينة والشّجر والقمر والرّب، وأن يشاهدوا الملائكة، وفي اللّيل - إذ يأتي - يتطلّعون لأسرار الشّجر. في اليوم الخمسين من نزول أول ملاك، جلست أختي "مَدّ" تحت ظلّ شجرة، تستأنس بدورها، و"مَدّ" كانت بنت البنات، شعرها غيطان من الخضار، تمتدّ من شرق الحياة لغربها، ووجهها نهر يفيض، ويغطّي السّهول- هكذا قالت أمّي.

"مَدّ" جدول من براءة "كُن"، فكانت "مَدّ"، كانت في الصباح تخرج، تراقب العصافير التي تتثاءب، التي تصحو لتبدأ رحلة خالدة، تحطّ المراكب الشراعية على ضفاف النّهر بولدين - ولد أسمر وولد أشدّ سمارًا - فتغرق "مَدّ" في ضحكتها، إنّ "مَدّ" تحب الأولاد السُمر، يغويها

سمار الّلون، وسمار السّماء، وتلاعب الأولاد، إنّما هذين، لم تعرف كيف تلاعبهما، كانت تنظر نحوهما وفي قلبها يخفق هذا الشعور، كان الولدان يعرفان أنّها تميل لكليهما. فهل على الصغيرة حرج؟ لا بأس إن تعلّقت بولدين! سُمرا!

تجلس "مَدّ" تستظلّ بالشّجرة، وتقول - وقد استشرفت السّر:

- أُخرج.. لقد رأيتك!

السّر، والملاك المنبعث من قلب الشّجرة خرج، وكان لم يزل يلعق في ثمرة، خفق جناحاه، وقال:

- ثمرة أخرى! أنتِ حلوة ناضجة.

ضحكت "مَدّ"، وقبّلها الملاك، ولكن النار كانت آتية، حلقة من عند الأفق، حلقة تتّسع وتتّسع، ارتعد الملاك، واختبأ في الشّجرة ثانية، لمّ بداخلها جناحيه، وأخذ ينتفض، كان يتساءل: هل أغضبتك قُبلتي يا ربّ؟

"مَدّ" تجري، بعيدًا، تتدثّر بسطح بيتنا، ترتجف، تستكشف الضوء الواهن بداخلها، الذي يجعلها تتلمّس ولا ترى، تستبطن ولا تستوضح، يعزّز غريزة الاسترشاد، بل يمعن في ضبابيته حدّ التّشويش على ذهنها، ويخلق معاناة مستترة، وهدوءًا مضنيًا. قالت أمّي: كان الليل دومًا موعدها مع الرحيل.

أنين السماء يتمثّل مطرًا يلتهم ملامحها، تستلقي بجسمها المنهك - المترامي بين عوالم وأخرى - على سطح بيتنا الواقف وحيدًا بين البيوت العالية يطلّ على الجبل والسّهول بلا حواجز، وعلى السّماء، كأنّ به

يحتضنها ويقرّبها من الله كثيرًا، هي تشعر أنّ الله على بُعد خطوات قليلة هناك فوق، وفي كلّ ليلة من لياليها الباردة هنا بهذا المكان تتّحدّث إليه، تتعشّم أن يجمعها والأسمرين، دون مسافات ولا حدود، بعيدًا عن بلاهة هذا العالم وضجيجه، تطلع إلى السّطح في مثل هذا الوقت المتأخّر من كلّ ليلة، دون أن ينتبه لها أحد، وترى المطر، تظلّ للحظات على شكّ من أنّ الومضات المارقة إلى أسفل في سرعة وفي وشيش - منحدرة إلى بسيطة المدينة تغرقها بالانتعاش - هي قطرات المطر، فقلّما تبادر السّماء بمطر غزير كهذا، وقلّما تتوارى الشمس وراء غيم، بالأخص هذا الموسم الصيفي.

ومثل سنبلتين مشعّتين، أخذ الأسمران يتهاديان أمام عيون ذاكرتها.

يا لهذه القطرات الناعمة! تتساقط من أعلى وتتحسّسها تمامًا كقبلة الملاك، فترتعش مثل ارتعاشة ذكرى مشوّشة، تجوب فيها التأوّهات.. التنهّدات المتقطّعة.. تنفتح عيناها على القطرات التي تحوّم في المساحة أمام بصرها كمصفوفة من سحرٍ تتراقص، كأنّها تخلّت عن جاذبية الأرض فجأة، تدقّق في حوافها البرّاقة غير المستوية، وظلال كلّ التفاصيل من ورائها تنعكس على سطح القطرات الأملس الصافي، فتبدو كخليط من وجوه متشابكة الملامح، كما لو أنّها شظايا من زجاج متكسّر رقيقة تهيم أمام العين، تلمع مثل وميض خاطف، تستكمل قطرات المطر - بعد قليل - تهاويها، تحطّ فوق رقبتها وصدرها وتتجمّع بين ثنايا ملامحها فتستقر.

لم أعُد أذكر عدد المرّات التي انتثر فيها المطر على مدينتنا من السماء وأغرقها، ربما لأنّها مرّات متتابعة وفصلية، لكنّي أذكر خروجنا في غبطة ونشوة ننقر أغطية الحلل بالملاعق ونهتف: (يا "مطرة" زيدي زيدي).

هو طور الطفولة، والعيال تُسبل أعينها، ونستقبل الماء المقدس الآتي من فوق كأنّه أحجية مغرية ستلازمنا كلّ العمر، نتابع في شغف النوافذ التي فُتحت على مصراعيها من السّماء، وهي تنشر علينا البرودة والدغدغة والغبطة، تلتصق ملابسنا بأجسادنا، فتبدو تعاريج أجسادنا كأنّها شروع في قدِّ تماثيل لم يكتمل تشكيلها تمامًا، تختلط ظلالنا بالماء الجاري تحت الأقدام، يسرحون معًا في اتّجاهات شتّى، يخضّبون - بالنماء - أرض مدينتنا، و"مَدّ" أختي كانت تمتثل في صبابة لنشوة طقس لا تُمارسه كثيرًا، تنكمش البيوت على ذويها، تصطخب السماء بأسهم البرق الفضية، يتوازى دقّ يديها فوق الحلل مع صوت الرعد الأجوف، الذي يشبه سربًا من نسورٍ مُقلِعة، وكانت أختي ترفع عينيها نحو السماء وتكاد ترى أنّ السُحب الكثيفة تتقولب وتصنع ابتسامات موحية، تنفرج في بعض أجزائها عن بؤر يتفرّع من خلالها ضوء القمر، لينتثر فوق بساط الأرض، وكانت تفرد صدرها قبالة الخيوط المتسرّبة من أعلى في شيء من شموخ وعزّة وانبهار كأنّها تقول: "هأنذا".

و"مَدّ" في كلّ وضوء جديد للصبح، في كلّ صخوة للزروع الناعسة والسّهول، كانت تهفو إلى البراح، تجوب المدينة ركضًا، تتجرّح قدماها أحيانًا من ملمس العيدان الخشن، تلاحق الأمل وتسابق أيّ زمن، ليست خائفة من تعثّر ولا من سقوط، تعرف أنّ السقوط بعده قيام، وأنّ المحال مع كلّ تصميم وكلّ إرادة يصبح ممكنًا سهلاً. تركض، وقد

تنكفئ على وجهها، إنّما تستعذب قليلاً التمرّغ في طين الأرض الطاهر، تتلطّخ ثيابها فلا تأبه، تركض وحيدة.. بسرعة.. لاهثة.. لكنّها رغم ذلك تأبى إلاّ أن تنطلق بذات الحماس، تنطلق، فقط، لتراقب المراكب الشراعية الصغيرة التي تحمل الأولاد، على الأخص الأسمرين، بدت كأنّها - في هذا العالم - نصف يقظة.. نصف حالمة.

متى رحلت؟ لا أعرف! لعلّه اليوم السبعين من نزول أول ملاك! كما قالت أمّي.

يوم قيل لها أنّ الخاتِن الحكيم آت، لم تكن تعرف لماذا؟ ومن هو الخاتِن؟ ولماذا رُفع لمرتبة الحُكماء؟

يقوم أهلي يستقبلون الخاتِن، يجلس خارج الدار، يُجلسها أبي جوارهم، لم تكن تفهم، إنّما راحت ترقب جمر "الرُكية" وهو ينطفئ في بطء، و"الغلّاي" يرقد في حشية الرّماد كأنّه إلى سُبات، غير أنّ غطاءه أخذ يتقلقل، والخاتِن يحدجها من مقربة، بل ويتملّى في النظر إليها، هي لا تفهم، بل - يا لحماقتها! - تبتسم، إنّما الذي قلقلها لم يكن قلقلة غطاء "الغلّاي"، بل هو هذا الإحمرار البادي من عيني الخاتِن، وتذكّرت أنّ المطر الذي جاء، أسقط بضع قطرات بلون الدّم، لم تندهش، الآن تفعل، لماذا يكون دمع السّماء دَمًا؟ لم تعِ لمَ يراقبها الخاتِن هكذا، يمسح بعينيه المكان، ويُمسك في يده أشياء مقمّشة، ومقصّات وأمواس، وكلّما واجهته بعينيها ابتسم، فتبتسم، له رأس ككرَة قطنية، وفي عينيه يصعد دَم، عروقه تنتفخ به، تكاد تنفجر، وجهه ملتهب حتّى في هدأة الطقس، وبرودته، ورضيع جاءت أمّه تشهد طقس الخِتان يصرخ من الغرفة "الجوّانية"، وحين يصمت، تُدرك أنّ أمه تُرضعه

الآن، ليحلّ السكوت، مجدّدًا، وتنظر لصاحب العينين المحمرتين، ثم تستدير بعينها لأبي، هادئ، إذًا ليس ينبغي أن تتوجّس! أليس كذلك يا "مَدّ"؟

- تعالي.

يقول صاحب الرأس الكرة، ويعلو صراخ الرضيع ثانية، فيدخل أبي إلى الغرفة "الجوّانية"، يصرخ هو الآخر، على غير عادة، ويعود محتقنًا، ولا يسكت الرّضيع، فيزعق متاديًا أمّه، ويطلب منها صراحة أن تدفن الولد في بطن الأرض، وإلاّ دفنه بنفسه، فبدا أنّ التوتّر عصف به، وأنّه أُرغم على مباشرة مثل هذا الطقس! ثم يبدأ توزيع الأرز باللّبن المغطّى بثمار التوت، ولا تفهم "مَدّ"، مدّ البراءة والهوس والرُوح. بعد قليل، يحتضنها أبي، يُرقدها على الكنبة، فترقد، يُخلعها لباسها، لكنّها تقاوم، فيجذبها، فتصرخ، حيث أدركت، يسقط بكفّه على صدغها، لم يصفعها من قبل، يصيح: "كفاية.. أنتِ كبرتِ..!". تنازع، فصفعة أخرى، تهاوى على الأرض.

والرضيع لم يزل منفجرًا في البكاء.

يحملها أبي عنوة، ويكبّلها، يتحسّسها الخاتِن، وبرفق، يسحبها لتضطجع فوق الكنبة ثانية، غير أنّها تقاوم، وتنازع، وتبكي مكابدةً، لا بأس أن تبكي طفلة! لكن أبي يسحبها من ضفيرتها، يجرجرها وراءه، ويصرخ:

- هاتي السّيخ.

في سرعة تأتي أمّي بسيخٍ أحمر دامٍ كان مدفوسًا في بطن "الرَّكية"، تتراءى لها الخيالات، وترى الملاك، ألم يقبّلها؟ مع ذلك تذهب عيناها للأسمرين، هل يُمكن أن تتزوّج كليهما؟

أرغموها، فنامت، ومن تحت ساقيها إناءٌ من الفخّار، فوّهته تشجب خيالها. في فمها طعم الغُلب، والطّين، والدّم، الذي يسيل ما زال، والأرض المفروشة مخضّبة بدّمها، وبشريعة باغية، وأمّي تقول من عمق البيت:

- نزوّجها ونَرتاح من دلعها طالما لا تريد أن يطهّروها!

يؤمن أبي على كلام أمّي، بهزّ رأسه، والرضيع ينتحب، ينتحب.

لماذا تحتّها أمّي أن تتزوّج! طيّب هل يُمكن أن تتزوّج اثنين؟ والملاك؟!

الموس يقتحم خلاياها، يمزّق رُوحها، يُفرغها من الأحلام، الدّم، والرُوح ترفرف، كانت أختي "مَدّ" قد بدأت تُدرك أنّها سوف تنام، ربما إلى الأبد، وكانت - رغم هذا - عطشانة، سوف تأتي الخيالات، سوف تتزوّج من ثلاثة، لسوف تُسقى، يا حظّها! وحينما شرعت ترتعش، وتبتسم، وتضطرم حولها الغيوم، ويخفت الضجيج، وتغيب الأصوات، ويصبح مذاق الدّم كمذاق كافة الأحلام النافقة، حينما تتيقّن أنّ البطولة في تلك الحياة للألم، منفردًا، يرتدّ الخاتِن للخلف مذعورًا، وينقبض قلب أبي حين يقتحم الغرفة، وكان يصيح:

- ماذا فعلت؟

تنحدر "مَدّ" نحو الشّط، شطّ النّهر، أجل بهذا القرب، لا تخاف، تتحسّس أناملها جسم المركب، الجسم الخشبي، الدافئ، وتصبح قادرة على رؤية الأسمرين، تتأمّل أعينهما، إنّ خيالاتها لابدّ ستأتي، حتمًا.

الدّم يجري نحو مياه النّهر، يسافر إلى الجبل، الدّم لا يترك لون المياه، و"مَدّ" تتمعّن من فوق، تُشرف على هذا العالم، تنظر وتضحك، لكن الملائكة - منذ هذا اليوم - غادروا، انسلخوا من أشجارنا.

وتقول أمّي: أكبر الخطايا كانت أن نترك الملائكة ترحل، وقد رأينا الأجنحة وهي تخفق طلوعًا إلى غير رجعة، لم يشفع لنا رجاء، هجّت الملائكة، سافرت حيث "مَدّ".

وتقول وهي تهيل التراب على وجهها: ماتت لنا بنت.. ماتت لنا بنت!

وتقول: تبًا لوطن تهجره ملائكتُه! لم تعُد الملائكة، لم تعُد.

وقيل لي بعد أن ماتت أختي أنّهم كانوا يرونها، كان النّاس في المدينة يرون "مَدّ" وهي سارحة أواخر اللّيل عند حدود المدينة- تلك الحدود الفاصلة بينها وبين الجبال والوديان والأنهار البعيدة، فقالوا أنّها حيّة، وقالوا كان غريبًا أن يهطل المطر في هذا الموسم على هذه المدينة، كما كان غريبًا أن تتحوّل ملامح القدر بهذا الشّكل! لكن كان المطر ينزل على مدينتنا نيرانًا، تلتهم البيوت والسّهول والجبال، وتصهر البشر.

جُرح أول

نوشهر

ومع شروق كلّ شمس؛ أبكي أيّامي الضائعة،
وبلداني الذاهبة، وآلهتي الغائبة!

نجيب محفوظ

ديسمبر 1922

1

في فزع دارت عيناي حولي في جميع الجهات، دخلتُ مهرولاً وسط ضبابٍ خانق وصدري جمرةٌ مِن جحيم، استطعتُ أن ألمح ضفّةَ النهرِ وأنا أتعثّر ثم أنهض ثم أستكملُ الركض، كنت أخشى من مطاردة جنودِ حِلف القوّات الثلاثي الذين انتشروا في شرق وغرب مدينة "نوشهر"، أطلقوهم خلف الكُرد فراحوا ينهشون ويقبضون على كلّ كُردي مسلم داخل أسوارِ المدينة، ثمّ ما عاودوا يميّزون، ألم تُعلن قوّات الحلفاء انتصارها على حِلف المحور المركزي منذ بضع سنوات؟ تعرّضتُ للحبس لمجرّد تواجدي العرضي في أحد الشوارع، وخرجتُ وكانت المُدن قد تدمّر معظمُها، وقد أتعرّض ثانية.

بدا كلّ شيء غائمًا، لم أكن أعرف أين المهرب؟ وعلى الضفّة الأخرى عساكر أيضًا، يتبعون جيش الحلفاء، إنّما يمرّرون الكُرد بعد تفتيشهم، بل ولعلّهم يسمحون لمن تبقّى بعد القصف من اللوذ بالفرار بعيدًا عن المدينة، هكذا أُشيع.

وجدت نفسي واقفًا فوق أرض زلقة منصرفة نحو شطّ الماء، أزحت بقدميّ الحشائش المتشابكة اللزجة، ووثبت سريعًا إلى عباب النهر، كان جبل "طوروس" واقفًا عند أفق الضفّة الثانية مشروخًا وبدا يئنّ، وكنت أمطّ رأسي من حشاش الماء فكان يُمكنني أن أحدّد معالم الضفّة، الحرائق مستعرّة أيضًا، غُصت في الماء أكثر، ودفعني موج،

وتلقّاني موج، لكن جسمي كان يدنو من الشّط، وجموع من الكُرد واقفون الناحية الأخرى، مجرّد تكتلات عشوائية لبشر أُريق موطنهم، لم أدرِ كيف حظيت بالقوّة الكافية للسباحة حتّى الضفّة المقابلة! تحسّرت وأنا أتذكّر صديقي "عمّار" الذي تعلّمت معه العوم، لم أكن عمري عوّامًا ماهرًا أو ذا بأس، كان "عمّار" ماهرًا عنّي، لكنّ الخوف استأسد بداخلي، ومنحني الطاقة اللازمة للعبور، تاركًا من ورائي المذابح والرّماد.

كان الجبل قريبًا، وحول قمته تسبح سحابات الدُخان الأسود المدجّج بالنيران، لم تنج هذه الضفّة إذًا، ضاعت المدينة بأكملها، خرجت سائرًا بين الجموع، ودخلت في نفق صخري مُوحش معبّأ بالبشر، كانت ملابسي مبتلّة، وقلبي جريح، خشيت على أهلي، أمّي وأبي وعروسي، وتساءلت: هل يُمكن أن يظفروا بالنجاة وسط كلّ هذا القصف الغاشم؟ ما الذي بعث الرُوح ثانية في قوّات الحلفاء بعد أن استنامت لهم الأوضاع؟ ضممت ذراعيّ حول صدري وسرت، والبرد يرعش أطرافي ويجمّدها، والرّيح آتية من تجاه الجبل، قارصة، طفت بعينيّ كأنّي أبحث عن شيء ضائع، ربّما أبحث عن الوطن ذاته! والعويل يترامى نحوي من جميع الجهات، وعلى مقربة كانت البيوت مهدّمة بشكل تّام، ثم كأنّي ألج إلى جوف مقبرة، كانت الروائح خانقة، روائح الأدخنة والحريق والأجساد النافقة، أكوام من البشر متراصون فوق بعضهم، عيون جاحظة لا حياة فيها، كُرد دهستهم قوات الحلفاء، تهشّم كلّ شيء وتردّى، حتّى الأحلام في هذه المدينة.

استدرت برأسي أرنو للوراء شاخصًا ببصري نحو الضفّة الأخرى ثم غاج فؤادي، فهناك تركت الأجساد عارية مشرّحة ملطّخة بآثام المعركة،

وليس منها من لم يحترق، جزئيًا، وربّما كلّيًا، والشظايا مقذوفات قادمة تتوهّج من كبد السّماء لتُغرق البشر، القنابل الحلزونية تنهمر من فوق، تدكّ المُدن الكُردية ما بين جبال "طوروس" شرق "الأناضول"، وجبال "تخته لي"، وتسحق الكُرد، صوتها رجرج قمم الجبال، فتصدّعت، وتفسّخت، وانشقّت عن غبار دامي اللّون، عَبَر أرجاء الفضاء، وتصاعد كلفحات من جهنّم، فزعموا أنّ القيامة وشيكة.

كانت قنابل الحلفاء تتساقط من السّماء، بقايا من أسلحة الحرب، وكأنّما فوّهةٌ ربّانية انفتحت، مضت تقذف الموت والتراب والنار والحُمم، والأرض ترتجّ، وبدت صخورُ الجبال تُلقى من بعيد كطلقات من مقت، والكُرد - تلك السّاعة - يتدافعون دون وجهة، والحُمم توجّ من جميع الأنحاء، تتلاحم الأجسام، تنصهر في المعمعة، السّماء تنفجر حُممًا، وترميها على المدينة، والأرض تنشّق، تتفسّخ، الحُمم تسقط من فوق، والدُخانُ يتدافع متقلّبًا من أسفل الأرض ليغبّر الوجوه، ويضبّب الرؤية، ويُهلك الأمل، والناس تندفع إنّما لا تدري إلى أين تأخذها أقدامها، بيد أنّهم يندفعون كخيوط تمرّ من قلب النار، والنيران قادمة وكأنّها قادمة ملفوظة من السماء، مرتفقة معها الجنون والبغض، ثم تسوّي الأرض ببعضها البعض، فيتسلّق البعض الأشجار، لكنّ الأشجار تفحّمت، فظلّت الأجساد متفحّمة فوق الجذوع، لا يوجد ثمّة مفرّ، المدينة بأسرها كتلة فوضوية، وفي المدى تتناثر شظايا البيوت والأشجار وشظايا النفوس، كلّه يتطاير مع الدُخان كهوام نارية، ولا شيء يُمكنه حتّى تجميد مشهد الدّم، لا شيء إلاّ معجزة توازي معجزة الغضب، أجل لم يعُد هناك بديلٌ عن الاستسلام، لا يوجد ولا مرفأ

يمكنه استقبال تلك الأرواح المعذّبة، والخيول والبهائم والغنم والفئران والزواحف والطيور ترمح في كلّ الاتّجاهات، كأنّها تتساءل: ما ذنبُنا جوار ما اقترفه بنو آدم؟

لون الهواء رمادي، ساخط، رمادي متّرب.

كلّ شيء يذوب داخل حلقة الدُخان، كلّ شيء يذوي، يتبدّد، ولا شيء يبقى غير العيون المحدّقة في السماء بارتياع.

اندفن غالب أهل المدينة، وغطّتهم سحابة من السخط، فالسّماء، والأرض، باتا - في لحظةٍ نافقة - وجهين لغضب الرّب المفاجئ، سقطت مدينة "نوشهر" بضفتيها، إنّما لم يزل القتال محتدمًا على الضفّة الأخرى بين عساكر الحلفاء وبين بعض المتمرّدين - وفق مزاعمهم! والأشلاء توسّدت الأمكنة، وقد أخذت أنفذ بجسدي بين الزّحام، وفي قلبي لهب مستعرّ، أطراف البشر تتطاير من حولي، فأشعر بالغثيان، وأنا أعبر بين الجموع المارقة دونما وجهة ولا هدف، أعبر في الدُخان القاتم، فتغيم عيناي، وكنت لمّا رفعت عينيّ نحو السّماء، وجدتها مغبّرة، مخضّبة بالدموع، أيّ أسى! ولا شيء يُمكنه أن يتراءى لي في الأفق غير هذه الطيور البعيدة المهاجرة، تحلّق كأنّها بلا عودة، وأجنحتها ترفرف في عجل، وفي رعب.

تسلّلت إلى طوقٍ من الرّجال، كانوا يبحثون بين البيوت المهدّمة في يأس، ونفذْت داخله، ولوّحت بيدي، وصرخت فيهم:

- انتظروا...

ولم يكترث أحدٌ، صرخت ثانية:

- قد يموت هكذا من لم يزل حيًّا..! احترسوا.

استدار بعضُهم نحوي، عيونهم محمرّة قانية، ووجوههم تذوّبها الدموع، لكن توقّفت المعاول قليلاً، كذا، استعرضت عيناي في وهلة مغلّفة بالجمود تماثيل البشر، تلك النابتة من تحت الأرض، البارزة مثل علامات استفهام أسطورية! وكأنّما لا نقصان فيها أو تآكل، يا الله! كأنّها مسرحية هزلية.

تماثيل متحجّرة، أياديها مرتفعة نحو السّماء، توقّف بها الرّجاء عند حدود الهلاك! طالعة من تحت أنقاض البيوت، والمعاول تضرب الأطلال تنبش عن جثث أهل المدينة.

عاودني الإحساس نفسه، وغلب ما عداه من أحاسيس، هو إحساس الغرابة والدهشة، وإحساس الفجيعة، يا له من إحساس! غير أنّي لم أحاول الشعور بحزن، ولا ألم، لم يعُد هذا النوع من الأحاسيس يتحرّك بداخلي، اندفن في عمق الحسرة، اعتراني صمت الصدمة، فقط، كلّ الذي شعرت به، مجرّد خواء في رأسي، فأخذت - بعينين جاحظتين - أتأمّل في الجثث الطريّة الطالعة من تحت الأنقاض، المُلقاة غير بعيد من قدميّ، المغلّفة بغلالة متحجّرة، لامعة، وبدوت لو أودّ أن أضحك، الضحك الهستيري، الذي لا يدلّ على فهم، ولا يدل على إحساس بعينِه!

- تمهّلوا.. أخشى أن تتمزّق الجثث بضرب معاولكم..!

وغصّ حلقي محتبسًا بالدموع، كلّ يبحث عن أهله وسط أكوام التراب والحجارة، وسط الجثث، ومشهد الفضاء جنائزي، قاتم، الغربان تطوّف كستارة مسدلة على وجه السماء؛ ستارة سوداء، وتتواتر في الأعلى كحبّات مسبحة، انقبض قلبي، انقبض حدّ أن ينعصر

في صدري، ويقطّر دَمًا، والغربان تحوّم، والمدى دُخان. ربّاه ما هذا الفراغ من حولي! كلّ التفاصيل فارغة إلاّ من صوت الغربان التي تحوّم في الفضاء، إنّها لا تعلم بعد إنّما تلك الجثث لا تصلح كي تكون وليمة حقيقية؟ إنّها أشبه بخِرق.. خِرق هشّة متفسّخة!

جرى بصري عليها: تلك الجثث ناريّة اللون، ودرجات النّار متنائرة على مدّ البصر، تنعكس ببريقٍ آت من عالم الغيب، ران على وجوهها نفس الجمود الذي أحاط بعينيّ، خيّل إليّ أنّي أرى عزرائيل يبتسم وهو واقف برمحٍ من لهب يسدّ باب الأفق، يَخرُج من أذنيه دُخانٌ كالضباب، ينتشر ليُغرق في ظلمته المدى، ومن فمه نار، ومن عينيه شرر، كان فاردًا جناحيه المظلمين، وتنسلخ منهما الغربان تحلّق في السماء متأهّبة لوليمة متخيّلة. العذاب يستعرّ هذه السّاعة، والطين يلوّث الجثث، يغطّي الأطراف، لكنّ المياه تتسرّب، مندفعة، من تحت الجثث، تندفع متحرّرة من حبسة سنوات وسنوات، المعاول تذهب إلى أعمق مواطن التاريخ غموضًا، وتضربها، فتحرّر المياه، والأرواح، وتحرّر الماضي من سباتِه! هكذا - إذًا- على الحياة أن تستعدّ لمأساة جديدة! فمضيت أتراجع مفزوعًا، والمعاول تستكمل.

خرجت من دائرة الرّجال، خرجت أترنّح، فتيبّست قدماي، والجثث تقبّ مع معاول المنكوبين، يا له من جنونٍ مريد! الجثث، الدُخان، والأقدام تتخالط، والزحام، لابدّ من أنّها مسرحية هزلية، كلاّ.. هي مسرحية دراماتيكية معقّدة.

ليس من معنى يُمكن أن أصف به ما ترى عيناي، ليس من لفظٍ يُنطق، ولا شيء غير الصدمة، بيد أنّي كلّما جاهدت أن أستلب وعيي

من تلك المنطقة الخاوية في الروح، خانني وعيي، وتراكمت حواسي - دون جدوى - في بؤرة مظلمة داخل رُوحي، ما أشبهها بالعدم!

الدُخان يمضي نحو فم السماء منبعجًا، كحلزون عملاق، متسربلاً بالرّماد والأمى، مهرولاً من صخب المأساة. والأرض تلفظ الجثث بشكل جنوني، وغير مسبوق. تلفظها من بين تلال الحجارة المتراكمة فوق بعضها البعض، بتعبيرات وجوهها المفزوعة. أطراف الجثث بدت منقبضة، مرتفعة نحو السّماء، تستمسك بشيء، شيء ما. الأيادي متّجهة للسماء، والوجوه مندهشة، نفس دهشة الوطن، من يُمكنه أن يضع تصوّرًا ملائمًا للذي أمر الله به أن يكون فكان؟

ومن هناك، من قلب الأفق الذي بدا يتموّج، بدا يُقدّ نورٌ، ضياءٌ أخذ يسري قادمًا، يسبح نحونا، يتشكّل هيئات، وهيئات، وقد أدرك الجميع أنّ كلّ عينٍ ترى حسب هواها، والنورُ آت، رأيته كأنّما ينفذ من بين الجثث، فتبدأ تسترد الحياة، تتحرّك، تنفض عنها القشور المحترقة، وتنتعش مع حلول النور داخلها، وتشبّعها به. لو أنّ الجثث حقًا تقوم ثانية؟! في غمرة النور، نعم، لا يؤاخَذ الرائي إذا رأى.

لو أنّ الله يهبط بيننا، فوق الأرض، لو أنّه فقط يقوّم اعوجاج الحدث! لو أنّ كلّ الذي جرى مجرّد كابوس تستيقظ منه مدينتنا؟!

بالأمس القريب كانت معاهدة "سيفر"، التي وقّعها "مصطفى كمال أتاتورك" بمباركة الدّولة العثمانية، عقب حرب الاستقلال التركية ما بين الحركة القومية التركية وقوات الحلفاء، وبدا أنّ الحرب لم تزل مشتعلة، لم تحطّ أوارها بعد، والجموح استبدّ بالسّادة، قادت هذه المعاهدة إلى اعتراف دولي بجمهورية "تركيا" التي ورثت الإمبراطورية العثمانية، وقد

حدّدت المعاهدة حدود عدّة بلدان مثل "اليونان" و"بلغاريا" و"تركيا" و"المشرق العربي"، تنازلت فيها "تركيا" عن مطالبها بجزر "دوديكانيسيا" و"قبرص" و"مصر" و"السودان" و"العراق" و"سوريا"، كما تنازلت "تركيا" عن امتيازاتها في "ليبيا" الممنوحة لها وفق معاهدة "أوشي"، بين الدولة العثمانية ومملكة "إيطاليا" في 1912، في المقابل، أعيد ترسيم الحدود مع "سوريا" بما يشمل ضم أراضٍ سورية واسعة إلى "تركيا"، أُعيد تقسيم العالم من جديد! يا له من عبث! واليوم أُبطِلت معاهدة "سيفر"، وتمّ إبرام معاهدة "لوزان السويسرية" للسّلام، أيّ سلام! لقد سُويّ وضع "الأناضول" و"تراقيا" الشّرقية، بعد إن نقضوا، صحيح نصّت المعاهدة الجديدة السويسرية على أن تتعهّد "أنقرة" بمنح معظم سكان "تركيا" الحماية التّامة والكاملة، ومنح الحريات دون تمييز، إنّما من غير أن ترد أيّة إشارة للكُرد فيها، كما لم تجر - مع ذلك - الإشارة إلى معاهدة "سيفر"، وعدّ الكُرد هذه المعاهدة ضربة نافذة ضد مستقبلهم ومحطمة لآمالهم، بل وقصمت ظهر الوطن، وفُتّت الكيان الكُردي، بذلك - إذًا - كان ينبغي أن يتحمّل الحلفاء المسؤولية الأخلاقية الكاملة تجاه الشعب الكُردي وتجاه حرمانهم من وطنهم القومي الحرّ والمستقلّ.

الحرائق تتصاعد للسّماء، والزحام، والطيور تهاجر إلى غير موطن.

يومذاك، أدركنا - نحن الكُرد - أنّ هذا التقلقل سوف يؤدّي - حتمًا - إلى تعقيد وتفاقم أزمتنا، التي بدت ألاّ نهاية لها، كأنّها أزمة جدلية خرافية، بعد أن أصبحنا موزعين - عمليًا وقانونيًا - بين أربع دول، لتزداد معاناتنا وليبدأ فصل جديد من فصول علاقة الكُرد أنفسهم بالدول الجديدة، علاقة سيطغي عليها - فيما بعد - التوتر والعنف

والدّم، انكسر الكُرد، كلّ مصيبتهم أنّهم يتبعون الدولة العثمانية، ذاب وطنهم في أفق من المجهول، وتعالت الأصوات الثائرة، وكنت واحدًا ممّن اقتيدوا إلى الحبس، كيما تلجّم الأصوات، وتسير المعاهدة الجديدة كما شِيء لها أن تسير، وحسب هوى "الأناضول"، بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى منذ سنوات قليلة، وعوقب كلّ من تجبّه ضدّ قوّات الحلفاء، وكانت الدولة العثمانية من ضمن.

ولم أكن إلاّ واحدًا من مئات، ضمّتهم السّجون، أُقتيدوا في جنازير من حديد صدئ، وجلدوهم بالسياط، صحيح أنّنا لم نقضِ سوى شهر أو يزيد داخل السّجون، كانت القنابل خلاله تدكّ المدينة وتقضي عليها، غير أنّنا خرجنا وحناجرنا صامتة، لم يسأل عنّا أحد، ولا حتّى الحكومة الجديدة، بدا هذا منطقيًا في خضّم الكارثة الراهنة، قضينا الشّهر في ظلمة حالكة، ودون أن يمسّ أجسادنا طعام، كان يكتفي الحرّاس بوضع جرادل من ماء آسن، أُجبرنا على شربه، بعد يوم واثنين، وكان الصّمت رفيقنا في السّجن، لم نحاول أن نحاور حتّى أنفسنا، ابتلعنا الحسرة، كما ابتلعنا الطغيان، ظللنا نشعر بالانكسار المباشر الفجّ كما لم يكن من ذي قبل، وقد تلاشى وطننا لقاء لا شيء، يا له من مصير! إن البقيّة سوف يُشترون، قسرًا، كما أسكتونا - كذلك - قسرًا، ففي غضون هذا الشّهر، اشتغل الجلّادون على ظهورنا، فأدموها، بل واشتغلت السياط فوق وجوهنا، وغابت ملامحنا تحت شلاّلات الدّم، عشنا في ظلام، إنّما كنّا نتحسّس ملامحنا، وأدركنا أنّه - كما تبدّلت خريطة الوطن - تبدّلت خرائط وجوهنا، وكانوا يتمزّجون في إيقاع ألوان العذاب علينا، ففي عزّ الشّتاء القارص، كنّا

نخرج جماعات، يعرّوننا، ويشكّلوننا صفوفًا والرّيح عاتية، ثم يدلقون علينا جرادل الماء البارد، ويتركونا لنقضي اللّيل عُراة في ساحة سجن المدينة، وقد انفجر أحدنا ذات يوم في وجه أحد ضبّاط الحلفاء، كان فرنسيًا، فخبطه بكفّيه على أذنيه خبطة تردّد رنينها حولنا، وقع الكُردي فوق الأرض مضرجًا في دمائه الطالعة من فتحات رأسه، كان الفرنسي له كفّ مارد رجيم، وبدأ صديقنا يفرفط، لكنّ الضابط أخرج مسدسه، وأفرغ طلقاته في جسد الكُردي، وكان يقول متهكّمًا:

- أتحسبون أنّكم بشر؟! إنّ بلادكم حين انضمّت إلى ألمانيا ضدّنا وضدّ الإنجليز ارتكبت أكبر حماقة في تاريخها، كيف للدولة العثمانية أن تكون بهذه الحماقة وتستعدي الحلفاء بعد كلّ ما منحته لهم هذه الدول؟ واليوم لماذا ترفضون المعاهدات العادلة؟ إنّ العالم يستفيق من جديد، وسوف ينتبه جيّدًا لأجناسكم!

- لكن ألم تنته الحرب بفوزكم؟

- انتهت الحرب ولم تنته المعاهدات، المعاهدات هي الضمان الوحيد لعدم قيام الحرب مرّة أخرى.

أدركت أنّ الجنس الوحيد الذي سوف يستكمل هذا العالم هو جنس المردة الملاعين، ليست كهذه تعاسة.

علّقونا في سلاسل مقدودة من بطن سقف الزنازين، كانوا يعلّقوننا عكسًا، ورغم ذلك، استطعت أن أتابع خيوط الدّم التي كانت تتدفّق مجذوبة إلى تحت، وفي هذه الأيّام، لم أعرف الخوف، إنّما ظللت أحسّ - حقيقة - بمعنى الضياع، أن تصبح في لحظة كلا شيء، تمامًا مثل

ورقة خريف طوّحتها ريح، أو كنافورة من ماء مُهدرة عبثًا في الفضاء، وكانوا - كثيرًا - ما يسألوننا:

- إذن أنتم الزمرة غير الراضية عن المعاهدة؟!

وددت أن أجاوبهم، أنتم أكراد كذلك، ألستم أكرادًا؟ لماذا انضممتم لبقايا قوّات الحلفاء الباغية؟ لماذا استبحتم دماء إخوتكم؟ أيّ معاهدة أطاحت بما تبقّى من وطن! ومن زعم أنّنا تمرّدنا؟ لقد قبضوا علينا محض صدفة، وتذكّرت الخاتِن، ما أشبه اليوم بالبارحة! إنّ العثمانيين يختتنون بلادنا!

وكنت أسمع أذان الفجر آتيًا من تجاه المشرق، من ناحية جبال "طوروس"، لم أسمع في تلك الأثناء غير أذان الفجر، ودوّي القنابل، وكنت أنتظر مجيء أذان جديد، طلعة كلّ صبح، وكانت عيناي تتوقّدان أملاً، وإن أيقنت انعدام الأمل وسط انحراف الأحداث، إنّما، على أيّة حال، كان عليّ أن أستمسك به، لعلّه السبيل الأوحد لاستكمال الحياة.

تسلّلت بين الأقدام في عناء، مرّة أنكفئ على وجهي فأزحف والأقدام تركض هرولة فوقي، مرّة أشبّ، فتلاقيني الأيادي المعتركة، ومرّات أُساق وسط جموع الزحام، وكانت وجهتي بيتي، أدركت - فيما بعد - أنّ أهلي ماتوا جميعًا تحت القصف، وأنّ بيتي بات ركامًا، استوقفوني وأنا سائر إلى بيتي، استوقفوني كثيرًا، وباغتوني بضرباتهم، حسبهم أنّهم استشفّوا بين ملامحي آيات الاعتراض التي كانت، وقد بقيّ منها أثرٌ ليس بشحيح، استوقفوني وضربوني، ثم ألقوني على جانب الطريق، مثل كلب ضال، والمدينة من حولي أطلال، وقمم الجبال البعيدة منحنية انكسارًا، مخفية بين سحابات الدُخان، ولم أقاوم، لا ضير من الاستسلام طالما

استسلم الوطن بأكمله! وحين أُلقيت على جنب، استسلمت لغفوة عارضة، ثم نهضت لأستكمل سبيلي إلى البيت، وكانت بطني قد انتفخت، فلم أعرف إن كان هذا أثر الجوع أم أثر المرض، إنّما لم أحفل، لعقت بقايا من دّم فوق شفتيّ، وابتسمت ذلاً، وكبريائي تضبّب في وعكة أظنّها سوف تدوم.

قوات الحلفاء منتشرة بين دروب المدينة، تحاول أن تُسكت المعترضين، يفتّشوني كثيرًا، وكلّما انعطفت نحو درب أو شارع، وجدت الجنود المدجّجين بالسّلاح الأجنبي واقفين في انتظار من يفتّشونه، يتصيّدون، لا بأس، لست أحمل حتّى مدية لأشقّ بها جسدي قسمين! يفتّشوني، ويضربوني ثانية ثم يتركوني، وفي تخاذل ترتفع عيناي للسّماء، والطيور بات لونها رماديًا، لقد تشرّبت أجنحتها بلون البارود والدُخان، في النهاية كنت أعلم أنّ الطيور تُخلق بلا أوطان، سوف تستقر عند أقرب سماء آمنة، إنّما أين سوف سأستقر أنا؟ الوطن مفهوم مؤلم هذه السّاعة. أمضي إلى بيتي، وقد ظهرت أخيرًا معالم المكان، الحوانيت المقوّسة المنحوتة بالصّخر، وقمم شجر السنديان المحترقة، غير أنّ الحوائط متفسّخة، مليئة ببقايا الدُخان، والبارود، وبقايا الدّماء، تلفّتُ حولي في يأس، لم يكن ثمّة من يدلّني، والهواء خانق، والطّيور في السّماء ترمح نحو وطن بديل.

تأمّلت أمواج الدُخان الصّاعدة تتأرجح نحو قلب السّماء، استوقفت أحدهم، سألته:

- ما الذي حدث في هذه الناحية؟

نظر لي يستعجب تساؤلي، ولاحظ أنّ علامات الخبل بادية على وجهي، لكنّه صاح بوجهي:

- هل كنت في قمقم؟ لا أحد هنا، أحرقوا الجثث.

ومضى عنّي مذعورًا وصوته يبحّ كأنّما يبكي، وراح يبرطم كأنّه يهذي، مات الجميع إذًا؟! لم يقل شيئًا آخر، فتقدّمت نحو البيت، وصعدت مع دوائر الدُخان المتّصلة، وسمعت صوت لهاث، ساورتني الظنون، فمضيت أبحث عن الصّوت، قلّبت الحجارة بيديّ، واللهاث يقترب، تعثّرت في أكوام الحجارة الملقاة، ولهثت بدوري، وأخذ صدري يعلو وينخفض، في سرعة، ثم وقعت عيناي عليها، كانت طفلة صغيرة اسودّ وجهها رمادًا، وكانت مقرفصة خائفة ترتعد، خلف أحد الجدران الذي لم يزل قائمًا، دنوت منها وبيديّ لوّحت لها ألاّ تخشاني، إنّما سرعان ما تجهّمت، وخدشت بأناملها ساعدي خوفًا، وفرّت راكضة تختبئ في جهة أخرى، أدركت أنّ الجنون أطاح بالمدينة، انحدرت إلى الشّارع ثانية، ومن بعيد يفتّش العساكر القادمين، عرجت نحو درب مظلم، واستطاعت أنفي أن ترصد رائحة نافذة، وحاولت جاهدًا أن أسلك طريقًا تُبعدني عن الرائحة، لكن الرائحة كانت تقترب أكثر، وعلى مرمى بصري كانت الجثث المحترقة لم تزل دافئة، طريّة، أشحت بعينيّ، أيقنت أنّ ملامحها احترقت، وليس لي سبيل في تحديد هويّة أهلي وسط هذه الجثث، غصّ حلقي، وحثثت قدميّ نحو جدار، جررتهما، وأفرغت جوفي وقعدت أنتحب، لم يكن لمدينتي أن تحترق مثل هذا الاحتراق!

وكالشريد، أخذت أقطع الدروب والشوارع، مثل تائه يبحث عن مأوى، حلّقت المدينة الضائعة نحو بطن السّماء، وعلقت فيها، بدخانها وأطلالها، وكان يتقاطر منها دموع، كزيت حارق يكوي قلب التّاريخ.

2

أجل كانوا يرون "مَدّ" سارحة.

قيل لي أنّ "مَدّ" كانت تحمل الغربان فوق كتفيها، ثم تحلّق، تستكشف الأشياء بصوتها، كان صوت "مَدّ" حادًّا، يجلجل في أرجاء اللّيل، فيستيقظ النّاس، ويشاهدونها وهي تطير في السّماء، تطير زاعقة، وتحوّم فوقهم، والغربان على كتفيها، تقوم في اللّيل، وترقد في النهار، كعادة الأموات، إنّما هل يقوم الأموات أصلاً؟ بل ذهب أبي قائلاً: وهل ماتت "مَدّ"؟

وقالوا أنّها ترتدي لباسًا من ورق الشّجر، فتصبح سماؤهم مفروشة بأوراق الشّجر، وقالوا أنّها لعنة، وقالوا أنّه غضب، وقالوا أنّه عبث، وقالوا أنّ الحكيم ملعون، لكن قال أبي: إنّما أنا الملعون.

كلّ الذي أذكره عن هذا الخريف البعيد أنّي كنت أرى أبي وأمّي يبكيان "مَدّ"، ويستأنسان بذكراها، وسمعت أمّي تقول:

- اللعنة بادية في الأفق، طالما ماتت ابنتنا يا "إمام" وذهبت الملائكة فالدّم سوف يغرق مدينتنا لا محالة، إنّ حلمي الذي حلمته سوف يتحقّق.

وقد كان.

من بعد القصف، رحت أتدثّر بأطلال الحوائط البائدة وعتمة اللّيل، أمّي تزورني كثيرًا في اللحظات التي يتلاشى فيها معنى الوجود، ويغلبني

نعاس الوجع، في هذه اللّيلة زارتني أيضًا، وقالت لي: قمم الجبال لا تلتقي يا ولدي، لكنّ العيون تلتقي، أكنّا نستحق مثل هذا المصير يا "زاخولي" يا بني؟ كان وجهها جميلاً كما عهدته دومًا، وملامحها مطموسة خلف قناع من الضباب، لكنّي قلت: المصائر رهن الأقدار يا أمّي. فغابت، وصحوت فزعًا.

كنت خلال هذه الليالي أقتفي أثر الطعام، ألملم بقاياه من على الأرصفة، ألملم بقايا طعام الأوغاد، وبلغت أنّي كنت أجمع أعواد الريحان وزهور النرجس من بقايا الحدائق وأسدّ بها رمقي، لم تكن لديّ حيلة للتغلّب على عضّة الجوع، وكانت - عقب منتصف ليل المدينة البائس دومًا - تستحوذ عليّ الخيالات.

وهذه ليلة أخرى يلازمني فيها الأرق فلا أنامِ، ليلة عاشرة ربما أو حادية عشر، في الحقيقة طالت ليالي السّهر فلم يعد يهمني إحصاؤها. وككلّ ليلة أحاول أن أسند رأسي فوق أحد الجدران، على أيّة طوبة ناتئة، كذلك أحاول بشدة أن أغمض عينيّ تاركًا روحي للغفو، محاولاً تكرار هذا الحلم بأمّي وأبي و"مدّ"، أو "زينب" عروسي، أو "مريم" جارتنا الأرمينية التي مرضت وسكنت الدّير، كانت "مريم" تزورني كذلك آتية من بين غياهب الفقد، إنّما سرعان ما تنفتح عيناي حينما يستبدّ بذهني مشاهد الحريق والجثث المتفحّمة والخراب.

أنا - لا أحد غيري - بات يلازم الخواء في هذا المكان، ينتهز العُزلة، وينفرد بتسجيل اللّحظات الأخيرة للّيل وللنّهار، للصّيف، والشّتاء، بل ويتشوّف أدق تفاصيل معاناة الطبيعة، والبشر، وغير البشر أحيانًا.

وكنت أتساءل: هل غيري يُمكنه أن يتشوّف معاناة البشر هنا؟ أوليست لي معاناة يُمكن أن يتشوّفها أحد غيري؟

طوبى لكم أيّها التعساء الذين احترقوا!

أُف!

جنب الجدار، متر في متر، والعزلة الملعونة، كثيرًا ما سمعت أصوات هنا في هذا المكان، كأنّ الموتى يترصدونني، يحلّقون في رأسي، ينبتون من بين شقوق الجدران، وجوههم متفحّمة، ودموعهم تُغرق الخيالات جميعها، لكنّ أصواتهم خافتة مرتجفة، والذي أثار انتباهي أكثر، هو الحوائط التي كنت أراها تتحرّك أمامي، أحملق باهتمام، لكنّ الأشياء تتحرّك، أجمد كثيرًا في موقفي، وعيناي تلفظان دهشتهما وخوفهما، أتوقّع أن أرى جثثًا تطفو أمام بصري على المدى، هي الحرب وتخيّلاتها وفقد وطن! يمرّ بخاطري أن أنزع عن نفسي - في وسط الخواء والبرد - ملابسي، وأقذف بنفسي نحو هذه الجدران العابثة، أقاتلها، ألا قاتل الله الجنون والعبث! أجد لخواطري مثل هذه السخرية المريرة فأزداد جمودًا على جمود، وأحملق أكثر، ولا أدري إلاّ وصوت - مثلاً - يسألني من ورائي:

- أسمعت هذا الهمس؟

فينتشلني من جمودي للذهول بعينه، أردّ دون أن أنظر إليه ربّما:

- نعم.. نعم.. لعلّها الكلاب!

أعرف أنّ كلاب المدينة آمنة، مع البرد، لا يخرج لها صوت ولا تُبدِ انفعالاً، إنّما، ومع الوقت أيضًا، بتّ أستلذّ من هذه التهيؤات، ويطيب

لي الجلوس فاحصًا راصدًا بل ومتمزّجًا من تحرّكات الأشياء من حولي، إنّها قلّة الحيلة! أو الجنون!

أنظر حولي، أحاول تفقّد الأجواء، لا شيء يدوّي هناك غير نفخات الهواء البارد في وجه السماء.

المدينة كلّها سجن وأنا ملق فيه كعلامة استفهام!

شتاء هذه المدينة، وليلها الفاحش، وطن هالك أوشك على التحجّر.

عاقرت الدروب الرخوة من شدّة الدّك، لم يكن لي مأوى، وكانت الحراسات مدشّنة حول سور المدينة، فلم يكن يخرج كائن، ولا يدخل، سمحوا لكلّ كُرد المُدن الأخرى أن يهاجروا، ومنعونا! قالت الحكومة الجديدة أنّ مدينة "نوشهر" أعلنت التمرّد، أيّ تمرّد؟! وكنت أفرّ بعيدًا إذا لمحت أحد عساكر الحلفاء، وكنت قد كتبتُ رسالةً إلى الله، رسالة ما! ولم أعرف كيف أرسلها، لم أجد أنّه يُمكن أن يغيّر شيئًا لو تلقّاها، فقط سأصاب بمزيد من الإحباط لو كانت الرسالة جزافية بلا طائل، وسأحتاج إلى سخطٍ إضافي، يبذله عنّي المسخ الذي تلبّسني، سخط كي يعرف الله إنّي في حاجة حقيقية إليه، وأنا لا أريد أنْ أتّخذ خطوة تجاه أيّ فكرة، أيّ خطوة، تجاه الله تحديدًا، رغم ذلك فأنا أحتاج دعمًا، الله هو الفكرة الكاملة التي بإمكانها تقديم الدعم دون مقابل، أنت لا تفعل أكثر من أن تبعث بالرسالة، وهو سيستجيب، هو الله، من غيره قد يستجيب؟ وسيستجيب في الموعد المواتم للألم الذي لن يُمكن احتماله، لكنّي ومسخي كنّا بحاجة إلى استجابة فورية، هنا، فورًا، ولو حتّى من باب الخبل! قلت له: أنّي لعبة في يد قدرك يا الله، إنّي ورقة

تطوّحها ريح المصير الغامض، هل ثمّة عذاب قد تمنحه لبشر قدر العذاب الذي منحته لي يا الله؟

لماذا يهبط القدر هكذا؟ لماذا يواجهنا الألم ندًّا بند! هل نحن حقيقة نصلح أن نكون أندادًا للألم؟ إنّه سينتصر دون ريب، إنّ للألم أسلحة ليست لبشر، إنّه مراوغ، إنّه لم يعُد شريفًا، ولا نبيلاً في منازلته، يجعلنا نشعر بالعجز في مواجهة كافّة الأحداث الخبيثة، ثم ما غاية الدموع؟ من العجيب أن يكون غايتها التذكّر، طالما أنّ هذا التذكّر مؤلم، إنّ التذكّر جريمة فادحة، لن ينظّف أوجاعي شيء، لا يُمكن أن نخالف الحقيقة، الكون يسير في اتّجاه واحد، الزمن يمشي للأمام، مسايرًا الحقيقة، أم بإمكانه أن يعود للوراء؟ لا يُمكن لشيء أن يعود إلى الوراء غير المسوخ، إنّهم يعودون للوراء، نحو الماضي، يحاولون العثور على الحقيقة؛ حقيقة الألم، دون جدوى، المسوخ لا يعثرون على الحقيقة أبدًا، المسوخ لا يرون وجوههم في المرايا، فالحقيقة في أصلها ضرب من عبث، لا يُمكن لمسخ أن يتصوّر طبيعة نشأته كمسخ!

مع الأيّام، تقمّصني المسخ لأبعد ما يكون، كنت أفتّش بين أكوام القمامة عن غذاء، وظلمة أحشاء المدينة لم تعد جامدة، ها هي تتحرّك، لتنجب كلابًا، أراها تدنو منّي في خبث وهدوء، ألمح في أعينها لمعان المؤامرة، لكنّها تربض عن كثب، أشيح عينيّ عنها، أتركها تعوي، في وحشة المدينة المحترقة، البؤساء أمثالي يمضغون بؤس الشوارع، وتراب المرارة، وحصا الهم.

- "كردستان"..

أمنح نفسي للهمس البعيد، ألهث خلفه وأرمح، أتقلّص، أتهاوى من حالق.

أمطّ ذاتي كراحة يدّ هلامية...

وقد حلمت؛ هذا الحلم بأنّي مستعسر ممارسة العادة السريّة، ثم لمّا يمنّ عليّ الهوى ويأتي مَنيّ، يتدفّق من رأسه حشرات سوداء صغيرة مفزعة، سرعان ما تنتشر حولي، وتبدأ في تمزيق واقعي حدّ الهوس.

حلمت يومًا بأنّ بطني تفتّتت، أصبح نسيجها مثل بقايا ورقة لحم خارجة لتوّها من فرن أمّي.

في ذلك الحلم؛ وكنت غافيًا جوار جدار متهالك، رأيت الحرائق تمتدّ نحو السّماء، ففتحت عينيّ، وكانت الحرائق تمتّد عاليًا، تصنع شبكة من حُمم في سماء المدينة. مهما حاولت أن تفكّر كيف بدأت اللحظة فإن ذاكرتك سوف تراوغك، اللحظة لها أشكال واحتمالات عدّة، غير مسعفة بالمرّة. قد يملكك الشعور بأنّ اللحظة بدأت منذ قرون، ثم أحيانًا تشعر أنّها بدأت الآن أمام عينيك، وربما شعرت أنّ اللحظة لم تبدأ بعد، هذه هي الحيلة التي اتّخذتها تلك اللحظة دونًا عن بقية اللحظات، ليس في الأمر من عدم مجاز على الإطلاق، بل كلّ ما قد تفعله أن تقف فقط، وتتأمّل فقط، وتمدّ بصرك إلى حيث لا يصل احتمال، تمدّ بصرك نحو حافّة الدهشة نفسها، حافّة اليقين، والشّك، كلاهما في النهاية وطن لا هوية له، وكلاهما يجتمعان في رأسك، حافة اليقين، حافة الشّك، وبينهما العبث كما لم يحدث من ذي قبل، بينهما مساحات غير مأهولة من الهلوسة، وبينهما تتناثر أشلاء الذكريات على جدّية الانتظار، حافة اليقين، وحافة الشّك، وطريقان لا

يلتقيان إلاّ قدرًا، مهما فكّرت كيف بدأت اللحظة، فلن يمكنك تخيّل نهايتها، كلّ الاحتمالات واردة، وكذلك كلّ وجوه الجنون.

حاول أن تفكّر فقط متى بدأت اللحظة؟

اجلس في نفس المكان، راقب خطّ الأفق البعيد، نعم، نفس الخّط، الذي تختفي وراءه الشمس في بطء، وفي خمول، وتقبّ ظلال الجبال، والذي يتموّج قبالته النّهر متراقصًا ليصنع من مغيب الشمس حزنًا عبقريًا، ويصنع من الألوان - على اختلافها - لونًا رماديًا لم يصنعه بؤس، هو لون مأساتك بالضبط منذ بداية اللحظة. هل يمكنك تخيّل مفترق طرق؟ احتمالات واردة لا حصر لها.

ليس عليك إلاّ أن تجلس فحسب، وتتأمّل المغيب في استكانة، ثم تمسح جبينك من حبّات العرق المتجمّدة، فالوقت شتاء، والشتاء لا يُحتمل، خاصّة لمن في قلبه دفء، عليك فقط إمّا أن تلفظ من خيالك صورة الماضي، أو تجترّ الذكرى كمسكين، مسكين تمامًا.

واقفة بنت العمّ العروس أمامك، جسدها حدوده البحر والطغيان والهذيان، جزيرة من الأمل، ذراعاها أعوام من الّلقاء، عيناها تخبّئان نشوة الّليل، كانت واقفة أمامك، ابدأ إذن في استعادة بداية اللحظة، واقفة، وبينكما اللا زمن في ذروة تجلّيه، وحولكما الوداع القسري كما لم يعرفه تاريخ عاشق من قبل، لكن الحقيقة تذروها كندف هائمة.

- هي عروسك.

قالت أمّي، فأمنح نفسي للهمس البعيد، ألهث خلفه وأرمح، أتقلّص، أتهاوى من حالق.

بنت العمّ، و"مريم" الأرمينية، والذكريات، أمّي و"مَدّ" وأبي، الكلاب تعدو من ورائي، أنيابها تتمكّن من ذيل الجلباب، لكنّي أنفلت، وأجري، أثب فوق رصيف ناتئ، أثب لاهثًا، تنصرف عنّي الكلاب، بيد أنّ الماضي لا ينصرف، والخرائب منتشرة على مدّ المرارة.

ترتفع عيناي نحو جبال "طوروس"، التي ينزلق منها الفرات عابرًا الوديان والسّهول، ويتقاطع مع أشجار الأرز المترامية فوق السفوح، كانت الجبال بعيدة عن نظري، إنّما تحمل لي نسيمًا يداعب خلايا ذاكرتي.

(يومًا سوف تنقرض أشجار الأرز). قالها لي الأب "أنطوان" الأرميني ذات جلسة وعلى وجهه ابتسامة.

هكذا كان الأب "أنطوان" الأرميني؛ يبتسم دومًا، وليس لديه حرج في اعترافه المستمر بذلاّته للرّب، وأحيانًا - وفي خصوصية شديدة - يعترف بها أمام أبي. يجلس بيننا فنحتفي به، يجلس ورداؤه الأسود مفروش أمامه، والصلبان اللامعة متدليّة من رقبته، لم يكن شيء يضايقه قدر لهو الصبية الأكراد المسلمين، والذي يشفع له أنّهم لا يُدركون، أكثر من مرّة يقابلونه في طريق، فيهرولون نحوه يقبّلون يده، ثم فجأة يسقطون على الأرض ضحكًا، فهم بعدها أنّ التندّر بتقبيل يده قد يجيء عرضًا، إنّما الكارثة في تلك الفكرة التي يحملها المسلمون عن مفهوم القداسة في حدّ ذاته، يكفي أنّ أحدهم أقبل عليه يومًا، كان شابًا بشوش الوجه، توقّف له الأب في الطريق حين استوقفه، أمسك الشاب يده يقبّلها، لم يكن في الطريق مارّة، وكان الشاب مليح الوجه حقًّا، وإن بدا أسمر عكس طبيعة أرمن هذه المدينة، لكن الأب قال في نفسه: يجوز. رفع الشاب يد الأب إليه، ثم فجأة بصق عليها ومضى، وكان يقهقه،

دون حتّى أن ينظر للوراء، صُعق أبونا "أنطوان" يومذاك، تساءل في حسرة: ما الذي يجري حقًّا؟ وقف طويلاً حائرًا، ثم هزّ كتفيه واستكمل طريقه، ورفع عينيه للسماء مخاطبًا الرّب قائلاً: إنّك محبّة، لن يجور على محبّتك جائر.

عصر هذا اليوم البعيد؛ أصرّ أبي أن يشرب الأب "أنطوان" الشاي الأسود أمام بيتنا على المصطبة، قال أبونا:

- اتركني، أنا في عجلة من أمري يا "إمام".

غير أنّ أبي حلف عليه بأيمان المسلمين جميعها، تنهّد الأب وجلس، وهو يقول:

- آه لمّا تكون لك حاجة يا "إمام"!

جلست أنا تحت قدميه، كنت لا أكتفي من حكاياته المريحة للنفس، والباعثة على التفكير، قال أبونا "أنطوان" وهو يخاطبني:

- صغير حقًّا أنت يا "زاخولي" لكنّ شأنك يبدو الآن في عينيك، سوف تصبح لك حدّوتة يحكيها العالم يا ولد.

واستدار إلى أبي:

- ابنك يا "إمام" له طلّة ملاك.

حدجني أبي، بدا مندهشًا من حديث الأب عن طفلٍ مثلي، لكنّه أومأ برأسه يشكره، ثم مال عليه هامسًا:

- قصدك طلّة عفريت يا أبينا.. البك لا يريد حفظ سور القرآن!

ونظر لي وهو يهزّ رأسه في أسف، ثم ضحك ضحكة قصيرة وأكمل:

- دعنا الآن من "زاخولي".. هل أنهيت ما تحدّثنا بشأنه؟

تململ الأب "أنطوان" قليلاً، ثم أخذ يبرم لحيته مفكّرًا، كانت تلك عادته إذا حاول أن يهرب من إجابة ما أو موضوع بعينه، غير أنّ أبي كرّر:

- هه يا أبينا!

- بصّ يا "إمام".. أنت أخي، وتعرف ذلك، لكن موضوع أرض الدير شائك، حاولت فتح الموضوع مع الأسقف لكنّه قطع عليّ الطريق وقال: ليس وقته يا "أنطوان".

ومصمص شفتيه قليلًا ثم غمغم:

- عمومًا أمهلني بعض الوقت وسأفاتحه ثانية.

- ومتى وقته يا أبونا؟ الأرض بور، وتحوّلت إلى خرابة، أنا قصدي الكنيسة تستفيد بدلاً عن رميتها هكذا، الأرض هذه موهوبة للخير.. الخير فقط!

- عجينك يحتاج إلى ماء كثير يا "إمام"، إنّما طيّب، طيّب يا "إمام".. اصبر.

ثم تنهّد ونهض، وتنحنح قائلاً:

- أتركك في أمان.

ولملم رداءه ثم مضى، لم ينسَ أن يوليني نظرة باسمة وهو يلج إلى منعطف الطريق بخطواته المتأنّية.

في هذه السّن، لم أكن أعرف عمّا يدور بينه وبين أبي، لم أكن أعرف شيئًا عن موضوع أرض الدّير، كلّ الذي كنت أعرفه هو حجم صداقتهما، كنت أرغب كثيرًا في الجري وراءه وسؤاله عن "مريم" التي سكنت الدّير، لم ينقطع حلمي بـ"مريم" قط، كنت دومًا أسند رأسي على الوسادة، وتراود خيالي.

وقد جلست إلى الأب "أنطوان" ذات عشيّة، وكان أبي ساعتها منشغل في ترميم البيت، وفاتحته في أمر "مريم"، لكنّه قال لي:

- أنت صغير على أن تفهم مثل هذه الأشياء.

ثم حطّ يده فوق كتفي وأخذ يحكي:

- لعلّك صغير حقًا، لكن لا بأس أن تعرف أصل الأرمن، الأرمن يا بني جنس لا يحب الفضول، له أسراره.

أدركت مغزى كلامه، إنّما ظللت أستمع.

- ننحدر من عرق هندي أوروبي يطلقون عليه "هاي"، كان لنا قائدٌ وزعيمٌ اسمه "هاييك"، هو ابن حفيد "نوح".

لم أكن في حاجة للاستماع إلى حكايات نسله الذي انحدر منه، فقد قصّ عليّ أبي مرارًا حكاية الأرمن، وكيف وفدوا إلى سهول "كردستان".

نشأ الأرمن في شبه جزيرة "البلقان" ومن ثم اجتازوا سهول "روسيا" الجنوبية ووصلوا إلى "تراقيا" ثم عبروا "البوسفور" مع شعب "الفريجيين"، وهما من عِرق واحد، كان ذلك قبل المسيح، وحلّوا في "فريجيا" في أواسط آسيا الصغرى.

ولأسباب لم يذكرها أبي - أو لم يذكرها التّاريخ - انفصل الأرمن عن إخوانهم "الفرنجيين" وخلّفوهم وراءهم، وساروا في القرن السابع قبل المسيح جهة الشرق، إلى أن استقروا في مرتفعات جبال "أراراط" وما يجاورها، والتقوا في طريقهم بقبائل أخرى، وقد امتزج قسم من أبناء هذه القبائل بالأرمن، بيد أنّ قسمًا آخر - ومنه سكان "جيورجيا" - رحلوا شمالاً يختزلون في قلوبهم منذئذ الكره والبغض لمحتلي أراضي الآباء والأجداد، كنّا نعرف أنّ الأرميني الأصيل غير المزيج تبلغ قامته مترًا ونصف المتر، وشعره عادة أسود وعيناه غالبًا سوداوان، وتلك صفات تتطابق - غالبًا - على الأب "أنطوان"، وكان يحدّ أرمينيا القديمة شرقًا سهول بحر "قزوين" و"أزربيجان"، وغربًا سهول "الأناضول" وجبال "طوروس" وشمالاً "جورجيا البنطية"، وجنوبًا جبال الأكراد وما بين النهرين.

قال الأب "انطوان":

- وهل تعلم أنّ فلك "نوح" قد استقرت في "أرمينيا".. في جبال "أراراط".

خرج أبي والأب "أنطوان" مستغرق في قصّ حكايته، فضحك وهو يقول:

- يا رجل.. ألم تحك لي هذه الحكاية عشرات النوبات؟!

تنهّد الأب "انطوان" وقال:

- وكيف لهذه الأجيال أن تعرف تاريخ الأوطان إلاّ عن طريق الحكايات؟!

ثم استدار نحوي ثانية، وكان دُخان الشاي الأسود يصعد من فم الكوب متراقصًا، وقال:

- إنّ "أرمينيا" غنية بالأنهار، لم تر يا ولد يا "زاخولي" نهري "أراكس" و"الكوره" وبداعة مصبهما في البحر "القزويني"، لم تر مشهد البحيرات السّاحر القائم على قمم الجبال؟!

قال أبي:

- ولماذا لا تحكي له عن آلهتكم الكاذبة التي عبدتموها قبل اهتدائكم للدّين المسيحي؟

- في النهاية اهتدينا يا "إمام".

ثم أكمل:

- نعم، عبد أسلافنا "يرشامين" إله الخصب، و"أناهيت" إله الحرب، و"نانا" إله القوّة، و"فاهاكن" إله الشّجاعة، وفوق ذلك آمنوا بالإله "فاناتور"، إله السنة الجديدة الذي يغدق على البشر الهبات، ولقد شيّدوا معابد لكل من الآلهة المذكورة. وآمن السلف أيضًا بأرواح دون الآلهة منها "كروغ" الذي يسجّل في سجلات الأبدية أعمال البشر، الحسن منها والرديء، كذلك "هاقر" و"جاهار"، العرائس التي تحيي الموتى بلحسهم جثثهم.

قاطعه أبي:

- أعوذ بالله..!

حدّق فيه وزمّ شفتيه، ثم استطرد:

- وآمن أيضًا الأرمن بالجن، أي بأرواح تفوق الإنسان قوّة، ومنها الأرواح الصالحة والأرواح الطالحة.

فردّ عليه أبي:

- ولكن هل آمنتم بالمسيح مثلما آمنتم حقيقة بكلّ هذه الآلهة!

فنظر له الأب "أنطوان" نظرة باسمة وهو يستعدّ للانصراف.

3

الضرب يُقدح ثانية داخل حواشي المدينة، أُفزع، وأثب والعرق يغمر وجهي، وقد انقطع حُلمي بـ"مريم" الأرمينية، أتسلّق سلمًا متهرّئًا وأقف فوق سطح أحد البيوت، أراقب خطوط النار التي تنقذف من أعلى، والخرائب مُوحشة، وبامتداد البصر، كان يُمكنني القبض على قمم أشجار "الأرز" الطالعة من بطن السّهول، لكنّها كانت مُوحشة أيضًا، وبدا أنّ نبوءة القسّ الأرميني سوف تتحقّق، لسوف تنقرض سهول "الأرز" في برّنا.

المشاهد تتراءى أمام عينيّ، أستعير بهجة الذكريات، ومرارتها مع ذلك، يوم جاء عمّال الحكومة ليقطعوا شجر الأرز بحجّة أنّ ثمّة شحّ في موارد الخشب، اجتمع الكبار، وقرّروا أن يمنعوا المعاول والفؤوس من قطع الأشجار، اجتمعت المدينة، وكنت صغيرًا، لكنّي قلت لأبي:

- نفسي أذهب مع من سيذهب، لم أعُد صغيرًا يا أبي.

مصمص أبي شفتيه وأردف وهو ينظر بعيدًا عنّي:

- اذهب..

ثم من بين شفتيه زام:

- أستغفر الله العظيم.. جيل لا يعرف الصبر.

ورحت مكتنزًا بشغفي مدفوسًا وسط الجموع، كانت فرحة هؤلاء، من أبناء مدينتنا، أن يجد الواحد فيهم مركبًا تعبر به للضفّة الأخرى من النّهر، فوسط هذا الصخب، وفي ذروة الازدحام، يصبح الانتقال حتّى البرّ الآخر معضلة كبرى، خاصّة أنّ الجميع قرّروا الاعتراض على فعلة الحكومة.

قال أحد الفلاسفة - ممّن يشهدون له برجاحة العقل:

- يعني من قلّة الرّجال نصطحب معنا العيال؟

الجميع بلّموا، لنا نفسٌ أيضًا لمحاكاة الكبار، بعض ممّا دار في خلد الجالسين حول موقد الفحم يدغدغون جلدهم بنشوة الدفء.

فقام واحد - ممّن يشهدون له باللهف وخفّة العقل:

- وماله يا أستاذ "زين"! العيال يكبرون مع الوقت.

الأستاذ "زين" ناوله صفعة على وجهه وهو يربد:

- لكنّك لم تزل طفلاً يا أحمق.

زام أولاً، ثم تحسّس موضع الصفعة، ثم خامرته تهيؤات عن الأستاذ "زين" وهو راقد أسفله يغرز عصا خشنة في دبره، بعدها كاد يضحك، بل وكاد ينهض ليردّ الصفعة، لكن سرعان ما نفذ إليه الأستاذ بصّة نارية، فصمت مكشّرًا تكشيرة الندم على القول وعلى التهيؤ، كأنّ الأستاذ قد تمكّن من دخول عقله وقراءة خيالاته، ثم التفت الأستاذ نحوي وقال:

- حتّى أنت يا "زاخولي" يا مؤدّب؟ أمّك ستّ طيّبة وأبوك رجل محترم!

الأستاذ "زين" نفسه بعد مرور يوم، والثاني، قد أيقن تمامًا أنّ ناس مدينته عقلاء، ولن يستجيبوا للعب العيال، بات خلال الثلاثة أيام الأولى يمشي معتدًّا بقدرته على إقناع أهل بلده بالعدول عن اصطحابنا، ويقابل كلّ واحد على حدة، ويشير له محذّرًا: خلاص يا فلان.. اتّفقنا. فيهزّ فلان رأسه بإيماءة مليئة بالثقة. لكن من خلف ظهره تنمو المعارضات: (من منح الأستاذ الوصاية علينا وعلى أولادنا؟).. (نفسه يتحكّم بنا وخلاص!).. (ولو.. أنا ولدي سيأتي معي).

تصبح الشمس خابية، ذلك حين يتجمّع أهل المدينة على ضفّة النّهر الغربية، يبحثون عن مركب شاغرة. في مدينتنا تهجع الدروب منذ مغيب الشّمس، تضطجع الأشجار تلتصق بأغصانها وتسير نحو سبات لصباح جديد، لا يظلّ يحوّم في طرقات المدينة غير تلك الكلاب التي لا تعرف لها مستقرًا آمنًا سوى الشوارع، وكما تغمض السماء عيونها، تسبل جفونها كذلك رفرفة الحياة فوق رءوس الناس، ينامون ليموتون ككلّ ليلة، فيستعيدون في صبح تال تلك الحياة التي غادرت عنهم ليلة كاملة.

لم أكن لأنسى تلك الليلة، حيث انكفأت المركب على وجهها في منتصف المياه، وغرق جميع من فيها، بمن فيهم الأستاذ "زين" نفسه، اللّهم إلاّ ثلاثة، نجوا، طفل صغير لم يتجاوز الأربعة أعوام، وامرأة ضريرة.

ولحظّي كنت ثالثهم.

قال لي أبي وقتها:

- لو لم تمدّ يدك إلى الموقد، لما احترقت!

4

وكنت مكشوفًا لي قبل أن أكون كاشفًا، معصوفًا بالجُروح والمرارة والأسى. يوم وقعت عيناي على البنت الأرمينية، كانت مضطجعة وراء وادي القبور غرب المدينة، لا أدري لم ساقتني قدماي لقبر أختي "مَدّ"! وقعت أمام القبر على ركبتيّ، وفرشته بأغصان شجر جافة، جلست لساعات أبكي، لم أكن أذكر تفاصيل وملامح "مَدّ" أختي بالتمام، فقد كنت صغيرًا عندما رحلت، إنّما كان يُمكنني تذكّر بهجتها، وتدبّر ملامح من الذاكرة البعيدة، لم تكن أكذوبة كسائر الأكاذيب التي اخترعها ألم هذه الحياة، كانت حقيقة نورانية، ألم تكن "مَدّ" ملاكًا يا أمّي؟ حاولت أن أحرّر رُوحي عن طريق البكاء، إنّما كانت تجيش نفسي بمرارة الفقد، وبدا كأنّ جسدي يحتبس صراخه وتشرذمه، وخطر لي أن أنبش قبر أختي الملاك، كيف لا يُمكن أن أستعيدها وسط كلّ تلك الأشياء المُهدَرة؟ ألا تأتي معجزة فتُبعث أختي من جديد نستكمل معًا مشوار الألم! ثم وأنا أمسح دموعي، وقع نظري على البنت الأرمينية، أعادتني لذكراي مع "مريم"، كانت توشك أن تستقي منها كلّ الملامح، لولا أنّها كانت معطوبة بآثار الحرب. كانت مغربية، فقلت في نفسي: المغربية! أوان كلّ عجب! من عادتي كنت أن أجوب المدينة شرقًا وغربًا، لم يكن ثمّة مأوى ثابت، كانت عادتي التجوال، والتأمّل، ومراقبة هدد المدينة الذي أحالها إلى خرابة كُبرى، أو ربّما عادتي - كذلك - السأم، لا لشيء ربّما إلاّ هذا الشعور الضارب في نفسي بالعدمية، كافة المسائل تقف على حدّ

العدم؛ بالنسبة إليّ، فحيث يأتي المساء، وترحل الشّمس بحصادها من عذابات البشر، كنت أسير في المدينة، شريدًا، تخالجني ذكريات البيت والأهل، أزور قبر أختي، أقلّه أعرف أنّ أحد أهلي يسكن هنا، أمّا البقيّة فاندثروا، عادتي أجوب الخرائب أتفقّد ما آلت إليه مصائر التفاصيل، كنت أرى الشّجر وهو ينمحي في بطء ويُقتلع وتتنازعه الرّيح، وأرى الخنادق التي تأوي الزواحف والخبث، وأرى الجداول التي يغفو ماؤها - كالبشر- في المساء، إنّ المساء خُلق للتخفّي.

يوم رأيت الأرمينية، كانت ممدّدة فوق جذع شجرة ناشف، أيقظتها في هدوء، فلمّا رأتني، خافتني، وارتعدت شفتاها، وبدا صوتها مبحوحًا، وهي تتمتم، فلم أستطع تفسير ما تقول، كانت ملابسها سوداء، إنّما رثّة، تكلّحت وتمزّق بعضها في الجنب الذي كانت مستلقية عليه، وبدا أنّ في جبهتها جرحًا قديمًا، لكنّ المساء أخفاه، إذ خُلق -أصلاً- للتخفّي، وكان ثدياها متهدّلين، بلعت ريقي، وأنا أتفحّصها، وفي الجوار حفيف، ششششش، أستدير، خشيت من أحد عساكر الحلفاء، فلو قبض علينا لاغتصبنا معًا، إنّما لا يوجد غير الصّمت، حسنًا، تقدّمت عليها قليلاً، فتراجعتْ، والظلال من حولي ترتعش، الضوء القادم من السّماء يرتعش، غير أنّي ما إن تقدّمت عليها مجدّدًا، وبدأت أحطّ يدي فوق كتفها، نطّت كملسوعة، فتراجعت، وحملقت فيها، ثم قلت لها:

- لماذا تنامين جنب القبور؟

لكنّها لم تجبني، وابتسمت بحسرة، اكتفت بأن تتطلّع إليّ، واللّيل لم يجيء كاملاً بعد، ثمّة دفقات من ضوء لم تزل عالقة بثوب المساء، كرّرت عليها:

- الجو بارد هنا؟

فقالت:

- المدينة كلّها تحوّلت إلى قبر مفتوح، والخلاء ممتدّ إلى ما لا نهاية.

وزاغت عيناها، فقلت لها:

- تعالي معي، أعرف مأوى داخل المدينة يقينا شرّ البرد والجنود.

لحقت بي دون أن تعترض، من حولي الضفادع، وخروشة الحشرات التي تسكن حواشي الهدد والأطلال، واللّيل جاء، بكامل سواده، كنت أمشي مسرعًا، وهي من ورائي، أخشى أن يلمحنا عسكري، وكان الصّمت بيننا، حاجزًا، لم يكن رجلٌ على الطريق، بضعة كلاب فقط كانت تتوارى في كنف حطام البيوت، وأعينها تومض، ولم تكن تُصدر صوتًا، إنّ الكلاب اعتادت رائحة أجساد المشرّدين، مثلما اعتدت أن أمضي اللّيل متجوّلاً في فضاء المدينة.

بيدي دفعت باب بيت لم يزل فيه جداران قائمين، فدخلت الأرمينية، رميتها بجنب عيني، فلم تلتفت إليّ، وارتمت فوق مصطبة من حجر، وأغمضت عينها، وغطّت في نوم، ورحت أتأمّلها، كم تُشبه "مريم"! أهدابها طويلة، وبشرتها بيضاء، وإن غطّاها عفن السِكك المتربة، وكانت وهي تتنفّس، تئن، فأدركني الشغف، وأدركت أنّي في حاجة لإسكان خواطر جسمي، وبسرعة استدرت عنها، وألقيت بجسمي المشتعل تحت مياه الطلمبة الباردة، رغم الصقيع.

الصّمت، إلاّ من أنينها، والخواطر تجتاحني، "مريم"، "زينب"، آه يا "زينب"، أنين الفتاة يتمازج وحواسي، رائحة جسدها تقتحمني، تأتيني

من بعيد، تثيرني لأبعد ممّا يحتمل توازني، أستشعر تلك الشذرات من عبير جسمها، وقد أغمضت عينيّ إلاّ عن الرائحة، فتحت منخريّ، ونفختهما، وأخذت أستقطب هذا الشعور بالرائحة أعمق وأعمق، وهجت، كم شهرًا أحوّم في خواء الحرائق والدُخان وأنا مشرّد؟ أما يطيب لي بعض التسرية! اختلج صدري وحضور الرائحة طاغ، رقراقة هي رائحة البنت، كان لها وقعٌ في رُوحي، وطيفها في رأسي يتراقص، متناغمًا مع مزاجي الخالي، حتىذاك اللقاء الفائت أيّام الصبا لم أكن قد اضطربت من امرأة مثل اضطرابي بهذه! أقصد الاضطراب الوقتي، اضطراب الشهوة، نعم أذكُر أنّي كنت أشعر بالرضا، غير أنّي لم أفقد حواسي كاملة تحت تأثير رائحة واحدة فيهنّ، وأنا جرّبت الروائح على تباينها، معظمها نفذ بداخلي حقًا، إنّما لم يستول عليّ، كهذه اللحظة، وتيقّنت أنّ رائحتها سوف تدفعني للهذيان، فخرجت من تحت الطلمبة عاريًا، رغم البرد، أغلب الظنّ أنّها مؤهّلة كي تكون وليمتي هذه الّليلة، أظنّها في حاجة مضطرمة كنفس حاجتي، التشرّد موجع.

أقف فوقها، أهزّها بيدي، فتتأوّه، أهزّها، وتئن، فأعضّ شفتيّ، وتلامس أنفي شعرها، وحواسي تتّقد أكثر، فأستنشق هذا العبق، ولا يتزّن شعوري، وتسود نفسي فوضى الرائحة، ولا يُمكنني مقاومة هذا الشعور، وحين تفتح عينيها، تصرخ، ثم تتجمّد هلعًا، وأناملي تغوص في لحم شعرها الدافئ الغزير، أحسّت أنّ يديّ ستلتفّان حول عنقها، وأنا أنزل من شعرها وأحفّ بأظافري عروق رقبتها، أجل هو جنون الخواء، ورغم أنّها شعرت بالبرد، فارتجفت ملامحها، إلا أنّي شعرت بالانتعاش، وبرطوبة حواسي، عندما خرج لساني ليلعق فمها، لكن سرعان ما

مضت تتطلّع فيّ، وتبادر بضحكة مرتعشة، وقد توجّست، أو خمّنت أنّ الشبق مستحوذ عليّ، أبعدتني برفق، ثم ضحكت ثانية، بشيء من الاتّزان، ضحكة أكثر حميمية، أدركت معها أنّها مستعدّة، فأسحبها، لا تقاوم، أزفر زفرة ساخنة وأنا أقول:

- تنشطّفي.

لكنّها تهمهم:

- الماء بارد هذه السّاعة.

- سأدفئك بجسمي.

تخلع ملابسها، فيتدفّق عطر جسدها ويكاد يُغمى عليّ، وتحت الماء البارد تنزل، تغلق الباب، لكنّي أزيحه بيدي قائلاً:

- فلأتفرّج عليكِ.

وتتركني أفعل، أداعب جسمي وأتحسّسه، وأراقبها بعينين جاحظتين، وهي تتلوّى تحت الماء، وتدعك جسمها بيدها المرتعشة، ويرتفع صدرها ويهبط، وينتثر الماء على وجهي، فيفور جسمي، وأجذبها إليّ، فتسرسع، وشغفي يلامسها، فتستدير بظهرها، وتلتصق مؤخرتها ببطني، وتقول:

- طيّب ينفع تنام معي ولم أعرف اسمك بعد؟!

- لا قيمة للأسماء في ظلّ هذا الخراب.

وألعق رقبتها، فتبتعد متدلّلة، وتقول:

- طيّب اسمي....

لا أكترث، أحيطها بذراعيّ، وأحملها فأرقد فوقها على المصطبة، لكنّها تداعب وركيّ، وتلهج، تدفعني من فوقها، وتنحني، تضمّ بيديها حجرًا بارزًا عن الجدار، وتدفن وجهها فيه، تلمّ ركبتيها تحت بطنها، وتعطيني ظهرها، فأرى منافذها محمرّة متأهّبة، أبلّ المنتصب، ثم أدفعه بداخلها، في عنف، فتصرخ، أخرج، وأدخل، فتصرخ، وتعضّ شفتيها، أضرب فخذها بيدي، منتشيًا، والزبد يُغرق شفتيّ، ثم أخرج من أمام، لأدفع من خلف، فتصرخ بصوت أعلى، وتنقبض مؤخّرتها، لكنّي أشدّها إليّ، في قوّة، وأصرّ، فتستكين، وتترك لي منفذها الضيّق، أشعر بعضلة الشّرج تعتصر رأسه، فأحاول أن أهدأ لأدفعه برويّة ورفق، وتأن، تئنّ هي أكثر، ومع أنينها، أستكمل دفعي، إلى أن يلتحم كلّه بداخلها، وأبدأ أرتعش، طلوعًا ولوجًا، ثم بأصابعي أضغط على ظهرها، فتتأوّه، وأنا أمنحها دفء سائلي.

وبدت ومضة ضوء نافقة وسط الرّماد والخراب.

إنّما شعرت أنّي أخون بنت العمّ، غير أنّي قلت في نفسي، وكنت وقتها هائمًا في مدار عدمي: وهل يُمكن خيانة الموتى؟ وهل يجوز إلاّ أن نترحّم على الميّت؟

رغم ذلك، قبعت عاريًا جنب الجدار أبكي، أبكي كأنّي بتّ عاريًا وسط محيط بوهيمي عبثي، تستبدّ بي الهواجس والظّنون.

دنت منّي الأرمينية، ربّتت على كتفي، ثم احتوتني في صدرها، وبدا أنّ الألم اجتاحنا معًا، حيث جلست جواري تبكي بدورها.

5

في مكانٍ ناء، يعتزل مخزن غلال مدينتنا، من فرطِ عُزلة المكان، ألمّت به الوحشة، حوائط البيوت متهالكة، محترقة، ملمومةٌ حول بعضِها، مرصوصة فرادى، والظلمة موحشة، الظلمة التي كانت تُفسد براءة العُزلة وشغف الاسترجاع، الظلمة نفسها اليوم تصنع من الأماكن خرائط للدهشة، خرائط فاقدة الهويّة.

ذبابٌ يطنّ، وفضلات تركها أصحابها واحترقوا، صفائح منبعجة، متراكمة، تلمع عند انعكاس الأضواء المتدفّقة من بؤر السّماء البعيدة، فوضى بلا نهاية، واستباحة - عمدية - لجغرافيا المكان. فضاءات الأماكن مهملة، باتت رطبة، خانقة، وهياكل البيوت المتراصّة صدئة، متآكلة، وهرِمة، مليئة بالشروخ والطعنات والندوب، البيوت التي أعملت فيها الحرب يديها وأسنانها، والريح - ببلادة - مستقرة في الفراغات بين هذه البيوت، كأنّما بدورها انصاعت للمصير العبثي.

أرض المخزن متفسّخة، سوداء، سواد يمتدّ بوجعه في دروب صاعدة نحو السماء، والأفق يئزّ، بدا يرتجف من سطوةِ الصقيع، الواحدةُ بعدَ منتصفِ ليلِ مدينتِنا البائس، الواحدة وخمس دقائق بالتّمام.

كنّا ظلّين يتسرّبان في كنف الليل، أقدامنا مرتجفة، والليل بلا قمر - مشغول هذا القمر بسماءٍ أخرى - وسماؤنا متدثّرة بغيم الشّتاء، الأرض هشيم من أوراق محترقة؛ رماد تذروه الريح نحو وجهينا، يجري

في عروقنا دَم متعب، كنّا ظلّين غريبين عن كلّ الأمكنة المتاحة، وعن كلّ الاحتمالات.

كان مستحيلاً أن يستمر الجوع أكثر من هذا، اتّفقت مع الأرمينية أن نسطو على مخزن الغلال، رغم الحراسة، في العموم كانت الحراسة ضعيفة أواخر كلّ ليل، خصوصًا في الشّتاء.

ظننّا في بادئ الأمر أنّ الليل قد خلا إلاّ منّا، بدا ذلك واضحًا من هدئة الأجواء تلك، لم يكن في الجوار قدم تسير، أو حشرة تخمش، أو حتّى صوت، مجرّد صوت. بدا كذلك أنّ هكذا تبدأ الأحداث، وهكذا أيضاً تنقضي: تبدأ في هدوء شديد، وتنقضي في هدوء أشدّ، هدوء البيوت التي غفت خشية جبروت الشتاء، هدوء الإسفلت الذي انكمش مقشعرًا من استيطان البرد.

ألا يُمكن توقّع نهاية أيّ حدث! ألا يبدو أنّنا تهوّرنا حقيقة! ألم يُداخلكِ الخوف مثلي يا أرمينية؟

كنت أحدّق مليًّا في وجه البنت، المليء بطعنات التشرّد، وجه انغمس في رحى حياة بائسة، وكانت شفتاها ترتعدان من البرد، برد هذا العام، وأيّ برد! وهي تعضّ عليهما من الاعتياد ربما، أو من إحساسها بلسعة البرد، فكّرت: تُرى ما طبيعة ذلك الهاجس الذي يستحوذ على عقلِي؟ الآن تحديدًا! لماذا الآن؟ لكنّي جائع.

الجدار الخلفي للمخزن أمامنا؛ الباهت القاتم، والساعة تجاوزت منتصف الليل، ولا شيء يمكنه أن يتلصّص علينا - هذه اللحظة - غير قمم البيوت المدكوكة والتي تبدو من بعيد كأصابع ميّت - باردة.. متحطّبة. البرد - نفسه - يستوطن العظام، والأنفاس موغلة في الارتعاد،

وسحابة بليدة معبّأة بهواء الصقيع تعوم في الأفق هناك، كمرآة متطاولة بعرض السماء، تحجب الدعاء.

قفزت البنت أولاً، اعتلت الجدار الممتدّ عاليًا في وثبة واحدة، حسدتها على رشاقة جسمها، رغم هزاله، وابتسمتُ ابتسامة باهتة لمّا وجدتها واقفة فوق الجدار تصفّر بفمها تلك الصفّارة الخافتة المضطربة منادية إيّاي، جاهدت في البداية أن أستمسك بيدها، غير أنّي في كلّ محاولة كنت أخفق، كنت خائفًا، وقد مررت بتجربة السّجن من ذي قبل، فاستندت بظهري على الجدار ألهث عاقدًا حاجبيّ، قالت متهكّمة:

- واضح أنّك تنتظر مجيء أحدهم للقبض علينا.

بدا على وجهي التفكير، فعضضت شفتيّ، وأنا أذهب بعقلي لتلك الاحتمالية: ماذا لو قُبض علينا؟ سوف أعاقر القضبان ثانية! استثارتني الفكرة، فاستمتّ مرّة أخرى، ووثبت نحو يدها، لكنّي - أيضًا - لم أستطع، اليد أمامي، متخشّبة، معروقة، إنّما - رغم المحاولة - كان الوقت يمرّ، بكلّ قواي رِكّزت، وحدّقت في يدها القادمة من أعلى تستحثّني، كان العرق - رغم برودة الهواء - قد بدأ يغطّي وجهها، فصاحت نافدة الصبر:

- هيّا!

الجدارُ شاحبُ اللون، والليلُ يروح ببطء - احذرا أن يروح اللّيل! ومن الناحيةِ الأخرى الطعام في انتظارنا، من الناحية الأخرى كلّ شيء هادئ - طمأنتني. وقبل أن أعدو لأقفز نحو يدها ساءلت نفسي: أكان لابدّ يا "زاخولي"؟ أما كانت صفائح القمامة أولى بك؟

ثنيت قدميّ، ثم قفزت، في لحظة أمسكت يدي بيدها، فتأرجحت قليلاً، إنّما استرحت، إذ تعلّقت بيدها، ووقفت قليلاً فوق الجدار ألتقط أنفاسي، كان قلبي يدوّي، لم أكن أعرف كيف دفعتني الحاجة لمثل تلك الطريق، لكنّها دفعتني والسّلام، ليس في الحياة أشدّ قسوة من هجمة الجوع! كيف للجوع أن يكون بمثل هذه الغواية!

وثبنا إلى جوفِ المخزن داكن العتمة، والهواء يصفّر في يأس، وكلاب ضالّة في المرمى تتابع المشهد ويغالبها البرد، فلا تعوي، ولا تستنكر، تتقرفص على أرجلها خانعة، وبضع نوافذ تقلقلها الريح الباردة؛ ريح الخواء، تلك النوافذ المفتوحة على بطن المخزن، بيوت صدئة، ونفوسٌ مستهلكة. ليس من جندي يمكنه أن يلاحظنا في بدن الظلمة، تلفّت حولي، لكنّ الأرمينية تقدّمت بالفعل وبباعث الجوع نحو غرفة المخزن، وفي سرعة أطاحت بالقفل، هرولت وانسللت معها إلى داخل الغرفة، رائحة خانقة، وظلام عتيد.

كانت أجولة الغلال مرصوصة جوار بعضها، وبإهمال، كانت رطبة لدنة، لم يعُد ثمّة مساحة للتردّد، الوقت يتمدّد بنا في هذا المكان، وكلّما تمدّد الوقت تضاعفت فرصة أن ينكشف أمرنا، وبين ركام الخُردة وأكوام الطوب المكدّسة جوار جدران المخزن، أخذت أقدامنا تدهس الأرض، وكلانا يحمل جوالاً، وكان الليل يرمح بعيدًا، وكان الهلع يقبع في عمق قلبي، ويستأسد، كانت ذراعاي ترتعشان، وبدا أنّ الخوف المسيطر عليّ قد أثبط من عزمي كثيرًا، للدرجة التي أثارت الأرمينية، فهبّت تصيح:

- ماذا تركت للنساء يا فالح؟

أخذت أنفخ في يديّ اللتين تحملان الجوال، وأنا أضعه أرضًا ثم أحمله ثانية، بدا أنّ دمائي تجمّدت جرّاء الصقيع، استغرقت وقتًا وأحسست بنفس الهاجس فعاودني الاضطراب، داخت أعصابي، فترنّحت، ثقُلت رأسي واستندت بظهري على الحائط ألهث، فصفّقت البنت بكفّيها:

- هيّا يا كُردي! الوقت يسرقنا!

ابتلعت ريقي وتملّيت فيها في نظرة طويلة، مالي ومالكِ؟ لقاء عابر وصدفة الحرمان جمعتنا!

ثم رأيت الأشياء على غير عادتها، لم تعُد الألوان ثابتة، إنّها تتمايل، وتتمازج، كم عجيب عدم الاتّزان هذا! الغمام يجوب مرمى البصر، أهكذا يكون الشتاء! ثم لم أفق إلاّ وشبح طويل يهرع نحوي على مدّ البصر، أجل سمعت التحذيرات واللغط والصياح، لكنّي لم أعِ، لم أفسّر تحذيرات صاحبتي، كان الشبح يدنو أكثر فأكثر، غير أنّي لم أحرك ساكنًا، بدوت غائبًا تمامًا، خائرًا، درجة أنّ ساعديّ أُلقيا جواري عن غير حيلة، وفمي اتّسع كأنّه السكران، وسلّمت روحي للهلاك طوعًا، هكذا في بساطة تركت نفسي، والشبح على بُعد خطوات، ليس من صخب في الجوار، فقط دبيب الخطوات القادمة هرولة، وكانت الأرمينية تصرخ:

- يا كُردي! كُردي!

لا.. الكُردي لم يعُد موجودًا!

الغمام، والهاجس يطنّ في رأسي، والشبح يرفعني عن الأرض، لا أميّز ملامحه، كلّ الذي أميّزه رائحة نتنة، وأسمالاً نتنة، ورداء عسكريًا، وصفعات فوق وجهي، صفعة تطوّحني يمينًا، وأخرى يسارًا، في لحظة قفزت صاحبتي، وكان جسدها يعتلي جسد الشبح مثل نمرة متوّحشة، تلكمه، وتصرخ:

- أهرب!

ما هذه الجرأة وهذا التفاني والإخلاص؟ فلتهربي أنتِ، لا.. لن يهرب "زاخولي".. لم يعُد موجودًا!

تجمّدت يداي، واتّجهت حواسي جميعها لمسافة غير اختيارية من البرد، تضبّبت الرؤية! ليكن، تلك المسافة التي قطعتها نحو البرد العظيم المُنتظِر في الأفق مسافة آمنة حقًّا، ما الذي يُمكنه أن يجلبني ثانية من هناك؟ لا شيء غير الدهشة! الدهشة وحدها كافية لاختزال جميع المسافات الآمنة، الدهشة التي ترتع الآن حولي في كافّة الأجواء، جسدان يتصارعان وأنا واقف على حياد الضعف، كلاّ.. أنا الضعف في حدّ ذاته، أنا الخوف متجسّدًا طليقًا، الجسدان يتناحران، والمشهد يجتذب بقيّة الحرس، هكذا سيق بك نحو مأساتك من جديد يا "زاخولي"، يا له من وطن! اهرب! أين مهربنا يا صاحبتي؟ لقد غرّرت بنا الحاجة، أكان لابدّ أن ننساق خلف رغبة الجوع؟ لا شيء بإمكانه أن يلبّي الرجاء الآن، باستثناء المعجزة، نحن يا صاحبتي في حاجة كبرى لمعجزة، أليس كذلك! تبًّا للجوع!

من بعيد، تهرول الأقدام المتحفّزة، لقد حوصرنا، ومن بعيد، صفّارة العساكر، الأقدام.. الأقدام.. وصاحبتي مدفوسة في جسد الشبح، أُهرب! لا مهرب يا صاحبتي، يا له من قدر!

العساكر يحوطوننا، والمشهد ضبابي، والذكريات غيم، والزلزلة التي تكتسح الجوارح...!

المشهد ضبابي، وصاحبتي - في لحظة - تدفع جسم العسكري بعيدًا عنها، هي مشرّدة بالفطرة: الفطرة الفجائية! ثم تقبض على يدي، وتحاول الفكاك، في لحظة تتعسّر الأمور، ويبدو الشتاء قاسيًا حقًّا، لم يكن الشتاء قاسيًا لتلك الدرجة من ذي قبل، لكن مال المشهد توقّف، أو يبدو بطيئًا بطيئًا كأنّ يدًا عبقرية تحرّكه!

المشهد ضبابي، والعسكري يتحفّز، فوّهة بندقيته تتأهّب، تنطلق طلقة أولى، لكنّ الأرمينية لا تريد أن تتّعظ، فاقها الجنون، وجاوز بها المدارك، الجنون، فليحيا الجنون! العسكري مجنون أيضًا، قفز نحو صاحبتي يعرقلها، والطلقة الثانية تخرج، في الهواء، في فضاء الجنون نفسه، والأرمينية لا يعرقلها شيء، تكالب أن تجرّني معها خلفها وتمضي مجاهدة الفرار، العساكر يقتربون منّا أكثر، بلا جدوى، صاحبتي مصمّمة على الانتحار! الصخب انطلق، وفرّ في الأجواء، لا فائدة من المقاومة، هكذا همهم أحد العساكر بصوت مبحوح. المشهد ضبابي، بدا لا نهاية له، العسكري يجذبنا من ملابسنا المتهرّئة، لكن عِناد صاحبتي أكبر، واستسلامي لديها أقوى، ثم فجأة صاحبتي تتحوّل نحو العسكري، يستدير وهو يجزّ على أسنانه، وفي عينيه اللامبالاة، وكان قلبي يخفق بشدّة وينغرس في أوار الرهبة، حتّى خيل إليّ أنّ العالم من

حولي راكد، خائر. ربّما مرّت بي لحظات، وقد توهّمت أنّ هذا المشهد الدائر لا شأن لي به، سوف أنجو، طالما نجوت! إنّما غالبتني الرهبة أكثر، فلم أعُد أستشعر غير المصير المبهم، أو أحاول استشعاره، تعقدّت المسألة لحدّ السخرية، وليس لديَّ قدرة ولا إرادة على التحرّر من هذا التعقيد، وأخذت الأرمينية تحملق في عيني العسكري كأنّها تستجدي، وفي لفتة سريعة يائسة أزاحت عنها العسكري، في لفتة يائسة، لكنّها عنيفة، مليئة بالترجّي، جحظت عينا العسكري، وهو يستجيب دون حيلة لدفعة صاحبتي، فأخذ يهوى نحو الأرض، والبندقية تتحرّر من نظام الحياة، لا.. لا يُمكن.. صرخات الفزع تضيع وسط قعقعات البندقية، لم يعُد بوسع أحد السيطرة على ترتيب القدر، كان يُمكن أن تكون ثمّة نهاية أخرى، أكثر ملائمة، لم يكن لأحد أن يستدرك ردّ فعل الطبيعة تجاه المأساة، ندت عن العسكري شهقة، وعن صاحبتي صرخة، عندما كانت تدفعه دفعة واحدة بيدين مغيّبتين وأعصاب هادرة، فيتقهقر وينكفئ على وجهه.

البندقية طليقة، لن ترحم، تنفجر الدُنيا، حين تنفجر البندقية، وتتلاحق الطلقات تلاحقها العشوائي ذاك.

تنفجر الدنيا بطلقاتها في جسدينا، وفي كلّ الأجسام المُحيطة.

وحين تنفجر الدنيا، تتناثر الأشلاء عبثًا، وتتناحر النهايات.

صاحبتي التي عرفتها محض صدفة عابرة راقدة على الأرض، هامدة، والعوز آسر، ودماؤها تتجرّد من القيد، وتتحرّر فتتدفّق، وسرعان ما تتسلسل يداي، أجل باتت عادة.

6

- أنتم الكُرد ملاعين، تتمرّدون على لاشيء، ولصوص أيضًا!

- لم أتمرّد يا سيّدي، لقد أهلكني الجوع، والسرقة أُحلّت عند الحرمان.

- تعلّمني الحلال من الحرام يا مسلم يا ابن الزانية.

- لم تكن أمّي زانية.. آه ليتك تعلم!

- أخبرني عن سرّك إذًا؟ لماذا لم تهاجر ككلّ من هاجروا؟ لماذا اتّخذت من شوارع المدينة ملاذًا؟

- الأسوار مقامة حول المدينة.. قل لي سيّدي.. من هاجر؟ أهل المدينة متفحّمون تحت ركامها.

- أمممم.. هل ستتفلسف معي؟

- فلسفة! وهل ترك لنا الاغتراب أيّة فلسفة؟

- أخبرني عن سرّك وسرّ صاحبتك التي ماتت؟ كيف خطّطتما للأمر؟ هل هي شقيقتك! زوجك! عشيقتك!

- لا هذه ولا تلك، ولا يوجد سرٌّ في الموضوع، الحكاية وما فيها أنّ المعاهدة الأخيرة لم تشمل الكُرد، كأنّنا لعنة هذا المجتمع، الغريب أنّهم ألقونا في زنازين، تخيّل سيّدي، كلّ إثمنا أنّنا كُرد! نعم، خرجت من سجنكم مدشّنًا بالبغض، خرجت بعد شهر ويزيد، وفي داخلي كراهية،

هب أنّه عدم إيمان بكلّ المسلمّات، خرجت ولم تكن لديّ إرادة لفعل أيّ شيء، لم يكن بيدي أن أؤمن إيمانًا خالصًا بالإرادة أصلاً! لست إلاّ نطفة تتقاذف - دون حيلة - مع سير الأحداث في عشوائيتها. الأحداث التي تنتهي إلى مصير محدّد سلفًا، كلّنا في مُجمل الأمر نطف، تدفع نطفًا، في سلسلة قدرية، لتصبّ في النهاية كما يشاء المصير، الذي هو مصير جميع الأحداث، يا لها من حياة!

- يبدو أنّكم لا تتعظّون، إنّما ما علينا، هه! احكِ.

- أبدًا، لا توجد حكايات، فالذي يصدّق الحكايات مغفّلٌ كبير، أحمق، ولك أن تتيقّن سيّدي من إنّي أكبر أحمق في هذه الحياة، لأنّي صدّقت الحكاية! إنّما ضع نفسك مكان رجل بلا وطن، وقد احترق أهله جميعهم، كلاسيكية جدًا هذه الحكاية، أليس كذلك؟ إنّما أيّ الحكايات ليس كلاسيكيًا؟ إنّ الحكايات تكرار للقدر نفسه، ذلك بديهي للغاية! القدر الذي ينظّم سير الأحداث جميعها. خرجت من سجنكم، فكان الشارع ملاذي، وتعبت كثيرًا، وجُعت أكثر، الحياة هكذا: حدث يسلّم حدثًا، لكن سيّدي لك أن تعرف أنّي التزمت الصّمت تجاه جميع الأحداث التي جرت، الصمت المُهين، وكانوا ينادونني عندكم في السّجن بالجُرذ، أصار الكُرد جرذانًا؟ لكن عمومًا تمزّعتُ أكثر فأكثر، لم يكن يوم يمرّ دون مأساة، أو ذكرى، ففي الشارع، قاع الشارع، كلّ شيء مباح، لا يوجد محرّم، ولا يوجد خطّ أحمر، وكان يُمكنني ببساطة أن أفتّش في فضلاتكم وحُلمي أن أجد رغيف خبز! بل أزعم أنّي من شدّة الجوع أوشكت على البحث عن طعامي وسط الجثث النافقة، أجل، كانت جميع الأزقّة والدروب ملكًا لي بعد منتصف كلّ ليل، خاصّة في الشتاء،

إنّ الشتاء مميّز، ففي الشتاء نصنع لنا دفئًا خاصًا بنا، أليس كذلك؟ لم يعُد شيء بريئًا، إنّ البراءة مجرّد معنى، معنى لا يُمكن أن يشعر به إلاّ من عايشه، ساعتذاك لم أكن أنتمي لشيء إلاّ العزلة التي ضُربت بها من كلّ الأنحاء، لم تكن لي حكاية غير المأساة، وفي السّجن، سجنكم، لم يصدّق أحد أنّي لم أزل صبيًّا كُتب عليه قدر الحرب والسلالة، إنّما القمع لا يؤمن بالأقدار والمصادفات، انتقلت من حياة لحياة، ولم يكن لشيء أن يبعث في قلبي الأمل ثانية، تشوّهت الأيّام أمام عينيّ، ولم تعُد لها ملامحٌ واضحة، ضاع وطني، لسبب عبثي! يا لها من حياة! لكنّي أدركت كذلك أنّ التعساء يملئون هذه الحياة، التعاسة تكسو كلّ الوجوه من حولي، تعاسة غير مفتعلة، تعاسة بكر، كأنقى ما تكون التعاسة، وعندما كنت أخلو إلى نفسي كنت أحصي بحسبة بسيطة ما لي وما عليّ، وجدت أنّ عليّ التزامات تجاه المسخ الذي أصبحته لا تقدّر ولا تُحصى، أهم تلك الالتزامات هو الانصياع لحياة المسخ في حدّ ذاتها، بظاهرها وباطنها، تلك الحياة التي لابدّ فيها أن تنبش عن طعامك وسط أكوام القمامة وصفائح الزبالة، تلك الحياة التي ينبغي أن تعايشها بسائر متطلباتها، أن ترهب الجميع بقذارتك، رائحتك، عفنك الذي يتقدّمك، شقوق قدميك ويديك، إنّها مظاهر فقط، لابدّ أن تكتسبها، هي تلك الحياة هكذا، أن تكون أقرب إلى شبح، يعيش ولا يعيش، يستوطن ظلمة الليل، ويُنسج نفسه داخلها، لا يكترث لإحساس البرد أو إحساس الدفء، ينزع من أعصابه فضيلة الإحساس، وكنت من حين لآخر أتأمّل راحة يدي، تلك التي تحجّرت واخشوشنت، ما الذي أصبحته؟ هذا المسخ أوجب له أن يعيث في الأرض فسادًا! لابدّ أن يفعل! وإلاّ ما جدوى هذا المسمّى من الأساس؟ لكنّ شيئًا كان ينهاني دومًا عن الذوبان التّام في رداء المسخ،

لعلّه الماضي! ربما! لعلّه الواعز الذي يدفعني للمرور خفية وسط عساكركم، كنت لم أزل خائفًا منكم، هذه حقيقة، لا أدري طبيعة هذا الباعث التافه! لا أدري كيف يُمكنني أن أوقد بداخلي المقت اللانهائي والذي من بعده لن يثنيني شيء عن تقمّص مسخي؟ لا أدري! تعصف بي تساؤلات داخلية غبيّة، بلا إجابة، فالحياة برمّتها لغز محيّر! إنّ أبي الذي أنجبني لم يكن له أن يرحل بعيدًا ويحترق ويتركني تعيسًا دون مأوى! وإنّي محبط، أكره هذا المسخ الذي أصبحت عليه، إنّي واهنٌ ضعيف، ولو ادّعيت نقيض ذلك، إنّي -رغم هذا- أخاف من الليل، أخاف من المسخ، من البرد، أخاف من القاع الذي أعيش فيه، لم يكن لأبي قط أن يغادر من دوني، كم من مرّة حاولت استدعاءه! لكنّه لم يجبني مطلقًا، كأنّه أيضًا يعلم أنّي تحوّلت إلى مسخ كريه، كأنّه يتحاشاني، نعم، لابدّ أنّ أبي يتحاشاني، وإلاّ لأتاني أقلّه في الحلم، تخيّل أنّ حياة المسخ تخلو من الأحلام، هي إمّا كوابيس صرف، وإمّا ذاكرة سوداء بلا معنى.

وكما يليق بمسخ، كانت الدنيا تزداد في نظري قُبحًا، لكن القبح في العالم الذي عايشته ميزة لطيفة للغاية، أن تكون قبيحًا فأنت منهم، مشرّد، لا مكان هناك للجمال، ولا جمال الروح حتّى، لابدّ أن تتخلّص الروح من جمالها، وتكتسب قبح هذا العالم، إن لم تتفرّد به.

ألفت الظلمة، درجة أنّ الأضواء كانت تشكّل لي إزعاجًا مطلقًا، ربما كنت أخشى أن تكشف الأضواء المسلّطة على عينيّ طبيعتي القديمة، وأن تحيي الماضي من رقاده، وأن تُطلق المسخ من عقاله، لكنّي كثيرًا ما كنت أتساءل: هل رقد الماضي حقًّا؟ لماذا إذن كانت قدماي تجرّاني كل فينة وأخرى نحو طلل بيتي القديم؟ أهو الحنين لهذا الماضي، أم هو

توكيد لصفات المسخ بداخلي؟ لماذا تحملني قدماي اللئيمتان نحو الماضي؟ لماذا أندفع بلا إرادة نحو الماضي؟ لماذا لم أزل متعلّقًا بالطفل القديم؟ لماذا لم يمت هذا الطفل بعد؟ لماذا أبكي كلّما حُملت دونما إرادة صوب الماضي؟ لماذا لم تزل الحرائق والمشاهد الرمادية والخرائب والجثث المتفحّمة تراودني كلّ ليلة؟ فلا أنام.

منذ ذي قبل، ارتحلت لعالم الحقيقة، وأمكنني أن أشاهد الماضي كحاضر بغيض، ظلّت الأجراس تطنّ في رأسي، وضحكات الأهل الذين احترقوا بنيرانكم. دُفعت قسرًا ودونما إرادة نحو الماضي، اندفعت - لا أعي - تجاه بيتي القديم، حقّي المسلوب، دّمي المهدور، وطني الضائع، لم أكن أرى غير الماضي، حينها - وللمرّة الأولى - استطعت استدعاء أبي، غير أنّي لم أستطع محاسبته، فقط قال لي: أُهدر دّمي تمامًا كما أُهدر دّمك. أدركت أنّ الذي استحلّ دّم أهلي هو القدر فقط. ليس من المنطقي أن تسير الأمور للأعلى، بل أن تسير بشكل عرضي وعارض، هي الأمور هكذا، لكن أن تتطاول وتتفاقم وتتعملق، لم يحدث هذا لبشر غيري، كان المسخ يشدّني تجاه الماضي، يُجبلني على مواجهة أثقالي، وكنت لا أبالي بالنتيجة ساعتها، اصطحبت مسخي ودُرت في فضاء الشوارع كممسوس، كانت السّماء تتهاوى، وكان المدى ينفجر بالسخط وبالتساؤلات، وكان الضباب الأجوف الأصمّ يحيط بعينيّ، والنار تشتعل في ذهني، تود لو يحترق الماضي ويتبدّد بلا رجعة، لكن الماضي ضدّ الاحتراق، إنّه ضدّ الزمن أصلاً. الماضي عدوي، وما أكثر الأعداء الذين لا يُمكن أن تقهرهم! نحو الماضي اندفعت، ومسخي يتأجّج مثلي تمامًا، يقوّيني، الحماس، الحماس للماضي، مسخي بالغلّ يتأجّج، وبالإحباط،

إنّي لعنة هذا العالم البغيض، وأيّ لعنة! هل سيقدر العالم على صدّ هذه اللعنة؟

منزلي، آه.. منزلي، وأبي يرفرف في الأعلى، وأمّي محلّقة، و"زينب" بنت عمّي وعروسي غافية بين السّحب، و"مَدّ" لا تزال سارحة والغربان فوق كتفيها، إنّما كلّهم احترقوا سيّدي، وإنّي عالق في مدار الماضي، منزلي الذي حُرِّم عليّ، أيا وجعي! لا مرارة أشدّ من تلك التي يشعر بها مسخي الآن! لا وقت للبكاء، ولا وقت لاجترار المرارة، إنّه وقت مواجهة الماضي، بكلّ عفاريته ومخاوفه، لا سلاح لديّ غير مسخي، ولا ذنب غير الماضي نفسه، سأواجه الماضي بالماضي، إنّ الحياة إذا افتعلت قدرًا ساقتك نحو جميع ملابسات هذا القدر، وإنّي انحدرت، لأتمّ ما يكون الانحدار، لقد بلغت القاع، وليس بعد القاع من انحدار، تخبّطت روحي في اتّجاهات شتّى، حتّى لم أعد أميّزها عن أرواح كلّ هؤلاء البؤساء الذين يرتعون في ضلال القاع، يا الله، أعنّي على مواجهة الماضي، أعن مسخي على المؤازرة، كن رحيمًا بي، لمرّة في عمري. يا الله، هل وصلتك رسالتي؟ أظنّها لابدّ وأن تصل فور إرسالها! أليس كذلك؟ ما الذي قد يعطّل رسالة من الوصول إليك؟ ما الذي يمكن أن يؤخّر بريد البشر للسماء؟

7

خلف الجبل، كانت ثمّة ثكنة عسكرية باقية من أيّام الحرب يرمون فيها المحابيس الكُرد، اتّهموني بسرقة منقولات وطنية خاصّة بالحكومة، وضربوني حدّ أنّي قضيت أيّامًا لم أكن أسير على قدميّ، إنّما تعافيت شيئًا فشيئًا، وأخذت أسير على قدميّ ثانية، وكان العساكر يتهامسون عنّي، عن هذا الكُردي الحرامي، يتهامسون في سخرية، كأنّهم لا يعرفون كيف تحوّل الكُردي لسرقة قوت يومه! لم يعرفوا أنّي ضائع بالوراثة، بل لم يرد أحدهم أن يفترض أنّ أصلي محاه التّاريخ، وأنّ "كردستان" لم يعُد لها وجود، ولي عذر قدري، كنت أضحك في غلّ وهم يواجهونني بهذه الفرضيات العقيمة، وقد قال لي ضابط إنجليزي في يوم:

- لكن لماذا لم تفكّر أن تقدّم الولاء للحلفاء؟ كان أيسر لك وكانوا سيمكّنونك من الهجرة.

- أيّ ولاء! كلّ الأوطان غالية على شعوبها.

- وهل لكم وطن؟ كيف نصدّقكم؟ ألا يكفي أنّ حكومتكم قدّمت الولاء بعد هزيمتها؟

وأخذ يدور حولي ممتعضًا.

- أنتم سبب خراب هذا البلد، لقد استوطنتم البلاد منذ زمن، وانتشرتم وتوغلتم في جسم الأوطان، أصبحتم كسرطان.

- الكُرد سرطان!

- نعم، وفدوا بالآلاف على هذه البلاد، بل الملايين، الآن لا يُمكن أن تُحصي عددهم داخل بلاد الشرق، بلادنا في الأصل.

- لكنكم أنتم من غزوتم بلادنا!

- هاه، إنّها بلادنا أصلاً، إنّما ليكن، في النهاية أنتم خونة، خنتم وطنكم، وبعتوه، ذلك إن كان لكم وطن من الأساس! وعندكم حكمة تقول إنّ الدّيك يُذبح إذا صاح في غير أوانه.

كانت الثكنة مقامة على سفح جبل عال، ولم تكن عليها حراسة بالمعنى المفهوم، إمّا الحراسات تلهو تحت ستر اللّيل مع النسوة الكُرد اللواتي هربن من الذبح لأحضان الغرباء! وإمّا نائمة! كأنّهم - لغرورهم - لم يفترضوا أنّ أحدًا قد يحاول الفرار يومًا!

قلت أهرب من الخزعبلات، أهرب من الألم والفقد، ومن الضغينة، وقد بدأت أفقد كلّ المعاني التي يُمكن أن تؤهلّني للحياة، فاتّفقنا عُصبة أن نستبدل أقدارنا، ونهرب من هذا المكان.

كان الجبل ملفوفًا بالضباب، والجنون غاية الأبرياء، وظلال المساء المشبّع ببرودة المكان، تترنّح حولنا.

- الموت يسكن سّن هذا الجبل!

قالها أحدهم ثم ضحك في مرارة.

كنّا نفرك أكفّنا في بعضها البعض، والثكنة تنحدر خلفنا متوارية وراء الظلال، ناعسة في مثل هذا الردح من اللّيل.

لا شيء قد يُكسب المغامرة أسطورتها غير عشوائيتها في حدّ ذاتها، المغامرة وهج منبثق من لا وعي بائس مثلي، فقد كلّ شيء، عليّ ألاّ

أتوجّس من أيّ خوف، تحثني روحي الطليقة على المضيّ، اندفع نحو الملكوت أكثر فأكثر، والتجربة نفسها مغامرة لا نهائية داخل الروح، سأعود إليكِ يا ذكرياتي المجرّدة.

تستدعيني ذكرياتي - رغم قسوتها - لأصبح نجمًا يبدّد ظلمات ليلها الداجن...

أيّ نزوعٍ! وأيّ حنين!

أصعد الجبل، صمته مفجع، وكلّ تفاصيله ساجية في قهر جبري، ليس بعد الصمت قهر! رفقائي يقولون:

- يا لحماقة المغامرة....! ماذا لو قبضوا علينا! سينفخوننا!

هكذا نحن، لسنا نغامر بأرواحنا قدر ما نغامر بأيّامنا البليدة.

نظراتي تطوّق معالم الجبل البارد، تشع نتفٌ من ثلج واهية حدّ ألاّ تلمحها عيوننا، لكن لها وخزة غير اعتيادية وهي تلامس بطون أعيننا فنذرف دموعًا دون إرادة، أصوات الموتى تحدوني من كلّ صوب:

- اصعد.. لعلّ أرواحنا تصعد معك لمستقر آمن.

فأصعد..

أصعد، ومعي يصعد الجمع، المشقّة تزداد، وإحساسي بالخطر يأخذ في الزوال، لا خطر في الصعود، لعلّنا نتمكّن من الصعود إلى كبد السماء، ربما نرى جنّة الخلد، ونعاين نار الرّب، نظلّ نصعد ولا يستوقفنا عائق، تصافح الملائكة يدًا بيد، ونسامرها وجهًا لوجه، هو عظيم هذا المبتغى.. أليس كذلك!

الهواء يضرب جوانبنا دون هوادة، تغيّم أعيننا لطشات من برودة فجائية، يهتف أحدنا:

- أظنّ أنّنا لابد أن نعود..

أجاوبه:

- كلاّ.. سنصعد... لن نعود إلى السّجن.. لن نعود إلى حتفنا.

- حتفنا في هذا الجبل! لا نهاية له!

يبدأ الوهن يصاحب بعضنا، ترتخي بعض الإرادات، أهتف في بأس:

- المغامرة هكذا.. تحمّل..

لكن الأفواه تنطبق من حولي وقد داخلها خوف من خطر المجهول، يمد لي الملائكة أياديهم، ليؤازروا روحي على الصعود، غير أنّ أقدامنا تحطّ في بقعة يداريها نتوء من الجبل. بدونا قد بلغنا القمّة، بلا طائل، حين راحت الريح تحتدّ شيئًا فشيئًا، وحين كان البرد تعلو وتيرته، وحين كنّا - لأسفي - قد أصابنا خمول.

- ليس هذا هو الهرب المرجو!

- فلنصبر.

أقول لهم، فيستديرون بأبصارهم نحوي وفي أعينهم خوف لم أره في بداية صعودنا.

- لقد حوصرنا.

يقول أحدنا، فيردّ آخر:

- والعمل...

البرد يصير سهامًا من ألم، لا يخالطني غير الإحساس بعمق تجربة مغامرة الهرب، كيف لا أشعر بمدى الألم مثلكم يا رفاق؟ يعتريني ضحك، فيصيبهم وجوم، واستنكار، ويحدجونني بنظرات جمّدها خوف المجهول، والشفاه تنفذ لصمت غير عمدي، والثلج يشحذ كافّة أسلحته، يرتعدون ولا أرتعد، ينصرفون نحو خور تلقائي، ولا أنفذ، الثلج قاس، وعاصفة تجتاح أبداننا، نلوذ باليأس، لم يعد للسماء كبد، ولا أفق، كان السقف فوقنا قد احتلّته العاصفة، وكانت أجسامنا تتنازع وتتنازع، والبرد لا يُبقي على أمل.

- لن نتغلّب على المصير.. سوف يأتي الرّب فقط بمصيره المعروف.

قلت لهم:

- لكنّني أرى منفذًا بعيدًا من ضوء.

كان المنفذ بعيدًا، لكنّه هناك في نقطة سرمدية في قلب الأفق.

قلت:

- سأذهب وحدي.

واستكملت صعودي وحيدًا.. فهرولوا ورائي. كلّهم - أظنّ - قد يقبلون الموت على العودة والمجازفة، إنّما هو اليأس ليس أكثر، باب المدينة بعيد وجزافي للغاية، إنّما باب السماء أقرب.

العاصفة، والبرد، والثكنة غابت في سرمد الليل، نهبط في سرعة، وفي أمل، ها هي النجاة قادمة.

وكان قد طار جسدي نحو الغيب.

هكذا يبدأ هذياني! تماماً مثلما يبدأ وينقضي في كلّ مرّة تلو مرّة.

المدينة، بطن المدينة، والبيت المهجور، الذي احترق أهله، تلك هي اللحظة التي لابدّ وأن أتوثّب فيها نحو الماضي وحيدًا، اللّهم إلاّ مسخي، تحدوني ذكريات من هوس قريب، هوس بعيد، لا يهم، في الحقيقة لم يكن يعنيني غير القصاص من هذا الماضي، تصطخب المشاهد في رأسي ولا شيء سوى الماضي، ذاك الماضي، ذاك الذي يغير على ذهني في لا مبالاة بما أكابد تجاهه. لا تحملني قدماي إلاّ نحو مصير باهت مجهول، أجاهد دفع تلك الأصوات عن جمجمتي وطردها، ومن غير جدوى، أجاهد أكثر التحكّم فيها وترتيبها مع ما يتفّق وسير الهذيان، كأنّ بي أستجديها التمهّل ريثما تتّسق المشاهد المتواترة أمام عينيّ وتصفو، ثم ليكن بعدها من ضجيج ما يكون، إنّما ثمّة غليان لا يود الارتياح، تفور معه الذكريات ورأسي، وتفور كافّة المشاهد، تثور حواسي في لحظة تالية ثورة ليست معتادة، ترتعش يداي، تتململ جوارحي، تنقبض عضلات وجهي، وأندفع نحو الحقيقة أكثر، لا أدري، كيف تتحكّم الأصوات الكامنة في انفعالاتي حسبما تشاء؟ وهل من سبيل للوصول إلى نقطة محايدة ترسو عليها كلّ تنبؤات هذياني؟

الآن أرى أبي، ذلك الفيض من أوجاع العابرين بين مسافات الذكرى عبثًا، يطلّ بعينين مليئتين بانحياز غير اعتيادي، يمنحني عذابًا مؤبّدًا، ويصرفني عن محاولة التهدّج للملائكة كي ما تعفو عنّي يوم ألقاها، ليس من ألم يا أبي يحسم صراع ذهني، ليس من غفران، ليس من ابتهال ولا دعاء، لا شيء قد يمكنه تطبيب جراحي، ولا حتّى أنت إن عدت جدلاً، ففي النهاية ما اخترناه قد أُختير سلفًا، ولم يكن لنا حقّ اختيار الوطن، ولا الألم!

منزلي، والشتاء، والجنود، والمسخ طليق لا يُبالي، والأوجاع تجلدني، ولا مطر في السماء، إنّ الله لم يتلقَ رسالتي بعد، لا مطر في السماء، المطر في عيني، ومسخي لا يراه، دع المطر يا مسخي يغسل مجوني، الأحداث العظيمة تبدأ بفكرة، في البدء تكون الفكرة، والتي تُنجب الغواية، في البدء تنشأ خشونة اللحظات، والماضي يتراجع بنزال عادل، ما الذي قد يوجب التعادل؟ ما الذي قد يزن المعركة؟ لا شيء إلاّ سخطي، ومسخي يرتديني، لم أُعد رداء هالِكًا، أنا الآن ثوب الحقيقة يا مسخي.

منزلي، والليل، والماضي يلوح على وجوه الموتى الذين يحاصرونني.

منزلي، والقهر، والصمت، أخرج أيّها الماضي، مالي أراك خائفًا! الذّل لا وطن له ولا انتماء، أخرج أيّها الماضي، وقد عدت لأحسم معك المعركة، بُعثت من خواء ومن فراغ ومن تيه، هيّا لاقني يا ماضيّ اللئيم.

منزلي المستباح، والاستفاقة، والذعر. منزلي، قبري.

تتحطّم أسلحتي على حدّ الحقيقة، والبرد نفسه حقيقي، بلى حقيقي، هناك برد في هذا العالم يُمكن أن يشعر به البؤساء أمثالي، هلموا ثمّة برد، إنّ للشتاء معنى، إنّ للشتاء لذّة، هلموا برد، وحقيقة، هلموا وجع ومطر، مطر وشتاء، لمسات الموتى تمرح في جسدي، ولم أستفق إلاّ ورفاقي يشدّوني، بعيدًا عن عساكر الحلفاء.

تمركزنا في منطقة نائية جوار سور المدينة، بحيث لا تكتشفنا قوات الحلفاء، تكبدّنا خسارة روحين، لكنّنا تجلّدنا، وبعد أشهر ثلاث، فكّت قوّات الحلفاء الحراسة عن المدينة، وأخذ من تبقّى يغادرون، فانسللت بين الجموع الخارجة، وأنا طالع من باب السّور، لم يكن في رأسي غير الذكريات، لم تكن معي سوى الصّور القديمة للبيت والأهل والأحبّة.

لم تعُد في الهجرة فوائد، يهاجر القوم وفي أفئدتهم يترجرج وطن، دهسته المطامع والمعاهدات، اتّجه الكثيرون إلى الأقاليم الإيرانية، والبعض إلى "العراق" و"تركيا"، واستقرّ البعض في شمال "سوريا"، وإن سبقهم إلى هذه الأوطان سلفٌ، لكنّي كنت أفكّر في هجرة أكثر أمانًا، ونازعتني الرّغبات، إنّما وقرت نفسي - في نهاية الأمر - أن أسافر إلى برّ "مصر".

وجئت في قافلة عن طريق البرّ، مضت عبر الصّحراء، وكان الدّليل كُرديًا، فكان الأقرب إليّ، حيث يتحدّث كلانا لغة واحدة، باللهجة "الكرمانجيّة" الشّمالية، ونتسامر بطبيعة واحدة، وكانت نفسانا جبليتين، فكنّا - معًا - لا نميل للمرح ولا للّهو كثيرًا، وقد سيق وطننا إلى هلاك، أو ما تبقّى منه عبر التّاريخ، وفي اللّيل حين تستريح القافلة، وتغفو جِمالُها، كنت أقوم إلى بطن الصّحراء، وأراقب خطوط النجوم البعيدة، بل وأذهب بخيالي إلى أيّام كنت أركض في حدائق مدينتي "السليمانية"، أصلي، حين نزور جدّي، وأتناول فاكهة الرّمان من على غصون الشّجر، وأراقب نفس النجوم، وهي تسبح فوق سمائنا، وأضحك وأنا أذكُر وجل أمّي، عندما طارت قطعة عجين من يدها، وصاحت بأبي:

- سوف يأتينا ضيف يا "إمام".

كانت أمّي تعتنق مثل هذه المعتقدات، وكانت هي التي تنبأت بالحرب، عندما رأت ضوء الشّفق قادمًا من ناحية السّماء، لكنّ أكثر حمرة، وكان هذا يمثّل نذير شؤم، أمسكت بساعد أبي، وصاحت:

- الحرب قادمة.. قادمة يا "إمام".

فربّت أبي على كتفها، وقال:

- اطمئني.. الحرب دائرة منذ زمن، نحن ننتقل من مدينة لأخرى جرّاء تلك الحرب.

كلّ عادات أبي، سواء المستحبّة منها، أم المستهجنة، كانت تتلبّسني، فكنت أقلّده في ارتداء "الشروال"، ذلك السروال الفضفاض، وكنت أربطه على خصري بحبل عريض مزركش، فتقول أمّي:

- يا ولدي أنت صغير على ارتداء هذه الملابس! ارتد ما يناسب عمرك.

فيقول أبي:

- اتركيه.. من حذا حذو أبيه لا لوم عليه.

فتمصمص أمّي شفتيها قائلة:

- مسّد القنفذ على شوك أفراخه وقال كم هي ناعمة!

وكانت تجمعنا مائدة واحدة، مائدة المحبّة، في الإفطار كنت أميل لشرب لبن الغنم، عكس أبي الذي كان يميل للّبن الجاموس، مع الخُبز والعسل والشاي الأسود، وفي الغداء كانت أمّي تهتمّ كثيرًا بغسل لحم الضأن وتنظيفه وشطفه جيّدًا، ثم طمسه في صلصة الطماطم، فتصنع حساءً للخضروات، تقدمه مع الخبز العريض المقدّد قليلاً.

كان بيتنا قِبلة للضيوف، الآتين من أسفارهم، كان أقاربنا متناثرين في شمال "كردستان" وجنوبها، وكان لعمّي بنتٌ مليحة، اسمها "زينب"، زارونا قبيل المعاهدة السويسرية بشهر أو أقلّ، راقت البنت لأمّي، ولأبي كذلك، وقد توقّعت أمّي هذا قبل أيّام قلائل، حين حطّ زوج حمام على باب بيتنا، فقالت لي:

- سنزوّجك قريبًا يا بني.

ضحكت ساعتذاك، كنت أعرف أنّ حدس أمّي أقوى من الخزعبلات، ودائمًا ما يصيب، لذا كنت كثيرًا ما أُفاجئ بتحقّق مقولة لها، أو تطيّر، لم أكن أعرف أنّ العنزة التي خفضت ذنبها سوف تستدعي المطر، والخير، وقدوم العمّ، فلمّا رأت أمّي العنزة تفعل ذلك، قالت:

- ألم أقل لك؟! سوف يجيء المطر.. وتجيء معه عروسك.

وفي الصباح، هطل المطر، أغرق شوارع المدينة، واندفع الأطفال يمرحون في الطّين، ويتمرّغون على الأرض، وصدق حدس أمّي كذلك، ففي المساء، طرق العمّ الباب، وتهلّلت أسارير الأب، وبعد تفحّص ومتابعة، أدركت الأمّ أنّ ابنة عمّي، هي عروسي.

وفي عجالة، فاتحوني، ولم أعترض، كانت ابنة عمّي شديدة البياض، على عكسي، وكانت رائقة البشرة وشعرها أسود لامع، وتحضّر "الداخوازيكة ران" - الجماعة التي ستطلب يد ابنة عمّي - بقيادة أبي، وطلبوا يدّ العروس.

ليلتها، عزف عمّي على "الطنبورة"، وهي آلة ذات أوتار اثني عشر، وكان بارعًا مُجيدًا، صهلل أبي، ورقصت أمّي بشغف مفقود، وكانت تميل وتغمز لي بعينها، فأختبئ في خجلي، وأتأمّل عرُوسي، وأُدرك أنّ حظّي عظيم.

بيوم بعدها، خرجت أمّي برفقة العروس وأمّها وأختها إلى السّوق، لشراء الذّهب، حزام وكردانة ودرع وحجل، يتم ارتداؤها فوق الملابس الخاصة بالعُرس.

(وكانت "زينب" بنت العمّ خجول، جالستها منفردين، حسب مشيئة الأبوين، كان رأيهما أن نتقارب، حيث أوشك زفافنا، قضت "زينب" أسبوعين قبل قصف المدينة، خلالهما سافرنا أنا وهي إلى عوالم جديدة نتعرّف فيها كلّ مرّة إلى أشياء لم تكن في البال! نتطرّق حيث مرادفات لكلّ المشاعر التي عرفها البشر ولم يعرفونها، عوالم كلّما جبناها كلّما انحسرت مسافة بيننا، كنت على يقين بأنّ هذه هي السعادة، وكنت شيئًا فشيئًا قد أوغلت في داخل أعماقها، أوشكت أن أدنو من هذا الخوف الذي يقطن بعينيها، والذي كان مفضوحًا، أدنو من كلّ تعبيراتها الكامنة، لم تسألني يومًا إن كنت قد أحببتها حقًا! لم تسألني عن هواجسي تجاهها، كأنّها تعلم أن كلّ هذا هباء، إنّها الباقية في حياتي.. في فؤادي، وكنت أقطف لها زهور القرنفل، وما إن تلامس أنفها، وتستنشق عبيرها، أبتلعها، أقول لها: ليبقى عبقك في داخلي. كانت بريئة ولها قلب زهرة يافعة، وكنت كلّما أضئت ركنًا معتمًا في روحها أحسست برجفتها، بارتباكها، بانفصالها عن الحاضر والدوران في دوامة ماض غير متّضح بالتمام، لها صوت كتغريد صغار العصافير حين تسدّ جوعها، حكاياتها خضراء خضار كلّ زرعة نامية، تمشي بخجل، تبتسم بخجل، تحبّني بخجل، تنظر إلى العالم من بؤرة وردية، كما لو أنّ المستقبل يحمل لها الخلود والسعادة المطلقة، ودائمًا ما تفتح شهيتي لعالم من السرور واللذة، لم أتوقّع أن يحصل شيء كهذا في حياتي، توقّعت أن

تنتهي الحياة إلى برود وموت رتيب، لكن "زينب" كانت السّهم الذي رشقني بالتحرّر، كانت الأمطار التي غسلت كلّ إرهاق العمر المنقضي، أوقدت بداخلي ينابيع من الصفاء، عدت معها طفلاً صغيرًا تعلّق بها ويود في كلّ لحظة أن ترعاه وتحاصره بالاهتمام والحب، كيف حدث ذلك؟ لا أدري! لم أحسب أنّ قلبي قد يألف الأشياء برمّتها، لكنّه بات يفعل، لا يمرّ يوم أو ساعة أو ثانية إلاّ وأنا أفكّر في "زينب"، في دلالها وتوهجها كنجم عزيز في سماء تخلو من نجوم.

آه في فمي طعم القرنفل، وفي يدي لمسات باقيات من ذكرى لقاء بعيد، في فمي طعم المساء.. واللقاء.. والهوى، وبقلبي غصّة لا تحتمل. عرفت الحبّ معكِ يا "زينب"، الحبّ الحقيقي، لم أكن قد عرفته من قبل، فبدأت حياتي في نفض الرتابة عنها وبدت أكثر نبضًا.

كنّا إذ نلتقي، تختلّ كلّ موازين الكون، تتبدّد جميع الكلمات التي أعددتها سلفًا حتى تتيقّني أكثر فأكثر من حبّي لكِ يا بنت العمّ، أضمّك إليّ بمجرد أن أراكِ، أشتهي اختلاس قبلة، ولكنّني أكبت هذا الإحساس وأتراجع عن وجهك قليلاً كي ما يمكنني التدقيق في ملامحك الطلسمية المحيّرة، هذه الملامح التي تمنحني دهشة ما بعدها دهشة، كيف تضحكين ضحكتك المفعمة بالرقّة والحياة ثم تجفلين متوتّرة في تعبير متزامن؟ أعاتبك لو استيقظت متأخّرة، كلّ يوم يحدث لي تغيير عند رؤيتك، أشعر أنّني أنضج يومًا عن يوم، تنضج معك مشاعري، تنتابني انفعالات عجيبة، أستمسك في ذراعيك بشدّة، أضمّك، أتأكد أنّني لست في حلم، فأضمّك أكثر.

نمشي كلّ الدروب الطويلة بحثًا عن نهاية للّقاء دون جدوى، كأنّ اللقاء يودّ لو يظلّ للأبد. أحاول أن أميّز الوجوه التي تحوّطنا، لكنّي بعد لحظة أنسى كلّ الوجوه وأنسى نفسي وأسألك: كيف لم أركِ قبل ذلك؟ هل ضاع عمري الفائت هدرًا؟

حبيبتي نلتقي كلّ يوم، نتكلّم، يرفعنا الغرام فنجلس على عرش في سماء لا تُرى لبشر، لم تعد الأمور أبدًا كما كانت من قبل، لا أنا ولا أنتِ صرنا نحتمل البقاء يومًا بغير أن نلتقي، صرنا كيانًا واحدًا، أسأل نفسي ما الذي غيّرني حقًّا؟ هل هو الوجد؟ لماذا اعتراني هذا الاطمئنان الذي لا مثيل له؟ الأشجار على جانبينا تنكفئ تطالعنا وسط هدوء السهول، تتطاير حولنا أوراقها كصفحات من كتب عشق هائمة، قد أقف طويلاً أمامك لا أفكّر في شيء سواك، أنقل بصري في الأرجاء، بين السماء التي تظلّل غرامنا وبين الأشجار التي تبارك لقاءاتنا، كم أودّ لو تهبط عبراتي كلّما رأيتك! كم أودّ لو أستسلم لها! أريد أن أفعل، شيء في داخلي يقول أنّ روحي ها هي تُحيى من جديد، أتراني أنا نفس التائه القديم! قطعًا لست هو يا حبيبتي، فأنا الآن أنتِ، أنتِ تمامًا، بكلّ ما تحملينه من سكينة ومن وداعة، ولكن من أنا حتّى أستحق كلّ هذا الحب؟! أخشى مع ذلك أن أكون قد أحببتك أكثر مما تفعلين! هل تعرفين أنّي حين رأيتك للمرّة الأولى لم أحسب أنّني سوف أفرح مثل هذه الفرحة.

ضوء الدروب خافت، يتراقص فوق ملامحكِ فأراكِ في أكثر من صورة وأكثر من هيئة، أراكِ ملاكًا، حورية من الجنة، أراكِ عبيرًا منسابًا لأعلى مع ريح طالعة للسماء، في نشوة تلقائية تكلبّشين على

يدي، أتأمّلك ضاحكًا، ألهذه الدرجة تحتمين بي! نجلس وقد جلست كلّ الأشجار السامقة والكائنات الليلية تصغي لكلامكِ، تصفو كلّ الأجواء حين تبدئين في التحدّث، تبدين وكأنّك تتحدثين عن عمر انقضى عبثًا، وكأنّك ترجين استعادة كلّ ما راح دون طائل لكي تكتمل حياتانا من بداية نشأتهما، حبيبتي في كلّ لقاء لنا كانت الدهشة وكانت السعادة، في كلّ حفيف لأوراق الأشجار المرمية حولنا كنّا نسمع دقّات قلبينا، دقّات مطمئنة، تستدعي غلالة من ضوء القمر تفرش الهالة التي تحتوينا، فنمشي على الخطوط التي ينيرها القمر، تتحسّسين يدي، تعودين برأسك إلى الوراء، تسألينني: حبيبي.. هل كلّ هذا حقيقي؟! أجاوبك بابتسامة مؤكدة وأقول: وهل شيء حقيقي في الحياة غير هذا! تقولين: أخشى أن أصحو.. لربّما نحن في حلم! أقول: وما أجمل الحلم!

تذهلينني دومًا بقدرتك الفائقة على ترجمة حبّك لي، تشعلين فؤادي برغبتك في السّهر طوال الليل تستمعين لصوتي وحكاياتي، كما لو أنك خائفة من ألاّ يأتي الغد، تتوسلينني أن أنظم لك شعرًا، في الحقيقة يا حبيبتي لم أكن يومًا شاعرًا، وما تسمعينه هو مشاعري الصادقة دون تلفيق ولا ادّعاء، فهذا ليس شعرًا، هذا شعور أبلغ من أيّ شعر، تدمدمين: أحبّك، فأهمس: قديمة.. فأنا تجاوزت هذه الكلمة منذ وقت.

- ثمّة تخاذل في قلبي.. أشعر أنّ طوقًا يخنق حبّي لك.

- تحدّثي معي عن أوجاعك.. عن كلّ ما يغيّم عالمك.. عن البؤس الذي لا يفارق عينيك.. الماضي.. الذكريات.. عن أيّ ألم لا تستطيعين التخلّص منه.. تحدّثي.

آه يا "زينب"!

لكنّها ترفع عينيها تتطلّع في تفسّخات سقف السماء من البرق، تحاول أن ترتقه بنظرة حنون، وهي تتوقّف قليلاً تتأمّلني، لا تحفل بالمطر الهارب إلينا من صفعات البرق، ولا بالبرودة أو انتفاضة الجسد، تميل نحوي وتقول ضاحكة ضحكة شاحبة:

- هل تتذكّر عندما كنت تبتلع أعواد القرنفل لأجلي؟

غير أنّها سريعًا ما تتسلّق قطرات المطر بأهداب مرتعشة وعيناها تتأمّلان كبد السماء الوامض، تتمتم:

- هل يحتمل قلب ضعيف الخروج من نقيض لنقيض؟!

- ربّما، لكن النبض ذاته من دون حبّ فوق الاحتمال.

- عالمي لا يُشبه هذا العالم في شيء.. عالمي مطموس.. كئيب.. أمّا هذا العالم فهو يشغي بالحياة والتجدّد، والارتباك في ذات الوقت.

- وهذا أدعى أن يُعاش للثمالة.

- حاول أن تفهمني...

وتستدير برأسها نحوي، ينعقد حاجباها في حيرة، تحاول أن تُكمل فتصمت، تحتويني بنظرات زائغة، وكلّما انفرجت شفتاها لصياغة ما يتنازع بداخلها، انغلقتا، تهزّ رأسها متحيّرة، وتهمهم:

- أعلم أنّني أحبك، لم أحبّ غيرك، ولن أفعل، لكن هناك بضعة احتمالات تجعلني..

وتصمت ثانية، يفرّ المعنى من بين شفتيها، تتورّد وجنتاها وتنمّ عن اختلاج باطن لا سبيل لإيضاحه، تتفصّد عيناها عن دموع تؤكد

الاختلاج، وتترجم الحيرة، تدنو من كتفي، وتستريح برأسها عليه، وتتنهّد قائلة بصوت متهدّج:

- تجعلني خائفة منك.

اربت على كتفها مطمئِنًا، اقتنص في بطن يدي قطرات من ماء المطر وأغسل بها عينيها من الدموع المرتشحة، وأقول:

- كيف تخافين ممّن يخاف على قلبه منك؟!

أتذكرين مساءاتنا؟ حال تكون الدنيا مغسولة بالسكينة، نمشي وراء ظلال الأشجار تحت إنارة الأعمدة الطفيفة، تنفتح علينا شبابيك الوجد من السماء فرِحة، نخرج من أجسادنا التي تقيّدنا ونطير، ولا ندنو من السحابات أكثر ممّا يستلزم، حتى لا تبتل أرواحنا يا "زينب"، نطلّ على العالم الرتيب ونُخرج له ألسنتنا، لن نكتفي بك أيّها العالم! سوف تصحبنا هتافات الأولاد الذين يلهون في الطرقات: (لا تعودا.. لا تعودا.. السماء أحلى كثيرًا). وفي الليالي التي يكون فيها البدر منتشيًا، والدنيا تلمع في أمل يشع على البشر أجمعين، نتساحب وراء التماهي اللذيذ، لا يهمّنا أن نكون غيرنا، غير هذا الحبّ الفائض فوق الكون، فانبتيني يا "زينب" كغصن من شجرة وارفة في الجنّة، وربّما.. ربّما يا حبيبتي.. سأتحوّل إلى عود قرنفل حين يجن الليل.

إنّما أجمل ما في الموضوع أنّها كانت تعشق المساء مثلما أفعل، كنّا نسهر الليل بطوله نتحادث في الذكريات المطلّة على كلّ الأماكن التي دسناها أنا وهي سويًا، لم يكن شيء يغريني بالبقاء متيقظًا دون حتّى أن أتفوّه بحرف سوى اندماجي مع ذكرى كلّ لقاء لنا داخل البيت أو في

الطرقات. أو في السّهول القريبة، وطالما كانت تحدّق فيّ بفضول واستغراب، أشعر أنّها تفتقد البوح كما أفتقد تمامًا.

تهدهدني في بطء وتحتويني، أروح معها داخل غياب مذاقه كالعسل، تصحبني لدنيا بعيدة.. بعيدة، وصوت قطرات المطر الذي ينقر الأسطح والوجوه وأفواه الورود يسحبنا نحو الاطمئنان والراحة ونحو الاستقرار).

شبكة من طير قادمة تتشعّب فوق فضاء الصّحراء، تملأ حدود البصر، دونما صوت، وإن راحت تنثر ذات العطر إيّاه.

فأيّ مأساة! أما زلت تؤمن أيّها البائس بمثل تلك المصادفات العبثية؟ ما الذي قد يتبادر إلى ذهنك حين يتسلّل لأنفك ذلك العطر؟ عطر القرنفل، نعم، تظنّها قادمة في حُلم آخر، لعلّه عطرها، رائحة القرنفل، ضحكتها، أو رائحة الماء المتدفّق من جسدها الصغير، وهي ترتمي عليك، هي لم تزل حولك في هذه الأماكن، وقد بعث بها الزمن من جديد، أليس كذلك؟

إنّ روحك تسري تتفقّد جميع المناطق التي يُمكن أن تستقر فيها حكايتك، بلا جدوى، إنّما لم تعُد تعرف المنطقي من الجدلي، لم تعُد تركن إلى راحة بعينها، لكن الحكاية غائمة، طليقة، تترنّح مصاحبة الوطن، ما الذي يفوق تصوّرك - البائس - عن الوهم؟ ليس من إحساس بديل، الوهم، هو الوهم.

ببطء، ترفع عينيك، الصّحراء؛ هي الصّحراء، والرّمل يزحف نحو الرّيح متأهّبًا، الرّمال تمتدّ لتجرف معها استقرار الحكاية، تمتدّ لتخترق الأفق البعيد، بلا نهاية ممكنة، والموتى من حولك، وداعات أخرى، غير

مطمئنة، همسات تستنفد كافّة طاقات الاحتمال، انتظار مكرّر ربما، هم الموتى ولو غامت ملامحهم، يرتدون نفس الزّي البليد؛ زي الفراق.

الموتى أشكال، والأشكال أصنام، والأصنام لا تتحرّك، الزمن وحده يتحرّك، للأمام، أو للوراء، لا يهم، الموتى لا يتحرّكون، اكتفوا بالسكون، هنا؛ في هذه الصّحراء، لا يتحرّك عدا هذا الرّمل الزاحف يتأهّب، والسأم سمير الراحلين، والانتظار أمسى عادة أصنام تلك الصّحراء، التي يسلب الرّمل أحلامهم، ويمضي، بلا عودة ربما، يمضي ولا يمضي معه غير ما يألفه تاريخ التعساء، ويبقى الحنين، تبقى أنت وما زلت تنتظر، التفاصيل لا تتحرّك مع الرّمل، تبدو كأنّها تجري للخلف، يدوسها الزمن، يهرسها الخيال في طلوعه، ويقهرها الانتظار، تنال منها حتمية المشاهد الباقية القديمة، أنت تنتظر، وكلّ أولئك الموتى ينتظرون، أرواحهم باقية تنتظر، إنّ الصّحراء بسكونها، وتفاصيلها التي غيّمها الغُبار، مجرّد خلاء للأرواح، امتداد لنفس الصّحراء القاحلة التي تربض في النفوس.

لم يكن في الصّحراء من ثابت إلاّ الانتظار، الثابت الوحيد وسط حراك العالم في الخارج، الثابت الذي شيّده بؤس الارتحال، كأنّما ليتحدّى به عبثية المعاني، إنّ الانتظار - رغم مرارته - كفيلٌ وحده بإضفاء معنى لما يعانيه البشر في تلك الصّحراء، في تلك الحياة. ولا يعود بك الزمن مهما عاندت.

قال لك الدّليل الكُردي:

- لا أحتمل الصّحراء، تخيّل، رغم إنّ حياتي مرهونة بها، فهنا في هذا المكان يغتالون الشمس كلّ طلعة صبح، يسطون على بريقها، ويحبسونه وراء قضبان أرواحهم اليابسة، فلم يعُد ثمّة بريق.

إلى أيّة غاية يذهب بك الانتظار؟ هل يساورك احتمال - أيّ احتمال- أن يعود الوطن؟ أن يعود الموتى؟ أن تعود إليك - بها - الذكريات؟

كلاّ، ولو أنّ الزمن لا يُعيد المقتنيات الثمينة، فإنّ الحياة تكرّر نفسها، بلا حيلة، في الغالب تفعل، عسى ما كان، يكون مجدّدًا، الخيالات تصحب رأسك كلّ يوم، أنت رهين لها، لكنّك لا تُدرك إلام بلغت بك الأكذوبة! لا يتغيّر طابع في هذه الصّحراء الشاسعة، ما زال الاضطرار طبيعة، والانتظار سمة حياة.

تمر الظنون، وتمر الأيّام، وأنا جالس في الخيمة، أو على ظهر جمل، في يدي مصحف، وقد نويت أحفظ القرآن لأجل أبي، ويدي داخل قلبي تعصره، أجلس لا لشيء إلاّ كي تتابع عيناي ملامح الرّياح القادمة، أمنّي نفسي أن يأتي السبب الذي به أخرج للعالم ثانية، إنّما السبب لا يأتي أبدًا، يا لها من مأساةٍ غير مفتعلة! أقول لنفسي: لعلّي استطبت الألم! أخرج أتفقّد الرفاق، أجالسهم في ليالي السّمر، حول النّار، فقط، كي أستمع إلى الحكايات، ربّما تتضاءل حكايتي جوار حكاياتهم؟ ولو أنّ حكايتي مُلهمة، بحكايتي قد تقوم أمور لا تقوم على حكاية قط، بحكايتي فحسب، بل لعلّي هنا حيث تعود "زينب"، فأرحل معها إذا رحلت، وأعشق معها إذا عشقت، وأذوب إن ذابت، كلّها ترهّلات بائسة من مرور الزمن - قسرًا - على الحكاية، لكن ما أطوّل لحظات الوحشة! تلك اللحظات التي تفتح المجال للاستدعاء، تقتبس ذكريات قديمة

مؤجّلة لأوقات بعينها، وتفنّطها، نفس الأوقات التي يعوز فيها المرء للغوص بعيدًا عن عالمه الفجّ، ربما نحو عالم أكثر مجازًا، أو ربما نحو لا عالم بعينه، تلك المساحة البيضاء في الذاكرة وفي الروح، والتي لا تستند إلى حدود أو تفاصيل أو مترادفات، والتي يخلقها انغراس الانتظار في رأسي، فأبدو منفردًا بالزمان والمكان والغواية، متشبّعًا بذلك الانفراد.

الاسترجاع زهوة الحياة هنا في تلك الصّحراء، ليس منّا من يبدو خالي الوفاض، كلّنا نحمل فوق أكتافنا الذكريات ونطوف أنسجة الحياة، نهيم في مناطق عدمية، تحملنا الذكرى وقتًا من مرفأ لمرفأ، ثم تبثّنا داخل زخم الأحداث القاسية فنهرب منها لبعض الوقت، غير أنّنا في النهاية معلّقون في أذيال الماضي، حقيقة أحادية، لا مجالة من الاعتراف بها، تجعلني لاهثًا حينًا خلف لا شيء، أضرب بطن الصّحراء بلا هدى، أمشي وتمشي معي ذكرياتي، مغيّبًا يجوز، لكنّي منتشيًا حدّ الانفصال عن الجمادات المحيطة، أجلس فوق الرّمل الساخن، محدّقًا في العدم ببلاهة مغيّب، أنزّ الدموع، أنتظر كلّ يوم مطلع فجر جديد، فلا يجيء إلاّ على بؤس جديد، إمّا تركتني إذن من تلك الحياة وإمّا بدء ليوم تعيس آخر، يغريني بزوغ ندف السحاب المصاحبة للشمس في صفحة السماء، يغريني للمكوث طويلاً أتفنّن في تأويل حقيقة وجودها، ليس غريبًا أن يشطّ المرء - حال الحيارى لو دقّقت التوصيف، أستند على يأسي، بعد أن تنصرف جميع الحكايات، أغيب بينما أسير حذاء كلّ الذكريات، تستلبني الخطوات منّي شيئًا فشيئًا، متتبّعًا في دقّة طلوع الحقيقة الكونية العابثة، شمس بلادي.

تزحف الشمس من وراء تباب الرّمل وكثبانه، وتتسلّل إلى داخل جوف الصّحراء في لهو، تربّت على صدري وتغطس فيه، تعاشر القوم الساكنين في الداخل، وتنجب منه سحرًا لا يقاومه الانتظار، تتّجه الأشعة نحو الأماكن بشغف، واتّجه بعينيّ نحو اللا وجود في خبل، وأتساءل أسئلة أدرك معنى أنّها بلا جدوى، إنّما لا بأس من طبيعة شططي، أنظر مليًّا في عين الشمس، وتنظر لي في دلال، وأسألها: أأنتِ قريبة؟ فلا تجيب. أأنتِ بعيدة؟ فلا تجيب. هل حقًّا سطا بعضهم على نورِك؟ إنّما لا تُجيب.

وسرعان ما تجري بعيدًا عنّي ملتحفة بسكون المغيب!

أخذت أرمق ومضات النجوم وهي تعوم في فضاء الصّحراء، آه يا "زينب"، أنا أذكر تلك الأيّام، حدّدوا موعدًا للزفاف، لكن قبل الموعد بأيّام، احترقت المدينة، بكلّ من فيها. عضضت شفتيّ، الأعمق إيلامًا هو فقد الوطن كلّه، أجل أنا مسافر بلا أهل ولا رفيق، ولا وطن، كم أُشبه هذه النجوم! تدور بلا وطن، تستقر في فضاء بوهيمي، مجهول.

اللّيل، وصوت الرّمال وهي تحفّ فوق سطح الصّحراء، والعبث، لم يزل فؤادي منقبضًا من شدّة المرارة، وفي الظلام، يصفّر الدّليل الكُردي، ويقترب منّي، جالسًا جواري:

- ما أطيب نسيم اللّيل!

- نسيم مدينتنا أطيب.

- الوطن يصبح هاجسًا لا مفر منه.

- الوطن حقيقة.

- لكنّها حقيقة مدفونة في ظلال التّاريخ.

أزفر متنهّدًا، وأستدير إليه:

- ولو..! إنّ الحقائق تُستعاد، لا بأس من بعض الضياع.

- والأهل؟!

هنا يتحشرج صوتي، وأنا أقول:

- أجل، أجل، لا وطن بلا أهل، وأمّا قد ضاع الأهل، يضيع الوطن.

يربّت الدّليل على كتفي، يشعر بغصّتي، هي غصّته أيضًا، بكلّ تأكيد، إنّما يردف:

- طيّب تعال استرح قليلاً.. سنتحرّك مع أول ضوء للفجر.

نتّجه إلى الخيمة، غير أنّي لا أستطيع أن أنام، لعلّي تعوّدت ألاّ أفعل، أظلّ محدّقًا في خطّ الأفق البعيد، والحرائق تستعرّ أمام بصري، والجثث، مؤكّد من بينها جثث أمّي وأبي وعروسي، كيف كان لي ألاّ أتحسّس بينها؟! ربّما تمكّنت من إيجاد أحدهم، ولو أنّ النيران طمست الملامح، لكن حسّ الدّم لم يكن ليخيب، ماذا دهاني؟! بل ما الذي جعلني قائمًا إلى اليوم؟ ألم يكن ليأتني الانهيار المباغت؟! كيف واصلت حياتي؟! آه ما أضعف الإنسان قبالة الحياة في أرض مستباحة!

خيوط الفجر البيضاء تدنو لتلامس حواف الكثبان، وتدخل مع الفجر سحب رمادية في متن السّماء، والشّمس روائح مختمرة، تنزلق أشعتها لتُغرق التلال الصّفراء، وأشتهي وطني، أشتهي طلعة الفجر، من وراء التلال الخضراء، بلون الشّفق، أشتهي الظلال التي تعدو من

خلفي وأنا أركض جوار حافّة النّهر، وأرطّب يومي بجلسة على الضفّة، أراقب الموج المندفع نحو ساقيّ.

أوقظ عينيّ، أراقب حواف الصّحراء وهي تستبدل لونًا بلون، وتتنصّل من رداء الظلمة، وتكتسب بكارة الصّباح.

تتحرّك القافلة، وتكتسي نفسي بلون الرّمل الأصفر، وتخامرني الخواطر الضّالة، والرّمل يمتدّ إلى الأفق، كبساط ناعم ليّن، وأخفاف الجمال تحطّ وتخفق، كخفقان قلبي، ومن بعيد، تُقبل عاصفة من رمل أبيض، تدور قادمة، تتجهّز القافلة، فتستدير الجِمال، مولية ظهورها للرّمال الآتية، ونتلفّع بملابسنا، نتدثّر من غضب الصّحراء، وفي المدى ضوء نافق، يطير نحو عينيّ، ويُعيدني إلى بكارة الأشياء، لم تعُد بكارة في أيّ شيء، وقد انهتك وطني، وهيضت أرضي، وأُخذ كلّ ما كان بشأنه أن يبقيني في هذه الحياة.

وفي دقائق، تسبح العاصفة بعيدًا عنّا، تترك بين ثنيات ملابسنا رملها الناعم، فننفضها، وتتقدّم القافلة نحو عباب الصّحراء، قال لي صديقي الدّليل الكُردي، أنّ ثمّة من يعتبرون أنّ الصّحراء وطنٌ لهم، تجّار ورُحّل، ليس لديهم هذا الشعور بالوطن، انتزعوه من وجدانهم، ربّما عنوة، لكنّهم استكملوا إحساسهم بالوطن من خلال الصّحراء، قال لي أنّ الصّحراء وطنٌ آمن تمامًا، أقلّه لا يغدُر ولا يُستباح.

أيّ اطمئنان في انتزاع هذا الشعور بالوطن! لقد استراح من فعل، ومن لم يفعل، ربّما لن يستريح أبدًا، وإن تواترت عليه الأوطان!

8

سأظلّ بائسًا..

سأظلّ مكسورًا واهيًا في أعمق جزء صلب في روحي..

سيظلّ مارد العاطفة بداخلي حبيسًا شاردًا..

مهما تحايلت، مهما تحايلت!

لم أعُد قادرًا على البكاء..

إنّي اختزن انكساري وأمضي نحو العدم..

تلقّفوني..

تلقّفوني.

فالتي أدهشتني..

أظنّها - مثلي- ترحل إلى الماضي كي تلملم المبعثر من الذكريات.

وتعاود دورانها حول تلك الذكريات، لأنّها مثلي - مثلي تمامًا - لم تعُد تعيش في عالم يملأ جوارحها بما يكفي.

التي أدهشتني...

تنتحب فقط عندما يتلاشى المساء تاركًا البراح يسكنه نهار بائس آخر.

لا يدفئها غير إحساس بالعزلة.

تتفقّد وجوه الراحلين عبثًا.

تصدّق - حقيقة - أنّ القلب لم يزل ينبض.

يا خيبتي!

هي حالة من التجلّي.

فالتي أدهشتني غائبة في الخيال.

التي أدهشتني رمز للمعنى الضائع منّي.

والتي أدهشتني تستمع لمرثيات القدامى.

تمامًا مثلي- تمامًا مثلي.

لأنّ الذي تدهشه التفاصيل العابرة.

حتمًا سيتبدّد في فضاء عبثها.

وأيّ فضاء!

انتظريني يا صاحبة الدهشة...

إنّي قادم - إليك - بتساؤلاتي.

لكِ أنفقت الخيالَ ولم يعِ..

قدر البلاد التي بكِ يجوب..

هي بلاد الزهر والذهب.

والدهشة إن تكن دون حدود.. خبّريني شكل موعدي القادم! فإذا شئتِ التقينا فوق بساط الأفق بين نسائم المغيب وتنهّدات المساء.

إذا شئتِ كنت جوّادًا تسرجه تأملاتك..

إذا شئتِ بتّ قوس قزحٍ يتلوّن لعينيك كيف تروق...

دهشتي دهشة الليل إذ يدهمه نور..

أنت النور الذي صنع أحرف الدهشة...

أيا وحيد أنا ويا أنتِ....

أيا بسمة ما بين الأزل والأبد تدوم...

دمت دهشة أعظم من حدّ الجنون!

أجل..

إنّي أحملك في صدري وأسير في النفق المؤدّي للخلود.

أتأمّل اللا نهايات.

يغمرنا ضوء السرمدية.

ما أعجبني!

إذا اندهشت!

سأقابلك وقد اغتسلت من ماضيّ.

ما كنّا آثمين يا بنت العمّ، إنّما للإثم ألف وجه، أحاول قدر طاقتي أن أزيله من جسدي، لكن الإثم لزج، يلتصق مثل عهر قديم.

لكنّي اغتسلت..

أحقًّا هذه نهاية وجعك!

لا يا "زينب"، النهايات ليست بمثل تلك الحيوية، النهاية كالإثم، كلاهما لزج، وكلاهما مريض نفسي يا "زينب".

ساءلت الإثم، وقد رأيته في المرآة يستبدل وجهي به، قلت:

- وهل أعظم من الشقاء أجرًا عند الله؟

فلا تتركي يدي يا "زينب"، امنحيني كلّ طاقات الاستئناس، لا تتركيها عبثًا، فإن أفلتِها ضاعت شكواي سُدى، بنت العمّ، الإثم صدفة، كلّ الآثام صدف، وأقدار، فلا تؤاخذيني على إثم إن لم أفعله ما ارتحلت تاركًا وجهك لعبث الأزمنة الماكرة.

تستحقين الآن تلك الآهة المحبوسة يا "زينب".

آه يا "زينب"!

9

كان شاقًّا على مسير القافلة أن تحمل محمومًا مثلي، إنّما صاحبي الدّليل كان يباشرني، وبلغت من هذياني أنّي كنت أصحو في أوقات متقطّعة أنادي على الراحلين، أنادي على أمّي وأبي، وعلى ابنة عمّي "زينب"، ما ذنب البريئات تدهسهنّ الحروب، وغشامة الحروب؟! وهل كان لها ذنب في أن تزورنا ضيفة وترحل عروسًا؟

كان صاحبي الدّليل قد غلى عُشبًا جافًّا وقليلاً من بذور الكمون، وترك الدواء ليبرد، ثم سقاني إيّاه، كنت أسعل سعلات متقطّعة ووجهي أحمرّ وعيناي جحظتا، أدرك الجميع إنّي سائر إلى تهلكة، فخافوني، بل وذهب أحدهم أنّي لابدّ وأُترك خلفهم في الصّحراء، خشية أن يكون مرضي وباءً مستطيرًا ينتشر ويفتك بالبقيّة، إنّما طمأنهم صاحبي، وقال لهم:

- لا تعدو كونها حمّى وستروح مع الشراب.

- لكنّك كُردي مثله، تميلان لبعضكما، يا أخي طالما لا تخف على نفسك خف علينا.

كان منطقهم مقنعًا، وبالضرورة لابدّ أن أُترك إن دام مرضي ليوم، بالأكثر يومين.

وبدا أنّ نفسي كانت تنزع حقًّا إلى الاستكانة، وإلى الاستسلام لمصير الداء، فكنت لا أكابد أن أُشفى، وكنت أرتشف الشراب على مضض،

وغير راض، أعظم ما خشيت إن تُركت لا أُنفق، فأبقى في الصّحراء عُرضة لذئابها، ومجهولها، ومن عجب الأقدار أنّي كلّما سعيت نحو الاستسلام، راق جسدي، وطرد عنه الدّاء حثيثًا، إذ في عشيّة اليوم التالي، وجدت أنّي استفقت، وقمت إليهم بطاقة ربّانية.

تهلّل وجه صاحبي، وصاح:

- ألم أخبركم؟

إنّما كانوا ينظرون نحوي متوجّسين، تلك الأمور - لو يعلمون - لا يُمكن معها الادّعاء، أو التلفيق، وبعد قليل، أفسح لي أحدهم ركنًا جواره حول ركية النار، وهتف:

- ليس أصحّ من "زاخولي"، أبشروا، عاد صاحبنا.

كانت النار تتراقص، وتتّجه رأسها نحو الشّمال، وكان الزّمر يصدح، وغنم فوق الموقد، ومن هناك، حيث قلب الصّحراء، كانت ظنوني تترامى، ورفعت عينيّ وجهة السّماء، النجوم لم تزل متشبّثة بالأفق، وطالعت - مع ما طالعت من ذكريات - وجوه الرّاحلين تومض في السّماء، فأدمعت عيناي، وهيض فؤادي، وأدركت أنّ الذي استوطنني - حتمًا - سيدوم إلى أبد، ولفحت نار الرُكية جنب وجهي، وإذ بي سرعان ما أستوقد من ذاكرتي مشهد الحرائق والخراب، فقمت، تعثّرت، لكنّي قمت، وفي زاوية من مجلس القافلة غرست وجهي بالرمال، وأهلتها فوقي، كانت رُوحي مثقلة بالفناء، وكان صاحبي الكُردي قد شبّ من فوره، أمسك بساعدي، ورفعني، وأخذ يحملق في عينيّ، نشبت أظافري في لحم كتفه، واستصرخته، كأنّي ألوذ به من ألم قابع في حشايا رُوحي، كانت الدموع لم تزل تسحّ وأنا أتمتم:

- مات أهلي.. احترقوا يا صاحبي.. احترقوا.

10

بدا ضباب يجيء من ناحية الأفق، وقد هجعت الجِمال وغفا الرّجال في خيمتهم، ونامت النساء في خيمتهنّ، كيف يستدعي هؤلاء النّوم بمثل هذه السرعة والشفافية؟ ليس لي حظّ فيه كحظّهم، والصّحراء تعدو أمامي، ما أعظم هذا الخلاء! تسبح فيه جميع الظنون والأفكار، قال لي أبي إنّ الأفكار لا تكون واضحة جليّة إلاّ في الخلاء، ويومًا بعد يوم أعرف كم كان صادقًا، صادقًا في سائر التأويلات حتّى، هو من رجّح أنّ الوطن إلى فناء، هو من قال: معاهدات وعهود، والكُرد يا ولدي مغضوب عليهم، ربّما ليومِ السّاعة.

غاشت في عينيّ الدموع، وقلبي مضى يخفق في ألق وحسرة، كيف لم أتوقّع أنّ أبي لن يبقى لمؤازرتي ضدّ تيار الحياة أكثر من هذا؟

يوم اصطحبني أبي إلى الدّير، وقابلنا الأسقف، بترتيب من الأب "أنطوان"، جلسنا وسط احتفاء، وقتذاك، سأل الأسقف أبي:

- لكن أخبرني يا "إمام".. ما سبب إصرارك على أرض الدّير القبلية؟

ردّ أبي:

- أبدًا يا أسقف.. أرض الدّير ستوهب لله.. سوف نبني عليها مسجدًا يليق بمدينتنا.

- الأراضي كثيرة!

- لكن أرض الدّير القبلية تقع في وسط البلد.. والبيوت ملفوفة حولها.. خير موقع لبناء مسجد.

- طيّب، لا مانع لدينا، إنّما بشرط!

- خيرًا يا أسقف؟

رجع الأسقف للوراء، وأسبل جفنيه، ثم أردف:

- منذ أيّام جاءني "جبريل" في المنام"..

هتف أبي:

- "جبريل"!

- أجل.. "جبريل".. الملاك الوحي.. جاءني في المنام.

- لكن غريبة!

- لا تنس، "جبريل" وحي الله.. لا وحي الإسلام فقط!

- عمومًا ما علينا.. أكمل..

- المهم، أوحى لي بفكرة، فإذا كنت ترغب في شراء أرض الدّير: أن تقيموا جوار المسجد كنيسة.

- ماذا تقول يا أسقف؟

- هذا شرطي!

تململ أبي قليلاً، نهض ثم استدار نحو الأسقف وهو يشدّني من يدي:

- أشوف وأردّ عليك.

واندفع بي خارج الدّير، وكان يغمغم:

- رجل ملعون! مؤكّد خرِّف هذا الرّجل! مؤكّد!

وقد عرفت - كمعرفة بديهية - أنّ لا شيء عسير على مقدرة أبي، ذلك ربما منذ أن بدأت استكشاف العالم وتخزين الذكريات، منذ كان يأتي لي بعجائب الدنيا في كتب صغيرة ونتصفّحها سويًا، "ضياء الدّين ابن الأثير"، "ابن الصّلاح الشهرزوري"، "ابن خلكان"، "أبو الفداء"، "ابن تيمية"، "بديع الزّمان الجزري"، "أبو حنيفة الدينوري"، "قاسم أمين"، "أحمد شوقي". ويقول لي: كلّ أولئك الأئمة والعلماء والمفكّرين والشّعراء كُرد مثلنا يا ولدي. أيامها كان العالم حولي لا يعدو كونه أكثر من اختزال مصغّر لتلك العلاقة بيني وبين أبي وأمّي، هذه الأسرة الصغيرة سند بعضها البعض، لم أكن أعرف صديقًا يميل له قلبي غير "عمّار"، وهو صديق وحيد، وكون أبي يمدّني بمثل تلك الكتب التي تصف عوالم لا تكمن سوى في الخيال، فهو يمدّني أساسًا بأصدقاء افتراضيين.

ولمّا غامت الدنيا، وتحوّل كلّ شيء إلى سراب، ورماد، تلك كانت ضيعة وطن، وطن وضعته الأقدار في أعجوبة كبرى!

الصّحراء، منفذي إلى الخيال، طالما قال أبي أنّ أصل الإنسان عقل، وأنّ العقل يجاوز كافة الحدود، قال لي أنظر إلى الأرمن، يضنّون علينا بقطعة أرض خراب، كي نبني جامعًا، هم لا يفكّرون، شفت يا ولدي لمّا وجدنا الكنيسة تحت دارنا، ماذا فعلوا؟

أيّامذاك، كنّا نرمّم بيتنا، وتصادف أنّا حفرنا كي نصنع مخزنًا في بطن البيت، ووجدنا نفقًا طويلاً، ظنّ أبي أنّه نفق إلى أثر عظيم، قد يبدّل مجريات حياتنا، كان النفق هابطًا لأسفل، يُشبه قصبة مفرغة،

وبمعونة البعض هبطنا، وكانت الصلبان معلّقة على جدران النفق من الدّاخل، يغطّيها التراب، وتسكنها العناكب، تقدّمنا أكثر، ووجدنا تمثالاً من الخشب لأمّنا "مريم"، ضخمًا، يضاهي طوله أمتارًا ثلاثة، وفي مؤخّرة النّفق، كانت صوَر المسيح معلّقة ماثلة، امتقع الأب "أنطوان" لمّا أخبرناه، وجاء وفد من الدّير، وعاينوا النّفق، وقالوا أنّها كنيسة غابرة، دُفنت في زمنٍ بعيد، وأقاموا الدّنيا، ولم يقعدوها إلاّ وقد عزّلنا من البيت، لبيت مجاور.

طبعًا كان ذلك إبان إبرام المعاهدات ودخول الحلفاء إقليمنا بعد انتهاء الحرب، حيث قضت الحرب على الآثار والأوطان، كما قضت على الكُرد، لم يبق في المدينة إلاّ أثر وحيد، أثر الرّماد.

حطّت القافلة على مشارف أحد الوديان المترامية نحو بطن الصّحراء، ثم تجهّز البعض استعدادًا لمقدم وليد، تجهّزوا بأن أشعلوا نارًا للشواء، وأخرج صاحب الطفل قنّينات النبيذ، وقال لنا:

- الليلة ليلة سهر واحتفال، سيشرب الجميع نبيذًا معتّقًا، بشرط أن يكون الطفل ولدًا.

حكا لي الدّليل أنّ "جلال الدّين" العراقي تاجرٌ ميسور، وقد كانت خلفته من الإناث، وأنّه رأى رؤيا بأنّ له طفلاً ذكرًا، سوف تنجبه الصّحراء، وكانت زوجه في خيمة الحريم، ونحن جالسون خارجها حول حلقة النّار، وفيما يتفجّر الولدُ من رحمِها؛ بدمّه المسجون تسعة أشهر، وبهجته، وأسانيد حلم ها هو تحقّق - دونما احتمال - بين ساقيه الصغيرتين، تجسّد نبتةً ذكوريّة لا مساس بحقيقتها، يتفجّر مدلّلاً على الحياة بصيحات حادّة متقطّعة نبض لها فؤاد الأم من جديد، متخلّصًا

للأبد من رابطه السُرّي، و"الدّاية" ملازمة القافلة بتكليف من العراقي تبشّر النسوة والرّجال بالمفاجأة التي لم تخطر ببال، فيما يهرع الأب إلى خارج الخيمة، وبوجهه تباشير ذكورة حلّت أخيرًا، هاتفًا لكلّ من أحاط بالخيمة من منتظرين وكأنّهم يعرفون مآل بطن امرأته:

- ولد..

- صحيح يا حاج "جلال"!

يبحلقون أولاً لبعضهم البعض، يفغرون أفواههم، ثم يقفزون نحوه وعلى وجوههم تساؤلات عدم التصديق، يعرفون أنّ "جلال الدّين" العراقي طالما كانت خلفته من الإناث، انحدر من صلبه سبع منهن، وفي كلّ مرّة - ومنذ ربع قرن - يحرث في همّة أرض امرأته ليبذر بذرة أكثر صلابة، إنّما دون جدوى، ذلك ما دفعهم لتحلّقه، وكان بعض أصحابه من التجّار يضحكون، لأنّه أيضًا في كلّ نوبة يطلع لهم بذات الانفعال صائحًا: ولد. فلا يكون ولدًا ولا يحزنون.

منهم من ابتسم مؤكّدًا كذب "جلال الدّين"، فهو عادة اكتسبها من طول الأمل البائس، ومنهم من حكّ ذقنه قائلاً في نفسه: يمكن! ومنهم من دخل مباشرة إلى "الداية" ربما ليطمئن، لكنّ "جلال" مضى يهتف في فرحة زاعقة وبصوت أشدّ بهاء:

- وربّ الكعبة ولد...

قال واحد من أصحابه في نبرة اتّهام مستترة، وهو يغمز بعينه، وكلماته طالعة تغيظ "جلال الدّين":

- يا "جلال"...!

- أنا شفت العلامة بين رجليه..

- يعني يا حاج صح شفت العلامة؟

- هو فوران دمّ وخلاص.. الله يحرقكم واحدًا واحدًا.. العلامة شمس منوّرة يا أنجاس..

وأخذوا يضحكون، فتركنا العراقي، ودلف للخيمة ثانية، ظلّ يرمق البلحة الصغيرة المتوثّبة من بين ساقيّ ولده، وفي عينيه يتصافح الحُلم مع الحقيقة، وأخذ يمعن في البصّ نحو ولده، قائلاً لنفسه: كم صبرت! وكلّ تركيزه كان في الولد، وفي رأسه تصطخب الأسماء، هو لم يتوقّع الولد فلم يحدّد اسمًا بعينه قبلها، جاء كلسعة شمس في يوم شديد البرودة، اخلص يا "جلال"، ماذا ستسمّيه؟ "يوسف"!

هو "يوسف".

يندفع جديٌ بين الجالسين ليُنحر في وقتها، والقمر عال جدًّا، في قلب السّماء، والصّحراء مرتع للظنون، لن ينتظر "جلال الدّين" ساعة أخرى، فلحظة أن يأتي له في الدنيا ولد، لحظة أن يسيل لأجله دّم حلال.

بسم الله الرحمن الرحيم. يتدفّق الدّم، وطير في السماء يغرّد فرحًا، والدّم النبيذي يضمّد شقوق الرّمل، فيرويها، الدّم الخام الدافئ لن تستطيع ولا أجواف أرض العالم احتساءه، فهو غزير، يجري دون حسبان، يخضّب كواحل النساء فيوشمها، الدّم يجري فتلقفه أكفّ العيال، ليصنعون به على ظهور الجِمال رموز المباركة، دمٌّ نبيذي له رائحة مسك لم يشمّها رجل في حياته. في صباح، قعد "جلال الدّين" مع ربّه قعدة صفاء، هكذا راح يحكي لنا، وكان ليلتها قد جرع النبيذ الأحمر

حدّ أنّه وصل إلى مشارف السّماء، فلمّا استيقظ، سحّ الدمع مثلما لم يفعل من قبل، توسّل إلى الله، وكاشفه برغبته، تجرّد من ذنوبه تائبًا، وسجد ساعة ويزيد.

يذكر ذلك الصباح، كان قبل تسعة أشهر، بالتمام والكمال، هي التي تكوّن بداخل بطن زوجه "يوسف"، وهي التي خلالها عاهد الله صادقًا، ولم ينكث، وهي التي كان "يوسف" يُقبل أثناءها من السماء كطيف مستحيل، فأيّ قدر يا مستجيب! ما أروعه.

خرّ برأسه، لامس جبينه حصيرة الدمّ الحلال، وتوضّأ به. سوف يسامحه الله هذه اللّيلة بالذّات، وقد أُبيح شرب النبيذ لأجل عيون الولد.

يرفرف طائر في كبد السماء، ولا يبدو له رحيل، يغرّد منشدًا كبوق لمئات من أصوات طير:

- يأووووووووووووووسسسس.....

يفسّر البعض أنّ الطير ينشد: يا قدّوس. والآخر يفسّر إنشاده: "يوسف". وفي السماء، في امتثال الطبيعة لسطوة ليل داجن، تتضافر خيوط السواد، فتصطبغ الصّحراء بالحكايات.

لا تنفضّ الحكايات، ولا ينفضّ الانبساط، لم يكن الرّمل قد شرب دَم "جلال" الحلال، ربما لأنّ الأرض أُمرت منذ بدء الخليقة ولن تخالف الأمر لأجل عيون "يوسف"، ولو حتّى كانت عطشى، يجلس "جلال الدّين"، يتأمّل "يوسف" بملامحه العفوية الخالصة التي لم تفرز شكلاً ملائمًا بعد، وزوجه تضعه جوارها كأنّه أيقونة فريدة خالصة مخلّصة

لم تؤت لبشر، والنساء يجلسن في صحن الخيمة يتحدّثن في أمور لا تعنيها، تقول:

- جميل...

يضحك "جلال الدّين"، فتجيبها الضحكة، جميل وأجمل من خلق الله.

- والدنيا...!

فيستدير نحوها، يقول في ثقة:

- سأحميه منها.

- قلبي يخاف عليه.

- وقلبي يخاف أكثر.

- ليته كان في عالم بلا ناس.

- لنا ربّ كريم.

لم ينقطع الزّمر ولا الطّبل تلك اللّيلة، ولا الأكل، ولم تنقطع رائحة الشواء ولا شرب النبيذ، يهتف "جلال الدّين" العراقي:

- سوف أبوح لكم بسرّ عظيم...

تقترب منه الآذان، فيها المدركة، وفيها الغائبة الحاضرة، وفيها التي لن تسمع ممّا يقول شيئًا.

- أنا سكرااااان.

يضحكون، يشبّ واحد من أصحابه:

- طول عمرك سكران.

يلوّح بإصبعه قائلاً:

- لا.. هذا سُكر بعد شوق..

يضحكون مرّة أخرى، فيضحك بدوره، لكنّ فمَه يتقلّص فجأة، ويتصلّب جسدُه، فيسقط بيننا، يستفيق من يستفيق، ويترنّح ناهضًا من لم تزل سطوة الخمر تلفّ رأسه، ولا يدركون من أمر "جلال الدّين" شيئًا، غير الذي صدر من أفواه النسوة، صرخات هزّت صدر الصّحراء البعيدة، ويهتف واحد:

- في الأمر إنّ... في الأمر سرّ عظيم.

لم يكن في الأمر سرّ، هو القدر، ففي اليوم الذي تنجب فيه الصّحراء حياة، تأخذ مكانها واحدة، قال لي الدّليل إنّ الصّحراء صاحبة جميع الأسرار، وإنّها حقًّا إن وَهبت أَخذت في المقابل، لا جديد في هذا الأمر، ولا خلاف.

ولمّا تحرّكت القافلة في صبيحة اليوم التالي، بعد ليلة من اللحم والانبساط والشرب، والحزن أيضًا، كنّا قد دفنّا "جلال الدّين" العراقي في الوادي، وكان أصحابه وزوجه قد انتحبوا عليه طيلة اللّيل، لكنّ معظمهم كان يعرف إنّما تلك شريعة الصّحراء وذاك عُرفها.

11

مضت القافلة في الصّباح تقطع بدن الصّحراء كرمح نافذ لا يحيد لا يمينًا ولا يسارًا، ونفسي بدأت تسأم مشهد الرّمل الأصفر، وحيّرني كيف أخبرني صاحبي أنّ الصّحراء وطن لكثيرين! كيف إنّها قِبلة لهم، تُثمر فيها أرواحهم، وتصفو نفوسهم! أسترجع الوجوه التي طمرها الماضي، بدا أنّها تسربتي الوحيدة تحت الشّمس الحارقة، وأراني أعدو طفلاً وسط السّهول، أفرح بصبح عيد "النوروز"، حيث كانت مدينتنا تُشعل "كاوة الحداد"، ونلتفّ حولها.

(تقولُ الأسطورة، بأنّه في قديم الزمان كان هناك ملكٌ أشوري شرّير سميّ "الضحاك"، كان هذا الملك ومملكته قد لُعنا بسبب شرّه، الشّمس رفضت الشّروق وكان من المستحيل أن ينمو أيّ غذاء، الملك "الضحاك" كَانت عِنْدَهُ لعنةُ إضافيةُ وهي امتلاك أفعيين رُبطتا بأكتافِه، وكلّما نُفقت واحدة استبدلها، وعندما كَانتْ الأفاعي تجوع كَانَ يشعر بألمٍ عظيمٍ، والشيء الوحيد الذي يُرضي جوعَ الأفاعي كَانتْ أدمغةَ الأطفال، لذا كُلّ يوم يقتل اثنين من أطفالِ القُرى المحليّةِ وتقدم أدمغتهم إلى الأفاعي. "كاوي" كَانَ الحدّاد المحليّ وقد ضحّى بأطفاله لأفاعي الملك من ذي قبل، وعندما بلغه خبر أنّ مولوده الأخير بنت، وسوف تقتل فداءً لأفاعيِ الملك، جاءَ بخطة لإنقاذها، وبدلاً مِنْ أنْ يَضحّي ببنتِه، ضَحّى "كاوي الحداد" بخروف وأعطى دماغَ الخروف إلى الملك، ولم يلحظ الملك، انطلت عليه خُدعة الحدّاد، وعندما سمع

الآخرون عن خدعة "كاوي" عَمِلوا نفس الشيء، في الليل راحوا يُرسلونَ أطفالَهم إلى الجبالِ مَع "كاويّ" ويعلمون أنّهم سَيَكُونونَ بأمان، الأطفال ازدهروا في الجبالِ و"كاويّ" خَلق جيشًا مِنَ الأطفالِ لإنهاء عهدِ الملكِ الشرّير، وعندما أصبحت أعدادهم عظيمة بما فيه الكفاية، نَزلوا مِنْ الجبالِ واقتحموا القلعةَ، "كاويّ" بنفسه كان قد اختارَ الضربةَ القاتلةَ إلى الملكِ الشرّير"الضحاك"، بسيف نصله سنّ على جمر أُوقد أيامًا، وكيما تصل الأخبار إلى أناس بلاد ما بين النهرينِ بَنى مشعلاً كبيرًا أضاءَ السماءَ وطهّرَ الهواءَ من شرّ عهدِ "الضحاك". ذلك الصباح بَدأَت الشمسُ بالشروق ثانيةً والأراضي بَدأت بالنَمُو مرةً أخرى).

هذه هي البِداية "ليوم جديد" أو "نوروز" كما كنّا نحتفل به، وعدا عن كون هذا اليوم أول أيّام الرّبيع، فإنه مرتبط بأسطورة "كاوي" - الحدّاد الكردي الذي قاد ثورة ضد الملك الظالم "ضحاك" وأشعل النار على أبراج قصره ابتهاجًا بالنصر، لذلك تعتبر النار رمزًا لعيد "النوروز".

لكنّي تساءلت كثيرًا ما الرابط بين الخرفان وبين الدّم والموت والفداء؟

أثناء عبورنا في الصّحراء، لم تصادفنا واحة واحدة، لذا، وقد أوشكت المؤن على النفاد، حطّت القافلة في وادٍ قُرب سفح أحد التلال، والشّمس لم تزل في منتصف السّماء، وقال لنا الدّليل الكُردي:

- إنّها المرّة الأولى التي نفقد فيها أثر واحة!

قال أحدهم:

- اسأل صاحبك الموبوء.

لكنّ صاحبي وثب نحوه، وفي لحظة وقف قبالته، وصاح:

- وهل تدخّل "الزاخولي" في شئون الرّب؟

- إنّه لعنة وحاقت بنا جميعًا.

- والله ما ملعون غيركم، أنتم من استنفد كلّ الطعامِ والشراب بشراهتكم وعدم وعيكم، مرّة لأجل جوع وعطش، ومرّة لأجل وليد جديد.

دنا منه أحد التجّار وقال:

- لكنّها ليست المرّة الأولى التي تخرج فيها قوافلنا إلى الصّحراء.

وأخذ يستدير بعينيه حوله، وقال:

- كيف أضعنا آبار الماء والواحات؟! خوفي أن تصيبنا اللعنة التي أصابت صاحبنا العراقي!

ثم نظر لصاحبي وأضاف:

- ألست الدّليل؟ ترو، وفكّر أين طريق الواحة!

ومضى النّهار، وجاء اللّيل، وتخوّفت النفوس من الهلاك في صحراء قاحلة، لا ماء فيها ولا زرع، وأوقدوا نارًا، ومن حولنا ظلال الكثبان، ومن بعيد، لاح عواء الذئاب، وقال أحدهم:

- ما أهلكنا شحّ الماء ولا الطعام، وستُهلكنا أنياب الذئاب!

واستطعنا أن نلمح أعين الذئاب على مقربة، وهي تومض من وراء الكثبان الدانية، بدت تتحيّن أن نردم النار، ومن ثمّ تعاجلنا بالهْجوم، وبدأت النار تخبو فعلاً، ونؤجّجها، وكلّما راحت تخفت شعلتها، نزيدها حطبًا، حتّى كاد ينفد الحطب، واستبدّ بمعظمنا يأس، وصاحبي الكُردي

أسقط في يده، واندفع يرميني بنظرات متسائلة، كأنّه يستريب في أمري، هل بتّ لعنة حقًّا؟

وظلّ بعضنا مستيقظًا لحلول الصّباح، ونام آخرون بلا اطمئنان، والذئاب تنتظر، حتّى تفتّق المدى عن ضوء، على إثره، مضت الذئاب بعيدًا موقنة من ضياع وليمتها، والضوء يتسحّب قادمًا، يفرش خطوط الرّمال، فتتألّق ذرّاتها، وبعد أن غفا الدّليل ساعتين ويزيد، نهض وفي رأسه خريطة المكان، صاح:

- لنتحرّك، إنّ الواحة على مسيرة ساعتين لا أكثر.

ونهضت الجِمال، ودبّ فينا الأمل من جديد، ولم نُكمل ساعتين، حتّى أشرفت في الأفق رءوس النخل، فهرعنا نحو الواحة، واستقبلنا أهلها بحفاوة، وكانت لهم في قافلتنا أمانات، وودائع، اقتربتُ من صاحبي الدّليل وملت على أذنه، وقلت له وقد ساورني أنّنا على حدود بعيدة:

- كم يبعد برّ مصر عن هذه الواحة؟

فسمعني شيخ الواحة، وضحك الرّجل وطالع بعينيه الرّجال، ثم قال:

- إنّما أنتم بمصر، أهلاً بكم.

جُرح ثاني
المحروسة

ها هم، هأنذا. الملائكة، الوطن البعيد، الرّماد؛ ها هو، وها هي الشّجرة العجوز، وكلّ الذكريات، والعبث كما لم يكن من ذي قبل. أيّا حسرة!

1

حطّت بي القافلة على مشارف جزيرة "بولاق"، واستطعت أن أدبّر أمري فاصطحبني فاعل خير وراءه على حماره إلى قلب المدينة، راعني ارتفاع المباني وبهجة النّاس وتكدّس الشوارع بالبشر كصفوف تجري من نمل، كان النّاس يمشون جماعات، الغريب أنّهم كانوا يتجاذبون أطراف الأحاديث وهم سائرون، وكانت القاهرة عامرة بالمقاهي والونس، ومترعة بالحدائق والجنائن، وأجراس الكنائس تطنّ حولي، إنّما كانت سحابة من غيم تفرش وجه السّماء هذا النّهار، وكان فاعل الخير كلّ حين يشير لي نحو مكان، ويقول:

- هذا مصنع النّسيج، هذه مصر القديمة، وهذه قلعة قريبكم "صلاح الدّين"، وهذا تمثال فلان، بنوه حديثًا، وهذا.. وهذا..

رحت أتأمّل الأماكن من حولي، وقلت لنفسي: ما بال وطني ضاع وتلك الأوطان كأنّ الحرب لا تعرفها!

أيّامًا قضيت في رحاب مسجد "الحُسين"، كان المسجد مرفأ حميمًا للأولياء ومَن لهم عند الإمام حاجة، كذلك كان مستقرًا لأولئك الذين أهدروا المأوى، أو من لا مأوى لهم من الأساس، تنتشر حوله المقاهي بروّادها، هؤلاء يتحدّثون في كلّ الأمور، الدّيني والاجتماعي، والسياسي، عرفت عن طريقهم أنّ الأوضاع السيّاسية في البرّ لا تبشّر بخير. منذ عامين، رُفعت الحماية عن مصر، واستقلّت، وإن لم يتمّ الاعتراف

بذلك دوليًا، بريطانيا فقط التي اعترفت بهذا الاستقلال، مع التحفّظات، وتبدّل لقب "فؤاد" الأول من سلطان، إلى ملك "مصر" وسيّد "النوبة" و"كردفان" و"دارفور"، رغم ذلك، فالأوضاع السيّاسية باتت خطرة، كان ذلك يجري أمامي، ووفق ما يقدّر لي فهمي، أحاول ترجمة الوضع، وأدركت أنّه قامت ثورة منذ سنوات، وقلقلت الوضع السياسي، ونُفيَ زعيمهم "سعد زغلول"، لكنّه جاء بداية هذا العام رئيسًا لوزارة شعبية تمّ ائتلافُها، إنّما ما زال النّاس يتحدّثون عن الملك "فؤاد" وفي نفوسهم توجّس، خصوصًا أنّه طالما هادن الإنجليز، واصطدم بالحركة الوطنية.

- ولو..! وما الذي سيفيدنا بإصدار قانون تنظيم وراثة العرش؟! في النهاية هذا القانون خاص بأسرة "محمّد علي"، وسيبدّلون العرش حفيدًا بعد ابن!

- يكفي أنّنا استقللنا.

- لا، رُفعت الحماية فقط، الاستقلال الحقيقي لم يأتِ بعد، يكفي أنّنا ننصاع للمندوب الباشا السامي، الإنجليز سوس ينخر في عظم مصر.

لم أكن ضالعًا في هذا الشأن، لأنّي لم أتهيّأ لاستقبال وطن جديد، كان الذي يحيّرني في هذا البرّ هو جموح النّاس نحو التغيير، حدّ الهوس، الأدهى استجابة السلطة لبعض المطالب، وإن كانت مطالب شحيحة!

في البدء، رحت أجاهد تفسير اللهجة التي يتحدّث بها عموم النّاس، مع الوقت، أدركت منها ما أعانني، وكنت أُقيم أودي على كسرات من الخبز، لم يكن لي عناء في جمعها، كلّ من كانوا يتدثّرون برحاب المسجد يجدون الفتات، على الأقلّ، تأتينا النفحات من المحبّين، يصرّ كثيرون

منهم على عدم الإفصاح باسمهم، إنّما استراب أغلبهم في هويتي، وجالسني أحدهم ذات مرّة، وقال:

- شكلك غريب!

- نعم.

- من أيّ بلد جئت؟!

لم أعرف كيف أصف له حدود وطني ولا بلدي، غامت عيني ثانية في بحر الدُخان والرّماد والحريق، لكنّي قلت:

- أنا كُردي.

- آه.. لقد غزا الأكراد برّ مصر، تخيّل يعملون في الصّحافة والفّن والأدب!

ثم أضاف:

- سوري أم عراقي أم إيراني؟ سنّي! شيعي! مسيحي!

- بمَ سيفيدك أن تعرف؟!

- الفضول لا غير، نتعرّف يا أخي أقلّه!

- أنا كردي سنّي.

أذكر أنّ أحدهم قد وضّح أمامي من ذي قبل أنّ البلد تعجّ بالمخبرين، درجة أنّه وصف الأمر بأنّك إن جلست على مقهى، فثق أنّ حول كلّ منضدة مخبرًا، لذا، شكّكني فيه أسئلته وفضوله، غير أنّ هيئته لا توحي بذلك، وإن كانت النيّات مطمورة في النفوس.

- لكن كان مالكم ومال الحرب؟! أنتم مسالمون على ما أسمع!

- أنت لا تستدعي الحرب، هي تأتيك غصبًا، إنّه القدر.

عرفت منه بعد ذلك أنّه شاعر، يكتب في بعض الجرائد المحليّة، وقد أتاني ببعضها، فاطّلعت عليها، وأعجبت بما يكتب، واطمأننت إليه قليلاً.

وخلال وجودي في ساحة المسجد، كان يتردّد عليّ، وجاء أكثر من مرّة، فتعرّفت إليه أكثر، اسمه "مصطفى"، ويعمل صحفيًا.

وكان يشرح لي ببساطة ما يدور في هذا البرّ، كان يتحدّث عن عادات النّاس، وجنونهم، صمتهم وتخاذلهم.

- اضمن أنّه كلّما انغرست شوكة الحكومة في بدن الشّعب واحتدّت، انكسر وصمت، القمع قاتل في هذا البلد.

وكنت أومئ برأسي وأستمع، إنّما أنا وافد لا أدري، ولا أكترث في الحقيقة، أهمّ ما يعتري تفكيري هو البحث عن مأوى، وعن عمل.

وحضر لي ذات مرّة، وفي يده جورنال، كان وجهه يربد مكفهرًا، وجلس جواري أرضًا، وهو يزوم:

- طيّب أنظر.. سعادة الملك المبجّل يريد إقالة حكومة "سعد زغلول"! ولم يمض عليها أشهر!

حاولت أحاوره، إنّما كانت حجّتي ستبدو واهية أمام ثقافته ووعيه ببلده، هو أدرى! لست إلاّ وافدًا مشرّدًا لم يزل يبحث عن مسكن وعن عمل، غير أنّي قلت:

- تجيء حكومات وتروح حكومات ويبقى الملك.

- لا لن يبقى الملك، يومًا سوف تتبدّل مصر ويصبح شعبها قادرًا على تحديد مصيره.

- أيّ مصير! إنّ الشعوب مجهولة المصائر.

- مثل هذه النبرة هي التي أفقدتنا الأوطان.

وددت لو أقول له اسألني أنا عن فقد الوطن، لعلّ الوطن لن يعدو كونه أكثر من حلم عابر، ربّما لكثيرين، والكُرد منهم، تمزّعوا على دول ودول، كأنّهم شعب الله المسخوط عليهم، عزلتهم جدران القمع داخل أحلامهم، وأصيبوا بالخرس، حوصروا داخل سهولهم الخضراء وبين الجبال، مثل الجرذان حقيقة، وبات وطنهم متاهة، وكلّما احتجّوا تلاشى الوطن أكثر، داستهم أقدام الغرباء، حكمتهم أجناس وأجناس، واستباحوا بلادهم، ولم يسمحوا لهم حتّى بالشكوى، يا لها من مهزلة تاريخية!

وكان "مصطفى" يقول:

- تخيّل أنّ الملك سوف يؤسّس جهازًا في البوليس اسمه البوليس السياسي؟! بحجّة أنّ هناك مؤامرات تُحاك ضدّه وتهدّد حكمه! أيّ عبث! أيّ عبث!

وبدا منفعلاً، وكنت أثناء ثرثرته أشرد حينًا، فيتلقّفني ثانية وهو يزعق:

- هذه البلد يحكمها الأمن، حكّامنا من يومهم يخافون على أنفسهم، يعرفون أنّهم في ضلال، فيحاولون حماية عروشهم بشتّى الوسائل. إنّها إرادة كلّ حاكم ورغبته في الحماية واستمرار نظامه، لذلك يحرص كلّ واحد منهم على تخصيص فئة من رجال الشرطة لملاحظة ومراقبة المواطنين الذين يخشى من تصرفاتهم، وعلى رأسهم المثقّفون

والصحفيون، تخيّل أنّ البوليس المصري ضبّاطه أجانب! هل تعرف كيف تغلغل الأجانب في تنظيمات البوليس المصري؟ عام 1857، أصدر "محمد سعيد" باشا، والي مصر ساعتها، قرارًا بإصدار اللائحة العمومية فيما يخص ترتيب وضبط الأهالي الأجنبية، خوفًا عليهم من الشّعب الغوغائي! والتي نصت على إحداث قلم مخصوص في كل من ضبطيتي جهاز أمن القاهرة والإسكندرية، واختصاص هذا القلم بترتيب الحراسات، ويباشر بنفسه إجراءات تفتيش الفنادق والمنازل المعدة لإقامة الأجانب، كما بدا أيضًا هذا واضحًا منذ عصر الخديوي إسماعيل، عندما اختلف مع الأمير فاضل وبعض أمراء العائلة المالكة وخشي على عرشه منهم وبدأ يتجسّس عليهم ويتلقى تقارير عنهم.

وكوّر في قبضته الجرنال، وهو يتمتم:

- يبدو ألاّ مكان للشرفاء في هذا البلد!

وشخص بعينيه قليلاً وجهة السّماء، ثم استدار نحوي ثانية وهو يقول:

- بصّ يا كُردي، تاريخ بلدنا مليء بالدسائس والمكائد والجبروت.

قلت له:

- لكن ألا تخشى على نفسك من هذه المجاهرة العلنية بالمعارضة؟ أنت تقول أنّ منهج البوليس هنا هو القمع!

- البوليس! هه! أتعرف أنّه عقب قيام الثورة العرابية أصبح في جهاز الشرطة مسئولون، ولم يكن لهم اسم معين، واختصُوا بتعقب العُرابيين والتعرف على أسرارهم، ومع تولى توفيق أصبح هناك جهاز يختص بالأمن

السياسي وكان يركّز جهده على الحدود بين مصر والسودان، وبعد قيام الثورة المهدية سُميّ بجهاز أمن الحدود!

ثم أضاف:

- لنا تاريخ مع القمع يا كُردي!

وتفقّد حوله ضمانًا لعدم وجود مخبر، ثم أشار لي بسبّابته فاقتربت منه، وهمهم:

- لكنّ الأمور ستتغيّر، أنا واثق من هذا، ثمّة عواصف تأتي منذ اغتيال "بطرس غالي" رئيس الوزراء، تخيّل أنّها كانت أول حادثة اغتيال سياسي!

ثم سكت قليلاً بعدها قال:

- الخوف أنّ خطّة تقسيمنا لها أكثر من تأويل وأكثر من متآمر!

قلت:

- أنت تعرف الكثير في هذا البرّ حقًّا!

- تلك مهنتي، أنا صحفي، والأهمّ أزعم أنّي وطني مخلص.

استأذنته ونهضت، نهض بدوره واتّجه يجلس على مقهى قريب، وكانت حمائم تهدل من ناحية مئذنة المسجد، كان نور الشّمس يبزغ من ورائها، وينزل في السّاحة أمام الباب الرئيسي فتتطاول ظلال السائرين وتترنّح حولهم، ويحتضن - ضوء الشّمس - الباعة الجالسين بفرشهم أمام المسجد، كان معظمهم سودانيين، وكان هذا غريبًا، لأنّ أحدهم لم يكن يُجهد نفسه مع مشتر، كانوا يجلسون مقرفصين ويهشّون وجوههم سواء كان ثمّة ذباب أم لا، ويتركون السائرين يفتّشون بين بضاعتهم

عن بغيتهم، كانت البضاعة عبارة عن أعشاب طبيعية وبذور ودهانات للجسم، وأكياس السّكر نبات، ومسواك وحبّة البركة وجوزة الطيب، وبعد قليل، سمعت جلبة، وصفّارات، وكانت قوّات من البوليس تقتحم المقاهي، وتكسّرها، صدقت يا صحفي، كان البوليس هذه السّاعة يضرب كلّ سائر على قدم، كلّ سائر.

2

طيور تعانق هلّة الصّباح، ونداءات الباعة تتردّد في الفضاء مثل بوق عظيم، وصداها يغلّف الأجواء، وكانت نفسي قد ائتلفت قليلاً مع رُوح المكان وإن كانت الفوضى والهزيمة التي لاقيتها في وطني المُهدَر قد تمكّنتا من اتّزاني، كانوا يجدونني جوّار حمّام المسجد جالسًا بالساعات أنتحب، لم يكن أحد ليفهم طبيعة وجعي، وليس فيهم من يُمكنني أن أحدّثه عن مسار هذا الوجع، الذي كان ينمو يومًا بعد يوم، وتحوّل إلى شجرة مورقة داخل رُوحي، ظنّوني مجذوبًا من مريدي المكان، ومع هذا الافتراض أُهملت، ككلّ مريدي الجامع، كما لو أنّي الاستكمال المنطقي لجغرافيا المكان، ولم يعُد لي شغلة غير أن أنظّف حمّامات المسجد، وأُمنح مقابل ذلك حفنة نقود مِن المصلّين. وكنت أحيانًا أضع صرّتي على كتفي وأتجوّل في الأسواق، وبين دروب المدينة، وأتفقّد معالم البيوت القديمة، المطهّمة بتشكيلات الحجر والنحاس، ألفّ على قدميّ الشوارع، المليئة بدخان الشواء وعبق العطور، أراقب النجّارين والمنجدين، وأقف طويلاً أمام الحوانيت، عسى أن يفتح لي الله باب رزق، أتمشّى في أحياء القاهرة، يستهويني مطالعة المساجد والبيوت الأثرية، بألوانها الكالحة ما بين البنيّة والرمادية، أطالع زخارفها، وشرفات المنازل الحجرية، وأفاريز الحديد، وما أكثر ما كنت أصادف حبيبين في حديقة، أو جالسين في انتظار الترام، وكانت روحي تستأنف مثولها للألم، وتدور رأسي، فليس يعرف معنى الفقد إلاّ من فقد وطنًا

بأكمله، بكلّ تفاصيله ومفرداته وذكرياته، كيف للذكريات أن تُفنى في حرب غاشمة! وكنت كثيرًا ما أحاول أن أطهّر رُوحي من ظلال الماضي، دون جدوى، كأنّ الماضي يُستحضر بلا عناء، تلقائيًا.

وكنت أثناء تجوالي أبحث عن عمل، طرقت أبواب الحدّادين ومحلات الأقمشة والعطارة، ودكاكين بيع الخرز والغلال، والمدابغ ومستوقدات الفول المدمّس والمسامط، لم أترك مكانًا لم تدبّ فيه قدمي، ذهبت إلى تخت شرقي في قلب خمّارة، واستهزأ بي روّاده، فطنوا أنّي مجذوب يدور الحواري والأزقّة، وطفت يومين أو يزيد حتّى أرهقني الطواف، دون طائل، رغم ذلك، كانت طاقة من الألفة تلضم دروب وحواري وأمكنة القاهرة، وقبعت حينًا في محيط مسجد السيّدة "زينب"، قلت في السعي رزق. وكانت المظاهرات ضدّ الإنجليز مشتعلة في جميع الميادين والسّاحات، ورأيت بعينيّ الطلبة وهم يُطاردون ويُضربون بالعصيّ وبالرصاص، وتوزّع المنشورات ليلاً، والبعض - ممّن تقودهم الحماسة - يوزّعونها جهارًا وفي وضح النّهار، وكانت أنباء القتلى تترامى إليّ كلّ ساعة، أدركت أنّ من يعاقر شوارع القاهرة ودروبها سيعرف أكثر عن حوادثها ومجرياتها، وغير مرّة تجرفني المظاهرات في تيارها، إنّما سرعان ما كنت أنسحب بعيدًا أخشى على نفسي، إنّ البوليس لا يعرف الهون في القاهرة، وبدأت تتكشّف لي أمور، منها أنّ قطاعًا عريضًا من النّاس، أظنّه قطاع الموظفين الحكوميين والأرزقية، كانوا لا يرتضون وضع الملك، ولا الإنجليز، وقد انضمّ لهم بعض التجار الموسورين، وكانت الحركات الطلاّبية تُشعل حشاش البلد، وكانت القلقلة قد بلغت مداها، في خضّم ذلك، وأُهلك كثيرون في سبيل أن يتحكّم الإنجليز ولا

ينفلت زمام الأمور، وكان الملك يُبارك قمع البوليس البريطاني للشّعب، ومن الغريب أنّ المصريين لم يكن شيء ليثنيهم عن إشعال الاعتصامات والإضرابات، وأثناء ذلك، صادفت صديقي "مصطفى" الصحفي يقود إحدى المظاهرات، فاستوقفته، لكنّه مضى مبتعدًا، وعاد لي بعد قليل، ووجهه محتقن، وقال:

- يا كُردي! ألا ترى أنّ الشّعب يثور مجدّدًا؟

فقلت:

- رأيت البوليس يضرب رصاصًا حيًّا.. أخشى عليك.

فضحك، وقال:

- فلتخش على نفسك، إنّنا لا نخشى لا الرصاص ولا القمع، لابدّ أن نحرّر مصر.

- لا أظنّكم قدر الإنجليز.

- سوف ترى.. سوف ترى.

وجرى ثانية يتلاحم مع جموع المتظاهرين، وتعلو الهتافات المطالبة برحيل الإنجليز، وتتموّج الشوارع بالنّاس وتحتشد، يردّدون الهتافات المحتجّة، وقوّات البوليس تحاصر المظاهرة، بوليس إنجليزي ومصري، وكانت جموع من العمّال والطّالبات تتوافد من منافذ الميادين، وأخذ البوليس يصدّهم بدروع حديدية وعُصيّ، وكان الضبّاط الإنجليز يتنقّلون بأحصنتهم من خارج الميدان في توتّر وقلق ويرتدون الطرابيش الحمراء، ويبرطمون، والمظاهرة تفيض جموعًا، ثم بدؤوا يرمون

المظاهرة بقنابل الدُخان، فدُرت بقدميّ وهرولت بعيدًا، كدت أختنق وأنا أرى مشهد الدُخان يتكرّر من جديد.

عُدت إلى محيط "الحسين"، واستطعت أن أخلق لي فسحة جوار شجرة "كافور" عملاقة تظلّل ساحة المسجد، كانت شجرة عملاقة لكنّها عجوز، تهدّلت أغصانها واستحوذ عليها التغضّن والكِبر، فرشت لي فرشة وكنت أنام عليها حين يأتي اللّيل، وفي النهار أستكمل دأبي في الشوارع بحثًا عن عمل، كان الكثيرون يتحفّظون عندما يعرفون أنّي كُردي هجَ من بلده ووفد إلى برّ مصر حديثًا، لا أدري ما الذي كان يوجّس أنفسهم تجاهي! كانت هيئتي تليق بهيئة مجذوب حقيقي، إنّما لم يكن لي يد في اختيار هذا المصير، وليس لديّ الترف الذي يؤهّلني لاستبدال هيئة بغيرها، وكنت لمّا أعود للشّجرة، وأغفو تحت جذوعها، أراها تخاطبني، أكثر من مرّة لم أكترث، غير أنّي لم أجد إلاّ مثل محاورة الشّجرة تسرية، حكيت لها عمّا جرى في الوطن، وشعرت بها تتوجّع، بل وشعرت أحيانًا أنّ لها دمعاً، وكان يحلو لي معاقرة مثل هذه الفرضية في وقت المساء، كانت المقاهي القريبة تشغي بالروّاد، لكنّي مريد للذكريات، وكلّما انصرفت نحو الشجرة العجوز الرّاقدة هناك؛ صديقتي، الرّاقدة تظلّل آخر بقعة من فضاء السّاحة، عاودني إحساسي بالاغتراب، هي شجرة أوجاعي، ففي رحم ذاكرتي، يسكن البرد، والظلام، وتسكن أوجاعي. أجلس تحتها، لا أشعر براحة ولا اطمئنان، تسلّط عليّ الأوجاع، لكنّي استطبت هذا منذ زمن. أدور حول الذكريات، تصطدم عيناي بالحجارة المبعثرة، والدُخان والرّماد والخراب والأسى، ويعترض خيالي نفس الصوت القادم من غياهب الانفطار، همس بنت العمّ التي

تبدّدت في مجرى الزمن، تنطلق من صدري شرارات التأسّي، وتنطلق أفكاري تفرّ في ملكوت الظلام، وأجد نفسي أتساءل في حسرة: ماذا أنا فاعل بنفسي؟ أأخنقها؟ أأحطّم رأسي فوق بلاط السّاحة؟ لا بأس من إزهاق الروح عمدًا طالما أنّي فاقد كلّ أمل في هذه الحياة!

لم تكن تتحرّك أفكاري لا للأمام ولا للوراء، فقط أجالس ظلّ الشجرة العجوز: شجرة أوجاعي، يساورني ذلك الفراغ العظيم، أحرّك قدميّ أداعب ظلّي البارز عن ظلّ الشجرة، والذي يمدّده الضّوء الشحيح الساقط من عبّ السماء فوقنا، تميل شجرة الأوجاع بأغصانها، ويردّد الكون من ورائي معنى الفقد، تنطلق آهتي وتتراقص شجرة الأوجاع في جذل مرير، تتمايل جذوع الألم فيها، ثم يتقاطر منها دّم، وتئنّ.. تئنّ.. تئنّ شجرة الأوجاع حين تذهب آهاتي بفؤادها إلى وطن الحقيقة، تئنّ الشجرة وأدوخ، تنطلق الآهات أكثر مخترقة جدار الزمن، فتتمثّل لي البعيدة، ويتناغم صوتها الهامس مع آهاتي، ليجاوز الأوجاع جميعها، ولا أشعر إلاّ حين تنطبق السماء على الأرض، تنطبق دوني ودونها، آه يا أرض الذكرى، كم أنّ رائحة الحقيقة مسكرة حقًا!

شجرة عجوز! وألم هارب من ثنايا الذكريات!

لم أزل أرى يا شجرتي الضباب والحريق، والجبال والسّهول، وصفير العصافير، أرى شظايا من دّم ولحم، خلفها الدُخان، والذكريات، خلفها تطير الملائكة، تلاحق المأساة بأجنحة من رماد، خلفها البيوت والناس والنجوى والرجاء، وعلى الله الاستجابة، الدُنيا جانبان، جانب مضيء، وآخر مظلم، تُرى هل يرى الله جانبها المظلم؟

شجرتي، أتعرفين لمَ لا يستقر قلبي على وطن؟ فقلبي هناك، وما زلت!

شجرتي، هل يأبه أحد بحكايتي؟ الحكاية - أنظر يا الله - بلا نهاية، والملائكة في الأعلى ترفرف، بأجنحة من دُخان، وكما أنّ لكلّ قدر أسطورة، فأسطورتي حكايتي يا شجرة يا عجوز.

الوطن يتّجه نحو الغروب، نحو المغيب، نحو الفناء، الحكاية لا تبدأ فقط، لا توجد نقطة بداية، يوجد عدم، الحكاية عدمية، تمامًا، تدور الحكاية، الحكاية وجهان، لألم وحيد، و"مَدّ" سارحة، والملائكة ترفرف، والأجنحة رماد، والرّماد هو الحقيقة، والحقيقة حلم، حلم يا شجرتي العجوز، وللحلم أسطورة، وللحقيقة أسطورة، وللأسطورة حكاية، وللحكاية وجع، وللوجع ذنب، وللذنب رّب، وللرّب عتاب، عتاب يا شجرتي!

أجل، الأقدام حولي، أجل والموتى، الأقدام تسير، للا نهاية، الأقدام حولي، واللحظة مخادعة، مراوغة، والوجوه ضباب، والبؤس مصيري، واللعنة، الأقدام حولي، وقدمي تتعثّر، حكاية مكرّرة، القدر يتكرّر، في حدّ ذاته، إنّ الله كان ظالمًا حين خلقنا بلا أجنحة، حتّى ولو أجنحة من رماد! لكنّا استطعنا أن نرفرف بعيدًا عن الحرائق والدخان والحرب، كم أحسد الملائكة! مهما حاولت أن أفتعل النسيان، فإنّ القدر نافذ، أرى أمّي تودّعني بنظرة أخيرة، أحاول أن أضمّها ضمّة أخيرة، بلا جدوى، تنظر لي، وتستكمل احتراقها، أرى "زينب"، وأبي، والوطن ينزل نحو المنحدر، أمام عين القدر الضرير، الأقدار لا تلعب مع البشر، ولا تمرح، الأقدار تأكل البشر، تلتهمهم، بلا رحمة، تحرقهم، عودي يا حبيبتي، يا بنت العمّ، لا.. سوف يأكلك القدر، عودي، لماذا لم تخلقنا ملائكة يا الله؟ ولكنّي سوف أطير، ربما بعد فوات الأوان.

"زينب" - قلت. ولم أزل أقول، لم أزل أصرخ.

وطرت يا شجرتي، طرت في آفاق العدم، أأدركتِ يا شجرة يا عجوز كيف طرت؟ طرت وأنا أنثر روحي أجزاءً تلملم أشلاء الوطن التي تمزّقت في الفضاء، طرت ورأيت التفاصيل رمادًا، الملائكة رمادًا، الذكريات رمادًا، رمادًا أحمر، بلون الدّم، نحن مجرّد رماد، عرضة ريح يا شجرتي، لكنّنا مخضبّون بالدّماء، تاريخنا - ذاته - غارق في دماء، الهوى دَم متخثّر، فاسد، الأمل دّم، الدموع دَم، الذكريات تشخب كدّم مُراق، أيا حسرة! أجل يا شجرتي العجوز، أجل احترق أهلي يا شجرتي، وماتوا، لكن ليس ككلّ شيء يموت.

3

لم أعُد أدري سرّ تحجّر الزّمن؟ بدا كلّ شيء مثل عهد غابر، انطوى في عباب التاريخ، وبدا الزّمن لا يتحرّك، جامدًا أسيرًا. أقوم من مكاني تحت شجرة "الكافور"، أمشي موليًا ظهري لفضاء الظهيرة، والشّمس ساخنة، والشّوارع بحر يتلاطم من أقدام البشر، ورأيت المشرّدين ينامون مبعثرين فوق بلاط الميادين، يحتمون بظلال الحمير والجِمال، ويغطّون وجوههم بمناديل قطنية، واندهشت كيف استطاعوا أن يظفروا بوقت قيلولة وبمثل هذا السّلام في ظلّ هذا القيظ؟ وحدي إذن عاجز أنا عن جلب السّلام إلى نفسي، وبدا لا مهرب من استدعاء كلّ الوجوه، تطلّ أمّي من طاقة في السّماء، ومن ورائها "زينب"، فأبي، وأختي "مَدّ"، وأراني وفي يدي مؤنة ترميم الجدران، أبلّط بها يدي، ثم ألطع بها جدران بيتنا، وتحاصرني - ثانية - مشاهد الماضي. أرمي نفسي فوق حشائش السّهول، وأبي يحشّ برسيمًا للغنم والجاموس، ويداعبني من بعيد، وهو يلقيني بشذرات من الحشائش، وأختفي وراء قامات الأشجار، فيبحث عنّي، ولمّا يجدني، يحملني فوق كتفه، ثم ينزل بي أرضًا، ونتمرّغ سويًا فوق العُشب الأخضر، ويغطّينا ندى الصّباح، وتبدو سحابات الخريف قادمة من خلف جبل طوروس العظيم، الذي لم يكلّف نفسه عناء حمايتنا.

أرانا نجري ندهس بأقدامنا نباتات ضفّة النّهر، نتسابق كلانا وفي أيادينا صنّارة الصّيد، يقول أبي:

- سيكون صيدي ثمينًا هذا اليوم.

- حججك لا تخلص يا أبي، منذ متى صدت صيدًا ثمينًا؟

- سوف ترى بعينك.

- هاه، لن تغلبني مهما تمنّيت، دائمًا ما تكون غنيمتي من الماء مثليّ غنيمتك وأكثر.

- الصبر نفسه غنيمة تستحق.

- اصبر أنت، أمّا أنا، فسأفرّ من فوري كي نلتهم السّمك اللّذيذ.

- لا ألذّ من متعة المباراة!

- الشبل كعادته سيهزم الأسد.

- والأسد يظلّ أنجب الشّبل الذي سيهزمه!

- لو سمعتك أمّي!

- ستمصمص شفتيها كعادتها وتقول...

وتمثّل أبي نبرة صوت أمّي وأكمل:

- حسرة عليك يا "إمام"، أسنانك وقعت وتقول أسدًا، طيّب تعال يا أسد رمّم هذا الجدار، تعال يا فالح.

ونضحك، وأمّي كانت إذا تنبأت بشيء يحدث، وكنّا نسخر من نبوءاتها، وقد حلّ بنا حقًا الهول الأكبر من جميع نبوءات أمّي، جاءنا وحش الحرب، اللّعنة التي أبادت الكُرد، إنّما هل أتانا يا أمّي ما نستحق؟ هل كانت أجسادكم تستحق أن تحترق سُدى؟

4

ليل "القاهرة" أشدّ حلكة من ليل "كردستان"، ضوء القمر شاحب وتغطّيه أقنعة مسدلة من غيم، إنّما برد "كردستان" أعظم، وأشدّ، كنت أتدثّر خلال ليل الشّتاء في القاهرة بأسمال ممزّعة، ولم أكن أشعر ببرد ولا صقيع، وقد قضيت هذه اللّيلة مفكّرًا، كان معي موعد في الصّباح مع أحد السماسرة معرفة "مصطفى" الصحفي، وعدني أنّه سوف يجد سبيلاً للعمل، وفي المقابل سيتقاضى منّي ريالاً، قلت له أنّي لا أملك الريال، لكنّه طمأنني وقال اعتبره دينًا وسدّده على أقلّ من مهلك.

ولمّا بدأت العصافير تتحرّر من أغصان الشجر، والشّمس تنفذ متخلّلة شقوق البيوت، والحوائط، وأفرع الشّجر، هلّ "مصطفى"، ومعه السمسار، كان السمسار آتيًا يركب حمارًا، حدّق فيّ ببلاهة، واستدار نحو "مصطفى"، وهو يصيح:

- يا خبر يا أستاذ! تريد شغلانة لهذا الرّجل!

- وماله هذا الرّجل يا عمّ "سِكيّ"؟

- طيّب ماذا يُمكن للمجاذيب أن يشتغلوا يا بك؟

- يا سلام! ومن قال لك أنّه مجذوب؟

- وحقّ لا إله إلاّ الله مجذوب! بصّ منظره!

- استرح أولاً.. استرح.

واصطحبنا لنجلس على مقهى، جلس "سِكيّ" وتجشّأ، ثم طلب "جوزة" و"زنجبيل"، تأمّلته لا أصدّق أنّه سمسار عمّال، وكان "مصطفى" ينظر لي كاتمًا ضحكة، تجشّأ ثانية في وجهي وهو يقول:

- يا أستاذ أنا أحتاج أنفار مبان، عمّال تراحيل، نقّاشين، حدّادين، نجّارين، صنايعية، فهل يفهم صاحبنا هذا في مثل هذه الأعمال؟

- نجرّبه.

- لا يا بك، نجرّبه ويفضحنا وأخسر سمعتي وسط النّاس، يرضيك أخسر سمعتي التي أسترزق منها؟!

- لا يرضيني طبعًا.

- طيّب، أمال مالك؟ حسبتك تتوسّط لواحد من أصحابك ضاقت به الحال، اسمع يا بك...

وتجشّأ ثالثة، فقمت من جواره وجلست جوار "مصطفى"، فهبّ يصيح:

- تكون قرفان منّي لا سمح الله يا مولانا! هه! ما تبصّ لنفسك! أنت تقرف بلدًا.

تمتمت:

- أستغفر الله العظيم.

احتدّ أكثر:

- تعال خذ لك قلمين يا عمّ الشيخ، تعال والنبي.

نهضت، وقلت لـ"مصطفى":

- أشكر لك سعيك من أجل الخير يا أستاذ "مصطفى"، بارك الله فيك، أستأذنك.

لكنّه شدّني من كمّ الجلباب، وقهقه قبل أن يقول:

- عمّ "سِكيّ" رجل طيّب، اجلس يا عمّ "زاخولي" وامسحها فيّ.

ردّد "سِكيّ":

- زا.. ما.. زا.. خو...

فقهقه "مصطفى" أكثر، وانفجر وكاد يقع من يده كوب الشاي بالحليب، وقال:

- "زاخولي" كُردي يا عمّ "سِكيّ"، أتحسبه مصريًا! الحرب فقط هي التي دفعته ليترك بلده ويهاجر إلى برّ مصر.

سألت أبي لمَ سمّاني هذا الاسم ذو الوقع الغريب، لكنّه بسط كفّه على رأسي وقال:

- هل تعرف أنّ جدّك الكبير اسمه "زاخولي"؟ طيّب هل تعرف أنّ "الزاخولي" إمام عظيم من أئمة السنّة وكان له باع في الدعوة، لا يبقى لنا يا بني في هذه الحياة غير التمسّك بالسلف، السلف هم من سيعبرون بنا لبرّ النجاة.

قال "سِكيّ":

- كنت قلت هذا من البداية يا أستاذ.

ثم استدارلي يقول متأسّفًا:

- سامحني يا كُردي، والنبي يا ولدي أحسبك مدعوقًا من مداعيق "الحُسين"، عمّك شاف منهم الويل والله.

وجرع آخر رشفة في كوب "الزنجبيل"، ثم مضى يفكّر، وهو يشدّ من فمّ "الجوزة" أنفاسًا، ويتجشّأ، ثم قال:

- اعذرني يا كُردي، عمّك مريض.

وشخص ببصره ثانية، والتفت بعينيه نحوي، وهمهم:

- عندك كم سنة يا كُردي؟

- ثمانية عشر عامًا.

- أمممممم.

واستدار إلى "مصطفى" يقول:

- طيّب اسمع يا بك، أنا سأخدمك، ولوجه الله، هنا في المحروسة لن يجد صاحبنا الكُردي عملاً، أنت تعرف ظروف البلد، والتجّار خائفون، ويشكّكون في كلّ غريب، خصوصًا الكُرد، لعلّك سمعت عن موضوع المشخصاتي "يوسف وهبي"، الملك بنفسه ثار وقال حتّى الكُرد يأتون مصر ويشتغلون مشخصاتية كفرة.

ووجّه لي الحديث:

- افهمني يا ولدي، ما باليد حيلة، ليس أمامك غير الصعيد.

صاح "مصطفى":

- الصعيد يا عمّ "سِكيّ"؟!

- أمال يا أستاذ، النّاس هناك غلابة، ولا توجد مظاهرات ولا يوجد وجع قلب.

قاطعه "مصطفى":

- عال والله، المظاهرات أصبحت وجع قلب!

قال "سِكيّ":

- أمال يا سعادة الأستاذ، وقف حال بعيد عنّك.

- ما علينا.

- اسمع يا كُردي، لي سمسار حبيبي في "الأقصر"، اسمه "بنداري"، له غُرزة صغيرة جوار المحطّة، سأرسلك بجواب له، وبإذن الله خير.

وهمّ ينهض، لكنّه لوّح بسبّابته قائلاً:

- خدمتي لك أن أذهب معك إلى محطّة القطار، من أجل عيون الأستاذ، لكن أمانة عليك لا تنس أن تعطي "بنداري" الريال، لا تحرجني مع الرّجل.

فضحك "مصطفى"، وأكمل "سِكيّ":

- جهّز نفسك، من طلعة فجر باكر أكون عندك، أفوتكم بعافية.

وامتطى حماره وودّعنا بسلام حار، وكان حماره يخب على طول الطريق، تابعته بعينيّ وأنا شارد، فانتشلني "مصطفى":

- اتركها على الله.

ثم دسّ يده في جيبه، وأخرج ريالين، ناولني إيّاهما وهو يقول:

- أمانة عليك يا كُردي ما تنسى ريال "بنداري".

وابتسم ملاطفًا وهو يدگّني في كتفي، تملّيت في النقود، ونظرت له بامتنان وأنا أقول:

- مردودة يا أستاذ "مصطفى"، مردودة.

وفكّرت، هل يُمكن أن يجنّد الله أحدًا في مثل هذه الظلمة الحالكة؟ تحديدًا وسط ظلمة الرُوح!

5

توسّدت غصن شجرتي، ونمت، عساني مدفوعًا بهذه الرهبة من عبوري برّ لبرّ، وبلد لبلد، لم أكن أعرف الصعيد، ولا "الأقصر"، لكنّ "مصطفى" وضّح أنّها بالقطار "القشّاش" مسيرة يوم، تراءت لي الأوهام، والأحلام معها، ثم استفقت من نومي على هاجس لئيم، خاطبت شجرتي بشأنه، ولم تردّ، قلت لها: سوف أكتب رسالة إلى وطني، إلى أهلي، إلى الموتى، بل للموت نفسه.

لم أكن مخبولاً، ولم أعُد أمتلك أملاً، لكنّي أُخذت بهذا الباعث المفاجئ، ونهضت لا ألوي على شيء، قلت في نفسي: يومًا كتبت رسالة إلى الله ولم يجبني، لعلّ الموت يجيب.

وسرحت قليلاً، ثم شرعت أكتب.

(سيّدي الموت، لعلّ الذي دفَعني أن أكتُب إليكَ مثل هذه الرسالة هو هواجسي وعدم احتمالي، أجل يا سيّدي، لم أعُد أنام، وطالما قرّرت كتابة رسالتي تلك بكلّ صدق، فإنّي لابدّ أن أعترف كذلك، أنّ كافةَ البواعث أصبحت جامدة تجاه ما حدث، وليست هناك بواعث أساسًا في اتّخاذ قراري أن أكتب، وفي الحقيقة لا تشغلني هذه البواعث كثيرًا، لأنّ الذي يشغلني حقًا هو شعوري بالفقد، أقول يا سيّدي أنّ النومَ يستهزأ بي، ويراوغني، كثيرًا ما يفعل، وبتّ - للعجب - أرى الموتى حولي ينازعونني، يلازمونني كظلّي، وأنا سائرٌ إلى هلاكٍ وخبل، تُرى كيف يُمكن

لأيّ أحد إنقاذي؟ لكنّها المصادفة، أن تعصف بكلّ تفاصيل حياتي، تعيسة أجل، لكنّها مصادفة، قدرية، إنّ القدرَ هكذا دومًا، يسوقنا نحو اختيارات عبثية، أظنّ ليس بمقدورك أن تقدّم لي مبرّرات، قدر ما يُمكنك - تمامًا - أن تتروّى، وتستدعي جميع الأحداث، وكان المعيار الثابت الوحيد فيما جرى هو الجنون. أقلّه سيّدي - إن لم تقدّم لي المبرّرات ولم تقبل رسالتي - مرّر الأحداث، بنفس حتمية وزمنية مرورها، وقتذاك، ستلتمس لي عذرًا، ولو كان واهيًا، كلّنا مسيّرون، نحو هذه النهايات.

سيّدي، في النهاية ينبغي - على الأقل - أن تقدّم لي اعتذارًا، لا جدوى منه، أعرف هذا، لكنّي واهم، والوهم فضيلة الحمقى، وأنا أحمق كبير!

سيّدي الموت، ليست لديّ بشأنك تأويلات، إنّما، بسببك خسرت كلّ ما يُمكنني أن أجازف لأجله في هذه الحياة، ولك أن تعرف أنّك لم تكن وديعًا في مجيئك، بل جئت قبيحًا قاسيًا كارهًا، وعلى أيّة حال، قل لأبي أنّه لم يفارقني، ما زال يتلبّسني، ما زلت مبقيًا على شخصه في رُوحي، وقل لأمّي أنّي لو كنت مؤمنًا بصدق نبوءاتها لهاجرنا مبكّرًا، أمّا بنت العمّ فقل لها رائحة القرنفل تسكنني، وما عادت أنفي تشمّ سواها، ويومًا سوف نلتقي لنستكمل الزفاف، و"مَدّ" رافقتها الملائكة في السّماء، هم من سيحرسونني يوم تضيق الدُنيا، وقد ضاقت.

سيّدي الموت، لم يعُد لي وطن، أما كان أحرى بك أن تجمعني بكلّ هؤلاء بدلاً من النار المتأجّجة في أحشائي.

سيّدي الموت، لا بأس، لا بأس).

وسحّت دموعي، طبّقت الورقة، وكتبت على ظهرها: ("كردستان"- "نوشهر"- مدينة الرّماد). وزيّلتها بتوقيعي (الكُردي - المهاجر إلى "الأقصر").

وبومًا قد تترفّق يدٌ بهذه الورقة، تطبقّها وترسلها كما هي، رسالة جزافية إلى الموت.

6

لم تعُد شوارع المحروسة مُبهجة، بدت بعيدة عن كلّ الاحتمالات، وبدت جرداء، قاحلة، والحمار يتوكأ بنا على بدن الطريق، وظلّت جذور شجرتي العجوز تشدّني إليها، وشعرت أنّها من بعدي سوف تموت هي الأخرى، تتحوّل إلى رماد تذروه الرّيح، وشعرت أنّي مجرّد معجزة صغيرة أراد الله لها أن تطوف بلاد الألم، وخطر لي أن أشقّ ملابسي وأتحوّل إلى مجذوب حقيقي، لا جدوى من العمل ولا جدوى من الرزانة، لا بأس من الجنون، إنّه نافع في مثل تلك الأقدار المباغتة، وشعرت بالجوع، والعطش، وشعرت بالدوار، واليأس، وشعرت بالغربة وشعرت بالمرارة، وشعرت - رغم ذلك - بالعدم.

"سِكيّ" يضرب بساقيه بطن الحمار، فيخبّ، ويطأطئ رأسه ويمضي في طريقه، ويبدو يتبرّم متذمّرًا، وبدا "سِكيّ" لا يبالي بالجروح التي تنزّ من جنب الحمار، كانت جروحًا مثل سحجات، يتدفّق منها دّم لونه خليط من الأحمر والعسلي، وكدت أسقط مرّات والحمار يخبّ، إنّما استطعت أن أستمسك ببطن "سِكيّ"، وكان كلّما لففت بطنه بذراعيّ تجشّأ، وقال:

- آه يا كُردي، المرض صعب يا ولدي.

وانعطفنا نحو الشارع الرئيسي للمحطّة، كانت جماعات على جانبيه تبيع مختلف البضائع، ومعظمهم - وهذا الغريب - سودانيون أيضًا، لكنّ

الشارع كان أكثر زخمًا، وحيوية ونشاطًا، تدبّ فيه حياة مختلفة، ونسوة جالسات في جنينة بمنتصف الميدان يمصمصنّ القصب، اشتهيت عودًا، لكنّي سرعان ما أشحت ببصري، متفقّدًا الحركة المشتعلة داخل متن الشارع، وكانت أشعة الشّمس ضعيفة هذا الصّباح.

ذكّرني "سِكِيّ" وأنا أمضي داخل حشاش المحطّة:

- ريال "بنداري" يا كُردي أمانة.

فلم أمنع نفسي من الابتسام وأنا أشقّ طريقي بين الحشود العابرة من باب المحطّة العالي، وبائعو الجبن القريش والبيض والمعسّل والتين الشوكي والعرق سوس وغزل البنات والملبن والحناطير يتكدّسون في السّاحة الممتدّة أمام الباب، دلفت، وكانت رائحة الدُخان تعبّق المكان، سألت عن قطار الصعيد، وأدركت أنّي سوف أنتظر ثلاث ساعات أخرى، وعلى جنب جلست، وأخذت أطالع الوجوه العابرة، ومن بعيد قاطرات تضخّ غبارًا أسود كانت تلج إلى الأرصفة، وتركن، في اتّجاهها، ومشاحنات بين سائقي القطارات والعمّال، والبائعين والركّاب، وصفّارات التحذير تنطلق كي يبتعد النّاس عن القضبان، والقضبان ممتدّة كأنّها بلا نهاية، تعانق الفلنكات شرائح شرائح، والصفّارات بدت بلا طائل، فإنّما النّاس يعبرون أمام القطارات ولا يحرصون على أرواحهم، فُزعت، ألهذه الدرجة يتباسط النّاس هنا مع الموت؟ إنّنا نسمّي هذا انتحارًا، لكن داخت رأسي، لو أنّ الكُرد فكّروا جدّيًا في الانتحار ما ماتوا جماعات جماعات كما حدث!

كانت سيقان القادمين والرائحين تسير حولي، لا أحد يقف في طريق أحد، كلّ قدم لها موضع، بتنسيق غرائبي، كأنّ الناس يحفظون

خريطة المحطّة، وحولي بضائع، ووداعات، وأحمال، وحقائب، وأقفاص، وبهائم، وبعد انتظار، هجم قطار الصعيد على جسم المحطّة ثائرًا لا يعرف الرفق.

دخلت، وجلست بأقرب مقعد، كانت المقاعد خشبية، وزجاج النوافذ مهشّم، وبعد ساعة أخرى، تحرك القطار، هادرًا في طلعته، يلتهم الفلنكات والقضبان، كأنّه وحش ضار، وسار سيرًا مقلقلاً، وترنّح، وقعقع وجأر، وأخذ يعبر التِرع، والبساتين، والمدن، والقرى، وراح ينفذ كوتد بين قلوب السكك، ويمخر عباب الرّيح، فتضربنا من خلال النوافذ المتكسّرة، وكان نهر النيل يتّسع حينًا، ثم يضيق، يلتف حوله القطار، ويرمح، ويأكل معالم الحقول، ويرمي وراءه الزروع والأشجار والنخيل والبشر، وينحدر ويصعد، ويرتفع وينخفض، ويميل يمنة ثم يسرة، وحوله الجبال تسايره من الجانبين، والطيور تلاحقه في الأفق، وتنقضي المشاهد، الكنائس والمساجد، القباب والقمائن، وكانت روائح البلاد تقتحم صدر القطار، ويسير بيننا الشّحاذون، والبائعون، والمجاذيب والمختّلون.

وبعد أن يقطع القطار محطّات المُدن والمحافظات والقرى يستقر على رصيف "الأقصر"- قبل اسمها "طيبة".



جُرح ثالث

شرق طيبة



إنّي رأيتُ الله، فوالذي يرى - قسمًا به - لن يروي سيرةَ الله غير راءٍ. يدُه - في جلالٍ - تخرج مِن بين شقوقِ الأرض لتبطش بنا، تدفع أمامَها البحار، والجبال، وتقلّب الأبصار، كما ينبغي أنْ تتقلّب الأبصار، وتطوي - بين أصابعها - سبع أراضٍ، وسبع سموات. أو ليس للإنسانِ أن يؤوب! إنّ يدَ الله تكتمُ الأفواه، والشهقات تهوي داخل الحلوق، والنيرانُ ألسنةٌ مِن صخب، يتطوّح القاصي والداني، تتطوّح الأرواح، تتداخل، رُوح العاصي مع رُوح الطائع، لا بديل عن التخالط تلك الساعة! يدُ الله تعلم، يدُ الله تمزج شمالها بجنوبها، يدُ الله تتركني، لأرى، لأرى فقط، فإنّي رأيتُ الله.



1

جدران المحطّة مزدانة بالرسوم الفرعونية الباهتة، وقفت قليلاً أجوّل ببصري، وكان من العبثِ ألاّ يأسرني جنوح المكان إلى السكينة والهدوء في هذا الوقت قبيل الفجر. سرت ولم يكن نفرٌ كثيرٌ فوق المحطّة، اللهم إلاّ بضعة رجال متناثرون بين الرصيفين، أغمضت عينيّ وتذكّرت نفس الجنوح الذي كانت مدينتي تذهب إليه، في مثل هذا التوقيت تمامًا، شددت صرّتي على كتفي وطلعت من باب المحطّة، لم يَكن ثمّة واحد أستفسر منه عن غُرزة "بنداري"، وتوقّعت ألاّ يكون الوقت ملائمًا، وقد كان، كانت الغُرزة التي وصلت إليها - بعد عناء - مُوصدة، ولم يكن في شارع المحطّة الممتدّ بين مبانٍ من الطوب النيئ سوى غفير متقوقع أمام ركية نار، رفعت يدي بسلام فتهلّل وجهه وصاح:

- تفضّل ولد العمّ.

وقصدت آخر الشارع، حيث لمحت مئذنة عالية تتلألأ بالأضواء، وكانت ريح خفيفة قد داعبت أنفي، مشيت فاحصًا بعينيّ، كلّ المحال مغلقة، وقد أصادف غفيرًا هنا أو هناك كلّ بضعة مبان يجلس متدثّرًا بعمامة وجلباب أمام ركية حطب، توجّهت إلى المسجد، وكان بابه مفتوحًا، خلعت قبقابي وحملته بين يديّ ودلفت، كان بضعة رجال

جالسين يرتّلون القرآن، والحوائط تتدلّى منها مباخر تنفث بخور برائحة المِسك، تقدّم عليّ أحدهم مصافحًا:

- أنا خادم المسجد.

أشار لي نحو الميضأة وناولني مصحفًا، وربّت على كتفي، سندت صرّتي جانبًا، وقبقابي، وتوجّهت للميضأة، تشطّفت، ومن ثمّ استولت عليّ راحة، كأنّي أخيرًا - وبعد عناء السّكة - قد وجدت المأوى، عُدت وجلست على جنب ساندًا ظهري على أحد الأعمدة، وأخذت أقرأ، ورأيتني قارئًا فصيحًا، وقد جلبت الفخر لأبي بحفظي للمصحف، ثم أدمعت عيناي، قد مات أبي ولم أحقّق أمنيته بحفظ القرآن، فأيّ وجع! دنا منّي خادم المسجد، وكان يلبس طاقية مشغولة بالنقوش المذهّبة وجلبابًا أبيض، بعث في رُوحي بعض الاطمئنان، كانت لحيته مهذّبة مشذّبة يتخالط فيها الشّعر الفضيّ اللامع بالشّعر الأسود الفاحم، فبدا متألقًا، قال:

- في المسجد أسرّة للعابرين.

قلت:

- وللعابرين في الحياة دروس يا عمّي.

فابتسم، وقد شرد بصري، وأحسّ أنّ عينيّ لم تجف دموعهما بعد، فدنا أكثر، وثريا تتأرجح من قلب السقف فوقنا.

- من برّ المحروسة! صح!

- جئت من المحروسة، لكنّي أجنبي، ألستم هكذا تطلقون على الغُرب؟

ضحك، وهو يقول:

- كلّنا أجانب في بلاد الله يا ولدي.

ثم أضاف:

- عمّك "أبو المجد الحجّاجي"، جدّي أقام هذا المسجد.

سألته:

- إنّما رأيت الحجارة حول المعبد من كلّ ناحية، أعمدة طالعة نحو السّماء.

- اسمه معبد يا ولدي، وهذه قصّة تاريخ.

وزفر وهو يبسمل ثم استطرد:

- لعلّي أقصّها عليك يومًا.

واستند على مرفقيه، ونهض، وأغمضت عينيّ، كنت متعبًا، فاستغرقتني غفوة طارئة، ورأيت - فيما يرى المأزوم - البرد والظلام، والموت الطليق، والفئران التي تندفع من بين ثقوب الجدران، هاربة من النيران، خائفة خوف البشر وأكثر، لماذا حدث ما كان؟ لم يكن أحدٌ يعرف! الإجابات معلّقة، رهينة التأويلات، العقول فارغة، أجل يا ربّ، الإنسان مجرّد نفخة عشوائية!

الفئران تندفع من بين الثقوب، والسحالي، والكلاب تقفز، تُعلن أنّ الموت زار مدينتنا الهاجعة، هبط فجأة، ودون إنذار، تساءل البعض- ما الذي قد كان ثم لم يكن؟

يوم اصطبغت السّماء بلونٍ أحمر، السّماء المُظلمة، الغارقة في الظُّلمة، واللّيل لم يعُد ليل البؤساء فحسب، وإنّما أمسى ليلاً للجنون والخرافة، والعبث، والقدر، أجل هو ليل القدر العشوائي، أجل هو هذا اللّيل الذي لن تنساه مدينتنا، يومها كان استثنائيًا هذا اللّيل، حتّى في قدومه، فعندما كان اللّيل في أولّه، انقبض قلب أمّي، ولم تكن تعرف السّر، ولم نكن نعرف، مُدهشة تلك الحقائق التي تخلع أقنعتها! الفوضى، ما أغرب هذه الفوضى! تدور الأحداث لتستقر إلى فوضى، أحداث تافهة، تستقر إلى فوضى عظيمة، هل يُمكن أن تكون الأقدار بمثل هذا الوضوح؟ هل يُمكن أن تعرف الأقدار - ذاتها - معنى اللؤم؟

وكما ينبغي أن تكون الفوضى، كانت، الظلمة الموحشة، الظلمة التي تُفسد - حتمًا - براءة العُزلة وشغف الاسترجاع، تلك الظلمة نفسها التي كادت تصنع من الأماكن خرائط للدهشة، خرائط فاقدة الهوّية، كلّ ذلك، وتفاصيل أخرى، تبدّلت في لحظة كاشفة للقدر.

تحتشد الجموع أمام المأساة الطازجة، يحتضنون المأساة بعيون برّاقة لا تصدّق، والأرض دّم، والدّم لونه غريب، وتدفّقه أغرب، ولم تزل الحشود تعرج إلى مسرح المأساة، يحملون الجثث، ويعرفون أنّ رسول الموت كشف عن وجهه هذه اللّيلة، رسول الموت لم يعُد يخافكم، إنّه يستهزأ بكم، جميعًا، رسول الموت تمثّل في الجنود، وأردى أبناءكم وذويكم، أما كان له أن يردي التعاسة التي تعيشون فيها وتعيث في أيّامكم مرارًا؟ تُرى إلى أيّة عاقبة يُمكن أن تسير الأحداث. هأنذا، العبث الطليق، هأنذا، الموت أيّها الحمقى، الجنون، الخلاص، أجل أنا الخلاص، موعدكم معي، عزرائيل فقط من يلتزم بميعاده نصًّا، أيّ

مهزلة! الأحداث تتراكم، وتتراكم، وتندفع إلى نهايات جزافية، لغط وجنون، ألم وجنون، قدر وجنون، الجنون مرادف لسائر التداعيات، مرادف موضوعي للغاية، لكنّه مرادف مباغت، حقير أحيانًا، خصوصًا، إن تلاحق فيض الجنون، جنونًا بعد آخر. تدفّق الجنون لمنتهاه، تكوّمت الأجساد، النيران تأكل البيوت، الطلقات ترشق في أبدان البشر، وفي أبدان البيوت، والقنابل تترامى، فوضى، إنّما مستحقة، أليس كذلك يا قابض الأرواح؟ بالمناسبة؛ أين أنت؟ أظنّك واقفًا هناك، تتقمّص دورك لنهايته، الأرواح تجيء إليك عامرة بالسخط، هل يهمّك؟ لا.. لا.. اقبض كما شئت، لا بديل اليوم عن الفوضى، حتّى الفوضى سماوية!

فليمت جميع الكُرد.

موتوا أيّها الحمقى - هكذا كان قابض الأرواح يقول، وهو يُنهي الحدث الجليل، والمقدّر بعبقرية بليغة.

2

ظلّ "بنداري" لحظات ساكنًا سكون الأعمدة الحجرية التي رأيتها متطاولة صوب السّماء، محدّقًا فيّ، ثم زفر ومضى بعينيه يجري في الوريقة التي أحملها من "سِكيّ"، ثم خلع قفطانه الصّوف، ورماه جانبًا على أحد الكراسي، ولوّح لي بأصابعه فتبعته داخل منعطف يؤدّي إلى غرفة في عُمق الغرزة، بدت غرفته الخاصّة، وشعرت بالحرج قليلاً من ردّ فعله، لكنّه قعد على كرسي زان وحملق ثانية في وجهي ثم قال:

- أمّا "سِكيّ" عليه حركات!

شعرت بالحرج أكثر وندت منّي نحنحة، فاستدرك:

- اقعد اقعد، المكان مكانك.

ثم صفّق بيده مناديًا:

- يا "فوزي".

هرع صبيّ الغرزة، وفي يده ماشة فحم، رصّ بها جوزة المعلّم، والتفت نحوي، فقال "بنداري":

- اشرب حاجة يا شيخ.

- تسلم يا معلّم.

- وهل هذا كلام، أنت في مقام الضّيف، عليّ الطلاق لتشرب حاجة.

- خلاص، شاي، لكن صعيدي.

ابتسم "بنداري" وقال:

- تتعلّمون بسرعة يا كُرد، هه!

وبمنديله تمخّط المعلّم وقد أفرغ أنفه عن آخرها، وتعجّبت من سماسرة العمّال، كلّ واحد له عادة، "سِكيّ" يتجشّأ و"بنداري" يتمخّط، فانتابتني ضحكة فلتت رغمًا، وأنا أتصوّر "سِكيّ" يجلس جوار "بنداري" وكلاهما يباشر عادته، رفعت رأسي إلى المعلم ووجدته يحلق فيّ مستغربًا، ولم يزل واضعًا المنديل فوق أنفه يمسح بقايا المُخاط، وبيده الأخرى فتح درجًا وأخرج قنّينة مغلّفة بالقماش، ثم فتح فوّهتها واستنشق، فسرت رائحة الكحول في المكان، وكان يستنشق بوَلَهٍ، كأنّه مدلّه، ثم قال:

- هذا يا كُردي عرق بلح ولا في البلاد مثله، رخيص، إنّما على كيفك.

- بالهناء والشفاء يا معلّم.

- يا كُردي! هناء وشفاء في خمر! قُل بالسّم الهاري، إلهي تنزل جوفك نيران حارقة، يا رَب تطبّ ساكت..

وتنهّد ثم أكمل:

- ربنا يتوب علينا منها.

وفي لحظة أفرغها في جوفه، وتقلّصت ملامحه، تعجّبت من إيمانه في الحقيقة! وأخذ جسمه يرتجّ مثل بالون يترنّح، واحمرّت عيناه وبدا منتشيًا، واقشعرّ جسده وهو يكح كحّة طويلة متقطّعة، وكان يتحدّث أثناء سعاله:

- اسمع يا سيدي.. لأجل.. عيون.. "سِكيّ".. اعتبر نفسك اشتغلت.

ومن فضاء الغرزة بالخارج نادى عليه منادٍ، فهبّ المعلّم يصيح:

- يا صبّاح يا عليم! وهل هذا وقته يا "فوزي" يا جحش؟

ثم استدار نحوي:

- خلّيك معي.. هه.. ماذا تحبّ أن تشتغل؟

- ما يجود به الكريم يا معلّم.

- يعني تفهم في أيّ شغلانة بالضبط؟

- أفهم فيما يقدّره لي الله.

- أمممم.. شكلك ستتعبني يا كُردي.

وأخرج دفترًا من الدرج، جاب بعينيه في صفحاته ومضى يقلّب وأنا أتابعه باهتمام، ورحت أرشف الشاي لكن ملامحي تقلّصت، تفحّصته وكان لونه كالحبر، فتركته دون أن يلاحظني المعلّم، خشيت أن يحلف طلاقًا آخر فأضطرّ لشرب الكوب كلّه، وقد بدأت الحركة تدبّ في الشوارع مع طلوع الشّمس، وسمعت صيحات الباعة الجائلين، وصفير القطارات، وتداخلت الأصوات وتمازجت، وأنا لم أزل أتابع في حرص دفتر المعلّم الذي يكرّ صفحاته بحثًا عن عمل مناسب لشحّاذ مثلي، كما أظنّ.

ثم أخيرًا تشنّج، وحطّ إصبعه فوق صفحة بعينها، وهمهم:

- خلاص، اشتغلت يا كُردي.

تهلّل وجهي، وكأنّ المعلّم وجد لي وظيفة في الميري مثلاً، وقلت:

- صحيح يا معلّم.

- أمّال.

وطوى الدفتر ثم شدّ نفسين وأردف:

- ستعمل كلاّفًا.

بدا عليّ عدم الفهم، فاقترب منّي وأضاف:

- كلاّف أحصنة، تعرف تشتغلها؟

- أتعلّم.

- عال العال، اذهب اشترلك جلّابية عليها القيمة وتعال.

تركت صرّتي وخرجت، واندفعتْ الشّمس تكوي عيني، لم أحسب أنّها ساخنة بهذا الشكل، قيل لي أنّ جنوب البلاد حار، لكنّي ظننته حارًا في الصّيف، وليس الشّتاء.

وكدت أتعثّر وأنا خارج من الغُرزة، وجمدت مكاني، وكلب ضخم يقف حائلاً بيني وبين الطريق، كانت أذناه عريضتان، وكان لسانه يتدلّى ونابأه يكشفان عن خطر داهم، ازدردت لعابي، والكلب أشبه بذئب فرّ من الجبل للمدينة.

قالت لي أمّي أنّ أبي ذات يوم صرع ذئبًا بيديه المجرّدتين العاريتين، وقتذاك لم أصدّقها، كعادتي الحمقاء، فلو كانت الحكاية عن رجل غير أبّي لجاز أن أصدّقها، لكنّي أعرف أبي، إنّه قلبه أرقّ من أن يصرع دجاجة بيديه، إنّما شعرت وقتها أنّ أمّي تبالغ، وثمّة احتمال أنّها كانت تود التباهي به والتفاخر، ونسب بطولات مختلقة إليه، ولم يُكن بأيّة حال يُسمح لنا بالتشكيك في حكاياتها تحت أيّ ظرف، وإذا شكّكت، سرعان ما تقول: انظر للجروح التي تخطّ ساقيه وأنت تعرف. ويوم كنّا

أنا وأبي جالسين نلتهم ثمرتي مانجو على ضفّة النهر، سألته: إنّ أمّي تدّعي أنّك صرعت ذئبًا بيديك العاريتين! إنّما ابتسم ابتسامته العميقة، ولعق بذرة المانجو، واستدار لي يقول: وهل أنا في حاجة لبرهان طالما أمّك تدّعي؟ ألقيت بذرة المانجو في حشاش الماء وقلت: أرني جروح ساقيك. فغمغم: إنّ أمّك رأتها. ثم أولى لي ظهره.

ركل المعلّم "بنداري" الكلب الذئبي بقدمه، وهو يصيح ملوّحًا لي بيديه:

- اذهب يا كُردي، خيبة الله عليك.

وكان صبيّه يشير نحوي وهو منفجر في ضحك:

- كاد يبول على نفسه.

لم تكن خريطة الشوارع متناسقة بعد بالنسبة لي. فرحت أخبّط دون هدى، انعطفت في شوارع جانبية، وعُدت، ودلفت إلى سوق يبيع الحجارة السّوداء والعاديات والحُلي، وسرعان ما رجعت، وبدت شمس الظهيرة حارقة، وأنا حتّى أخشى أن أفقد معالم شارع المحطّة، فلا يُمكنني العودة، وبدوت تائهًا واستوقفت عابرًا:

- من فضلك أريد شراء جلباب صوف.

- أنت تائه؟

وضحك الرّجل ملء فمه، وأشار لي بإصبعه إلى نهاية ميدان وقال:

- اتّخذ يمينًا في يمين، وستجد سوق القماش، عمومًا الأقصر شارعين وحارة، لا تقلق.

ثم أضاف يضحك وهو يمضي:

- نحن في خدمة السوّاح.

ووجدتني مررت جوار معبد، عرفت فيما بعد أنّه معبد الأقصر، والذي بُني فيه من النّاحية الأخرى مسجد "أبو الحجّاج"، وكان قبالتي النّيل، فقلت أتسكّع قليلاً كي أكسر حدّة الشّمس، سرت على الكورنيش، وكان طابور من حناطير يقف في غير انتظام، وبضعة أجانب يمشون في غير حذر ولا حيطة، وأمامي بوّابة المعبد، بوّابة حجرية تتراص فيها الحجارة بشكل متناسق، تقف صوبها شامخة مسلّة- عرفت بعد ذلك أنّها مسلّة، وكان جمل راقد على الرّمل أمام بوّابة المعبد، وحمار في انتظار صاحبه، وامرأة تفترش الأرض تبيع الخضار.

وكانت طيور نورس تشق بطن الماء وتلتقط سمكًا بمناقيرها، وعصافير تزقزق، وريح ناعمة تحرّك أسطح الموج الجاري، أُحلت إلى كردستان، ما أشبهها بهذا الوطن! وظلّ النهار يمضي وأنا راكن فوق سور الكورنيش، أتملّى ورأسي غائبة في ذكرى الوطن، تبدّلت بي المسارات، وكما زعم "بنداري"، أنا خائب، تحوّلت إلى شحّاذ يتسوّل الحكايات والذكريات، ومرّ حنطور، وناداني صاحبه، فلمّا استدرت قهقه، وانطلق مبتعدًا.

(حبيبتي بنت العمّ، ما بال الحُلم جاف بائس! هأنذا أُشرف على فضاء الأزمنة، واقف بين حدّي الضياع والعدم، خلفي الحجارة والصخور، وأمامي النيل، إنّها مفارقة، أليس كذلك؟ بيني وبينك ملايين السنوات المحتملة، أكثر ما يعذّبني أنّ رُوحي لا تجد لها مستقرًا وسط ركام اليأس، التماثيل حولي والتواريخ، واجتزت صحاري ووديان وأنهارًا وبراكين وجبالًا ومرارات ولم أهتد بعد، إنّي أتوق لما بعد الهداية حتّى، إلى نعيم المستقر، ويبدو ألاّ مستقرًا).

خلدت إلى توحّدي وعزلتي، وإلى السّكون، وفي وقت العصرية، قادتني قدماي أستكشف مجاهل الحجارة، تسمّرت أمام أحد الجدران، لونه باهت، إنّما ينطق تاريخًا، كان مزدحمًا بالرسوم والنقوش والوجوه والدلالات التي لم أفهم منها شيئًا، لكنّي أدركت أنّ تلك حكايات، وأنّ معظمها تمّ محوه، وأُخذت مفتونًا بصنع هؤلاء، ورحت أعيش اللحظات التي عاشها أقدمون، وكان يُمكنني أن أجاوز بخيالي حدود الأمكنة، إنّما فُزعت وامرأة تستلقي تحت قدميّ، وتستمسك بذيل جلبابي المترى، ثم تدفن رأسها فيما بين ساقيّ وهي تلهج:

- البركة يا سيدنا.

لم أعرف كيف أصرفها، ولم أعرف هل أضحك أم يصيبني اليأس أكثر، ظنّتني وليًّا مجذوبًا، وإنّما أنا لي نفس حاجتك عند وسيط يا امرأة. تحجّرت يداها في قدميّ، فدعوتها تنهض، فقامت، واستطعت أن أميّز الوشم المدقوق بين عينيها، كان لونه أخضر شاحب، وكانت امرأة ناهزت الخمسين، أو تجاوزت، رمقتها مندهشًا، كانت نحيفة وذراعاها كعودي قصب جاف، وكانت تتلفّع برداء أسود طبقات حول جسدها، علمت - فيما علمت من أمور بعد ذلك - أنّها "حَبرة"، ولم يكن يبين منها غير وجه، عيناها دقيقتان وملامحها ترتعش، وكأنّما هو وجه خرج من جدار معبد، كان محفورًا عليه وبُعث، ففُزعتُ أكثر، وتراجعت للخلف فتبعتني، بعفوية وبلا حرج، وبدت على أصابعها آثار طين ناشف، وكانت حافية، فأدهشني تحمّلها لسخونة الرّمل، وحرارة الطقس، بالأخص فيما ترتدي من ملابس.

قلت:

- إنّما أنا عبد مسكين.

فصاحت:

- عليّ هذا الكلام يا شيخ "عبد السّميع"؟ أنا رأيتك في المنام، والنبي شفتك لابس أخضر في أخضر وراكب حصان له أجنحة، ورامح تجري وراء نور سيدنا النبي، أعطني بركاتك يا سيدنا، وحياة حبيبك النبي.

لم أستطع أن أقول لها شيئًا، احتشدت الكلمات في جوفي واحتبست، وكانت عيناها توحيان بالصدق والدفء والوطن، ووجهي يسقط عليه شعاع ضوء وتباغته نسمة ريح وتضربه ذرّات تراب، أدركت أنّ هنا تُولد الآلهة وتهبط، وتدوم الأساطير، وغمرني العرق وتقهقرت عنها مرتدًّا للوراء في ذعر، ثم لملمت ثوب جلبابي وانطلقت نحو الشّوارع، ألهث وأنكفئ وأقوم، والنّاس يحملقون فيّ متعجّبين، خلعت قبقابي وعدوت فوق الإسفلت السّاخن، ولم أحفل، وكانت أرواح الموتى تحلّق حولي، بدت تطاردني، وبدوت ممسوسًا، والشّوارع لا تنتهي، والدروب تقودني لحارات، وأنا أعدو، والرّماد يكسو السّماء، والحرائق تتصاعد بأبخرة ودُخان ووجوه، واحترقت المدائن، واحترق معها الرجاء يا "كردستان"، احترق.

3

"عمّار" وأنا: اثنان نستلب براح الحقول الخضراء، كنّا نحتكر تلك الأوقات الغافية في عُمق الذاكرة، كنت أنا و"عمّار" طفلين، عندما كنّا نتسلّق أشجار الرّمان، النابتة أمام الفسحة الممتدّة بامتداد شارعنا، وكان يمازحني وأمازحه، ويباريني وأباريه، ونؤرجّح أقدامنا الهابطة من بين أغصانها، وكان يحرّضني أن أقطّر عصارة الرّمان فوق ملابسي البيضاء لتتّسخ، لهوًا كي أزعج أمّي، وكان يعرف أنّ عصارة الرّمان تبقّع القماش الأبيض، ولا يزول لونها الوردي. وكنت بدوري أحرّضه أن يختلس لنا من أبيه تبغًا، ونلفّه ثم نجرّب طعم الدُخان، وكان أبوه شرهًا في شُرب التبغ، وكان أحيانًا لا يغيب أكثر من خمس دقائق، ثم يعود وفي يده تبغ وورق، ونختفي بين أغصان شجرة الرّمان نسحب أنفاس الدُخان، وكنت أسعل وأسعل حدّ أن كنت أُخيفه، واهمًا أنّي سأختنق، إنّما بعد مرور يوم وراء يوم، تعوّدت صدورنا على نكهة الدُخان، خصوصًا مع الرّمان الطازج، وكنّا نتراشق ببذوره، وإن أغضب هذا أمّي مرّات كثيرة، وزعمت أمّي أنّ المأثورات تقول أنّ حبّ الرّمان يشتهيه الشيطان نفسه، وأنّ الرّمان فاكهة لن توجد في الفردوس، إنّما "عمّار" طالما قال لي أمّك تخيفك، وهل هناك فاكهة أشهى وألذّ من الرّمان يُمكن أن يمنحها لنا الله في الفردوس؟

وكنّا ننطلق نحو التلال المترامية حول ضفّة النهر، ندهس عشبها الأصفر الجاف البري المتشعّب في سفوحها، والذي يخضرّ في الربيع حين

تهطل الأمطار الغزيرة، وكانت هوايتنا ساعتها أن نتربّص بأعشاش العصافير المختبئة بين غصون الشّجر، ونقنص أفرخها الصغيرة والعصافير ساعية في الصّباح الباكر، نسحق القشّ بين أيادينا، ثم نضع الأفرخ الصّغيرة على مسافات متقاربة، وننشّن عليها بالحصى، ونفرح إن صأصأت الأفرخ الصّغيرة إزاء احتضارها، وتحسّبًا أن نترك أثرًا وراءنا، كنّا نحفر لها بين العُشب حفرًا لا يُمكن اكتشافها، ثم ندفنها.

وطبّ عليّ أبي في يوم، قبض عليّ متلبسًا حال دفني لأحد الأفراخ، لم يفعل غير أنّه تجهّم، بعد أن حمل العصفور بين يديه، وحدّق فيه طويلاً، وأزعم أنّي رأيت في حدقتيه ندف دموع، هبط أبي يومها لشطّ الماء، ثم ترك العصفور بين الموج، ورماني بنظرة لم أستطع نسيانها بعد ذلك، وهمهم بما لم أستطع سماعه، ثم رحل.

لم يعاقبني عقابًا توقّعته، على العكس، لم يحدّثني بشأن العصفور عند عودتي للبيت، بل كلّ الذي فعله أنّه قاطعني، وأحسّت أمّي، فبادرت كثيرًا أن تفطن أو تستنبط مبرّر المقاطعة، وحارت مع أبي، وحارت معي، لم أتفوّه، وبالطبع لم يحك أبي شيئًا لها، وظللنا لأيّام على هذه الحال، وكنّا مجتمعين نأكل الغداء فوق طبلية من خشب السنط، كان عبارة عن حساء دجاج وطبيخ بازلاء، عندما دخل أبي علينا، ثم ألقى أمامي أفرخ عصافير صغار، ميّتة، ومغطّاة بالتراب، وهو يصيح:

- كُل، التهم ما قتلته يداك.

امتقعت أمّي، ودارت نظراتي بينها وبين أبي، وقال أبي:

- ابنك يدفن العصافير في الأرض، يزهقها بيديه، هكذا ربّيناه، أليس كذلك؟

ودخل غرفته وصفع الباب خلفه، كان صدر أمّي ينزل ويطلع كأنّها لم تستفق بعد، لكنّها شبّت ولحقت بأبي في غرفته.

وخرجت بعد قليل وعلى وجهها آيات الغضب، وفي ملامحها خيبة أمل، وجلست على الكنبة ومكثت تحدّق فيّ، توقّفتُ عن مضغ الطعام وشعرت بالذنب، لا لشيء إلاّ أنّ هذا الذنب أغضب منّي أبواي، وثم قالت أمّي:

- تقتل العصافير يا ولدي!

لم أر أنّ الأمر فادحًا لهذا الحدّ، ورأيت أنّ أمّي لعلّها تبالغ كعادتها، إنّما قلت لها:

- كنت ألعب معها.

- وهل إزهاق الرُوح لعب؟

- إنّها أفراخ صغيرة يا أمّي!

- هذه هي المشكلة، إنّ البشر يستحقون الموت، لكن العصافير لا تستحق.

- وما الداعي لهذا الغضب؟

نزلت من على الكنبة وجلست جواري، وقالت:

- تعرف يا ولدي، إنّ الله أباح لنا لحم الطير والحيوان بشروط، يعني مثلاً إذا توفّر غذاء بديل فلا داعي من ذبح الطيور، لكن البشر لا

يفهمون، خلق الله الطير كي نتفرّج عليه وهو يجري في السّماء المباركة، ونمتّع آذاننا عندما يصدح في الصبح، ويزقزق بين أغصان الشّجر، إنّ الطير علّم الإنسان الغناء والطرب، بل وعلّمه الترحال في أرض الله. في يوم يا ولدي جاء مدينتنا صيّاد، التحف بالسّهول وكان يتربّص بالطيور، ويصنع لها شباكه، وكان إذ يقع الطير في شباكه، يفصل رءوسه، ويدفنها، كما فعلت أنت، كانت غوايته قتل الطيور، بلا غاية، مجرّد القتل فقط، هذا الصيّاد وجده أهل المدينة يومًا أشلاء في مناقير الطيور، محلّقة بها في السّماء، قيل أنّ تلك أرواح الطيور التي أرداها وبُعثت تنسّر جسمه أجزاء.

قلت لها:

- وهل تطلع من الطيور عفاريت يا أمّي؟

لكزتني في ظهري وقامت تضحك. يومها تمكّنت بالحيلة من إرضاء أبي، دفعته لمصالحتي، وقطعت عليه وعدًا بأنّي لن أمارس هواية قتل العصافير ثانية، وللأسف، صدّقني.

4

انطلق إلى درب بيتنا المبلّط المليء بالبشر، درب كانت جلبته تلتهم اليوم، والوقت نهار، رغم ذلك معظم ضوء البيت - بيتي - واهن شحيح، الشمس تربّت عليه باستحياء، والظلّ رفيقه طيلة النهار، ربما لأنّه بيت من دور واحد، تكالبت حوله الأعمدة الخرسانية المرتفعة، فاندفس بينها محشورًا. الوقت نهار، والدرب الطويل الممتدّ أمام البيت مليء ببائعي الدواجن والبيض والمخلّل والعطور وفواكه العنب والرّمان، الذي تنفذ رائحته لداخل بيتنا، ولا تغادره إلاّ مع غروب الشمس، عندما تبدأ أمّي في رشّ الدرب، ورشّ ماء الورد فوق الكنب والمقاعد، وفتح نوافذ البيت ليتجدّد هواؤه. تنشغل أمّي - كعادتها - بتنقية كيس أرز من شوائبه، مدقّقة النظر، مقرّبة الصينية نحو عينها، لكنّها تنتبه على دقّ خفيف على الباب، الطرق يجعلني وصديقي "عمّار" - الذي يقضي أغلب اليوم معي بحجّة حفظ القرآن - نهرول خجلاً، أعلم أنّ صديقات أمّي كثيرات، نختبئ في الغرفة المظلمة، ونرقب من ثقب ضئيل في الباب فخذ صديقتها الأبيض اللامع، التي تجلس، وتأخذ راحتها في هطل الدموع، والمخاط، وتشكو لأمّي زوجها الذي يضربها ليل نهار، تشكو لها قلّة الرزق، والحال البائس.

يهمس "عمّار":

- ما أبغض هذا الرجل! واحد عنده مثل هذه الأفخاذ ويضربها، أنا لو مكانه ألحسها صبح ليل.

- الحس المصحف أحسن يا فالح كي يرضى أبوك عنك، عارف لو لم تحفظ، أبوك سوف....

- أعرف أعرف.. سوف يركبني، هههه...

قاطعني وانفجر في ضحك، فضحكت كاتمًا صوتي، مضى يجرّني من لحيتي - التي بالكاد نابتة - فأتأوّه، لنجلس على طرف السرير.

- آه يا ولد يا "زاخولي"، لو معي امرأة مثل صديقة أمّك هذه! سأظلّ أعضّ في جسمها ولا أشبع.

- يا مراهق.. ألا يشغلك إلاّ تلك المواضيع؟

- تعال.. تعال.. يمكن صاحبتك ترحرح أكثر ونشوف المسائل.

نتكالب على ثقب الباب ثانية، والصّديقة ما زالت تنتحب كسكرانة، وأمّي تهدّئها، تطبطب على كتفها، ويبدو على وجه أمّي السأم، أظنّها ملّت حكايات صديقتها وشكواها التي لا تنفد، كلّ يوم تأتي بشكوى جديدة، وأمّي تواسيها، وهي لا تكف عن المجيء طلبًا للعون، النقدي أحيانًا، إنّما - ورغم ظروفنا المتهالكة - لا تردّها أمّي قط دون ترضية، سواء ببضع بيضات أو بقالبين جبن ماعز، هكذا أمّي دائمًا، كثيرًا ما اقتطعت من تموين بيتنا لأجل أمثال هذه الصديقة، تقول لي دومًا:

- هذه حُرمة مسكينة يا "زاخولي" يا ولدي، معها كوم عيال.

أقول في سري: - وأنتِ معكِ كوم عيال أيضًا يا مفترية.

"عمّار" يلعق شفتيه بلسانه، وصديقة أمّي تتململ، مع بعض التهوية على مسائلها؛ على حدّ قول صاحبي، الجو عندنا حار حانق، والمروحة العتيقة التي تزنّ في قلب الصالة لا تكفي للتخفيف عن الصديقة، التي ترفع ذيل ثوبها، وتستخدمه للترويح عن البضاعة.

- تصدق لباسها لونه أحمر، والله مهتمة بنفسها على الآخر جارتكم هذه!

- اتّق الله يا شيخ، تخيّل لو فكرت تنام معها، ممكن يطلع لك عفاريت من العفن الذي بين رجليها.

وكتمت ضحكتي، فلكزني "عمّار" في جنبي وهو يحدجني بنظرة غيظ.

- أنت مقرف بشكل يا أخي.

شدّني وجلسنا على طرف السرير ثانية، وبدا "عمّار" يتنصّت على صوت صديقة أمّي، وهو يطرف بجنب عينه ناحية الباب الموصد.

رحت أفتّش في ظلمة الغرفة الحالكة عن تسرية، تؤانسني وسط ملل الظلام، لم يكن يجوز أن أشعل نور الغرفة، خاصّة إذا كان ضيفنا إحدى صاحبات أمّي، هكذا أوصاني أبي، قال لي:

- الرجل لابدّ يكون محتشمًا وعنده أدب، الضيوف لازم يأخذوا راحتهم يا "زاخولي".

أيّ حشمة! لم أكن أعرف، لم أكن أدري لماذا عليّ أن أطفئ الضوء وأظلّ أختلس وصاحبي النظرات من ثقب باب؟ أظنّها عادة مستهلكة في بيتنا، خشية إحراج الضيوف أو إشعارهم بالتلصّص، لكي يرحرح أمثال صديقة أمّي، ويأخذن راحتهن.

أخذت أتطلّع في الحلكة التي تضطجع في الأعلى فوق رأسي، ورأسي تذهب في غياهب الجموح، كان الجموح الذي يراود الصبية في سنّي جموحًا ساذجًا، لكنّه مع ذلك جموح الفطرة والبداهة، كأن تقع يد أحدهم على قميص امرأة فيشبعه طرحًا بغرامه، أو يراقب بعينيه الفتيات الملفّحات بـ"البيشمالك"، أو القفاطين السّوداء، فينام ليلته ويصحو محتلمًا بإحداهن، وإن لم ير وجوههنّ، أما أنا، فجموحي يكون إذا مررت أسفل بيتها وانتشيت بسماع أنغام صوت "مريم" الأرمينية وهي تدندن، أو سمعت طرقها على باب بيتنا فأهرول ناحيتها فقط لأعبّق روحي برحيق ابتسامتها غير الطبيعي. كانت تتقدم إلى داخل منزلنا باستحياء عظيم، وتجلس على الكنبة جوار أمّي التي تربّت فوق كتفها بإعجاب ومحبّة، دون حتى أن ترفع عينها إلى أعلى، الخجل يسيطر على جسدها كلّه، فتظلّ ترتعش وهي تبتسم هذه الابتسامة الشاحبة.

"مريم" لم تكن جميلة فحسب، كانت "مريم" ملاكًا، بكلّ ما قد تتّصف به الملائكة، من رقّة، وبراءة، وعذوبة، يلمع الصليب على بطن رسغها الأيمن فيملأ الجو إخضرارًا كإخضرار يومنا في الربيع، وكانت تكبرني بعشر سنوات، إنما كانت تخشاني، أظنّها كانت تخشى كلّ صبية الجيران، لا أعرف إن كان هذا خوفًا على نفسها أم خوفًا منها! لكنّني كنت أتابع نافذة غرفتها من شرفتنا المعلّقة على عروق خشب متهالك باهتمام كبير، وأنتظر اللحظة التي يخرج فيها وجهها إلى الدنيا لتزدهر، متأمّلاً هذا الوجه الطالع من لوحة لرسّام محترف، فيصطدم قلبي بضلوعي، لم يكن الغرام هو الذي يثيرني نحوها، كانت طمأنينة من نوع غريب تتسلّل إلى أعماقي إذ أطالعها، ولعلّها ذات الطمأنينة التي تسيطر

على كلّ الرجال حين تقابلها أعينهم، فأنا لم أرَ رجلاً أو صبيًا قد جال برأسه هاجس الشهوة تجاهها يومًا، وكأنّما الملائكة لا ينبغي أن تتحرك نحوها هذه الأنواع من الأحاسيس، بل كان الجميع يحبّها هذا الحب الشفيف الذي دفعهم للدعاء لها بالشفاء، وعيونهم مملوءة بدموع حقيقية، ذلك عندما مرضت.

صديقة أمّي تستعد للانصراف، يعلو صوتها، وتودّع أمّي بقبلتين مصطنعتين.

- أمانة عليكِ ما تنسيني يا أم "زاخولي".

- قولي يا ربّ.

تئن أمّي وهي تعود لتجلس ثانية، جرّاء مرض "الروماتيزم"، فأخرج وصديقي "عمّار"، تنظر لي أمّي بجنب عينها وتقول وهي تستكمل تنقية الأرز:

- ولد يا "زاخولي".. على الله تكون خلصت حفظ...! أبوك زمانه راجع.

- تمام يا حاجّة.. كلّه تمام...

يقولها "عمّار" وهو يكتم ضحكة، فأنظر له معاتبًا، يستأذن وينصرف، تتابعه أمّي بعينها قائلة:

- يا خوفي يا "زاخولي" يكون الولد "عمّار" ماشي في سكّة من إيّاهم ويجرّك معه.

- هل هذا كلام يا أمّي.. كلّ واحد معلّق من عرقوبه.. من يحمل قربة مخرومة تخرّ على دماغه هو فقط.. منك نتعلّم يا ستّ الكل.

- جدع يا ولدي.

- لا تقلقي يا أمّي..

وتركتها، انصرفت إلى غرفتي وأشعلت ضوءها في اطمئنان، اللمبة تتأرجح، وتتأرجح رأسي، زفرت زفرة ساخنة، طلعت ببعض من لهيب أحشائي، كنت بالأمس قد حلمت بـ"مريم".

تمدّدت على الوسادة أكثر أسترجع تفاصيل الحُلم، وحولي ظلام عربيد، وأتذكّر يوم مرضت "مريم"، يوم مرضت نفوس الجميع لمرضها، ولفّ البيوت طقس من كآبة لم نعهدها في بيوتنا من قبل، الأمهات بدا حزن لا ينقطع على وجوههنّ، والآباء لا يكملون أكلهم أو مزاحهم أو حتّى نومهم، وكأنّها ابنتهم جميعًا.

في الواقع، طال المرض، وأجزم الحكماء بعسر الشفاء، وأصبح بيتها ملتقى كلّ الأحبّة، وأذكر الأيام التي كنّا نزورها فيها، والساعات الطويلة التي نقضيها في صحبتها وهي على فراش المرض، وكانت ملاكًا ذابلاً، المرض تمكّن منها، مرض لم يحدّده الأطباء، لكنّه استفحل في أحشائها بشكل كان يجعلنا نتوّجع عليها فتنهمر الدموع، دموع لم أقدر على حبسها ذات يوم، فجاءت غزيرة ساخنة أمام بصرها، فابتسمت، قالت لي وقتئذ:

- "زاخولي"! أول مرّة أراك تبكي!

لكنّني هرعت خارج الغرفة جاهشًا، "مريم" الجميلة تحتضر، شعرت وكأنّني أحتضر، لا تتركينا يا "مريم" وابقي بيننا، كيف تأتينا السعادة دونك؟

ومرّ وقت طويل، بعد أن علمنا أنّ القّس "أنطوان" نصحها بالذهاب إلى الدّير، كنت أشتاق إليها، وكان شيء ينقص حياتنا. كنت لم أزل أتذكّر ابتسامتها الشاحبة وحياءها الشديد، وأنا أشعر حين تستقر في ذهني بأنّ الملائكة كذلك تخفق بأجنحتها في ذهني، خلال هذا الوقت، تبدّل صوتي، ونما جسدي قليلاً، وبعد زمن، تبدّل صوتي شيئًا فشيئًا، واكتسب حلاوة ما، حتّى أسند لي البعض مهمة الأذان في المسجد، لبضعة أشهر، فكنت أبتسم وأنا أرى وجهها أمام عينيّ، فأغمضها قابضًا على هذا الوجه، وينطلق صوتي مجلجلاً، وأحيانًا، وأنا خارج من المسجد بعد الصلاة، أراها في زّي الراهبات ملاكًا محتشمًا، استردّ بشكل ما نضرة الحياة، كانت تخرج للحظات تقضي بعض المهام، ثم تعود للدّير، بخطواتها الخجول، وعينيها اللتين لا ترتفعان إلى أعلى، كأنّهما لا تريان أيّ بشر حيّ.

لم ينقطع حلمي بـ"مريم" قط، دومًا تزورني في الحُلم.

5

لم أزعم أنّي قد أحارب هذا العالم وحدي، فإذا زعمت، لابدّ أنّي أهذي كعادتي، كان يُمكنني أن أفترض هذا لو أنّ الزّمن يعود للوراء، لو أني أستعيد من تلاشوا في غيبة هذا الزّمن قسرًا. عدوت بعيدًا عن المعبد، ورأيت شيخ المرأة واقفًا يرتدي لباسًا أخضر وفي يده سرج حصانه ذي الأجنحة، واقفًا وكأنّما يهزأ بي، ووجدتني أختنق، أجل لا يُمكنني محاربة هذا العالم، لأنّ الذي يقرّر أن يحارب العالم هو إمّا مجنون وإمّا إله، وأنا لست إلهًا، وإن أصابني بعض الجنون. واستقرت بي قدماي تحت نخلة وارفة بالبلح الأسمر المنتفخ، وكان مربوطًا فيها حمار ينهق يتدلّى من جانبي بطنه قفّتان مليئتان بالبلح، بدا يشتكي من شيء، اشتممت رائحة البلح ومارت بطني، لم أعُد أذكر متى تناولت آخر وجبة طعام، ربّما أول أمس، وربمّا قبل ذلك بيوم، الذي أذكره أنّي لم أتناول أيّ طعام منذ ركبت قطار الصّعيد، أولاً لم يكن معي غير ريال فائض، وها هو سوف يُستنزف لقاء جلباب جديد، ثانيًا لم أفكّر جديًّا في معنى الجوع، كان الذي يستحوذ عليّ هو الاستقرار، في أيّ عمل وأيّ بلد، هربت من حفلات الدّم التي أرهقت بلادي، هربت من رسول الموت، فهل هربت حقًّا من الضياع بمفهومه المفجع؟

خشيت كثيرًا من عادات أهل هذا المكان، يُثيرون جنوني أحيانًا بودّهم الذي لا مبرّر له، ثم احتدادهم على أهون الأسباب، ولأمور لا تستدعي، رأيت عركة بين عربجي حنطور وصاحب دكّان، الثاني منعه من أن يركن

أمام باب الدُكّان، والأول رأسه وألف سيف أن يركن، ليُطعم حصانه بعد يوم حار لم يذق فيه الحصان لا الطعام ولا الشراب، قلت في نفسي تثور لأجل حصان جائع! ولا يثور أحدكم لأجل إنسيّ كاد الجوع يُهلكه! العربجي تناول كرباجًا ونزل على صاحب الدُكّان ضربًا، فخلع الرّجل جلبابه وانقضّ على العربجي، وتلاحما، ودامت العركة ما يناهز نصف ساعة كاملة، تدخّل أثناءها بعض الرّجال، وأجبروا العربجي على أن يرحل، لكنّ العربجي نظر لصاحب الدُكّان وصاح:

- الحبل على الجرّارات.

لم أفهم معنى هذه العبارة، أدركت فحسب أنّها نوع من أنواع الوعيد، عرفت فيما بعد أنّ ظنّي كان صائبًا.

بعد العشيّة عُدت إلى "بنداري"، كنت قد اشتريت جلبابًا من الصّوف بنصف ريال كامل، واستطعت أن أتدبّر بالسؤال طريق العودة إلى شارع المحطّة، بدا "بنداري" مفزوعًا حين رآني، واستقبلني يهتف:

- أقلقتني عليك يا كُردي! نهار بطوله لشراء جلباب! حسبتك تهت!

- والله صدقت يا معلّم، قد تهت فعلاً وحدثت معي بضعة أمور أخرى.

- خير.. خير.

وجلسنا في غرفته الكائنة بجوف الفُرزة، أثار انتباهي لغط الموجودين وكانت أمامهم زجاجات الخمر، عرق بلح وزبيب، كما استهوتني رائحة نفّاذة طالعة من حجارة "الجوّز"، عرفت من المعلّم أنّه حشيش، ولم ينس أن يقول: حشيش أصلي يا كُردي.

- أعرفه يا معلّم.

كنت صغيرًا عندما اشتممت رائحة دُخان الحشيش أول مرّة، كانت أمّي جالسة أمام بيتنا في الدّرب تخمّر عجين الخبز تحت نور الشّمس، ومرّ أحد المشايخ وفي يده لفافة طويلة منبعجة، وكان يخرج منها دُخان لُونه يميل إلى الزرقة، وحيّى أمّي ثم مضى ودُخانه لم يمض، ظلّ الدُّخان منتشرًا في الجوّ وأغمضت عينيّ وأنا أستنشق عبقه، دكّتني أمّي بيدها الملتصق بها بقايا العجين، وقالت:

- افتح عينيك يا ولد، عيب.

- ما هذا يا أمّي؟

- هذا بلاء أسود اسمه حشيشة.

يستمر زبائن الغُرزة في شُرب الحشيش، وتقرقر "الجوّز"، وتتصافح أكواب الفخّار المملوءة بعرق البلح والزبيب، والمعلّم "بنداري" يتطلّع في جلبابي معجبًا، بدا عليّ شيءٌ من التغيير، لكنّي كنت في حاجة أيضًا لقسط من الماء أدعك به جسمي عقب هذا المشوار الخرافي، أحسّ المعلّم بخواطري، فصاح ينادي صبيّه:

- "فوزي".

هرع "فوزي" وفي يده حجارة وأكواب وصواني، سندها فوق إحدى الترابيزات ومسح يده في جلبابه واقترب من المعلّم.

- جهّز جردل مياه ساخنة في الحمّام للكُردي.. بسرعة يا ولد.

ثم مال عليّ قائلاً:

- لكن صحيح، لم أعرف اسمك يا كُردي؟

أجبته بعد تفكير قصير:

- اسمي "عبد السّميع"، "عبد السّميع" يا معلّم.

6

ركبنا الحنطور في صباح اليوم التالي، ومررنا على زراعات حذاء سور المعبد، وكنت متأهّبًا للعمل في سراي باشا من أعيان البلد اسمه "زناتي"، وقال لي المعلّم:

- إنّما خد بالك يا كُردي، الباشا رجل كريم وابن بلد وشهم، لكن خُلقه ضيّق.

أخذ البغل يتمايل ونحن ننعطف بين دروب ضيّقة وشاهدت نساء جالسات أمام مداخل بيوتهنّ، يريننا فسرعان ما يدارين وجوههنّ بالطُرح، ثم بلغنا ساحة كبيرة في مركزها صينية، يقف حولها باعة العاديات والحُلي وحولهم بضع أجانب، التففنا حولها، فقابلتنا أشجار عالية لا تصل إلى قممها أبصارنا، ومن تحت هذه الأشجار بوّابة حديدية ضخمة، كانت البوّابة مفتوحة، وأمامها يجلس بوّاب نوبي بجلباب أبيض وطاقية مزركشة.

ركن المعلّم حنطوره جوار سور السراي، ثم تقدّم على البوّاب فصافحه وأدركت أنّ ثمّة معرفة قديمة بينهما، لوّح لي بيده فدلفت من ورائه، ومشينا في طريق طويلة تحفّها أشجار دوم وعنب، وكانت طيور مختلفة الألوان تغرّد بين غصون الشّجر، استحوذت عليّ روائح الشّجر فهفّت نفسي للذكريات، لكنّي رحت أتأمّل حدائق السراي والخدم ممسكون بخراطيم يتدفّق منها الماء مزبدًا برغوة لتنتعش الزهور وتنفض

عنها كسل الصّباح، وكان الباشا جالسًا واضعًا ساقًا فوق ساق، ويطالع كتابًا. هرول إليه المعلّم فطوى الكتاب ورمقه بعينيه من خلف نظّارة، ولم تتبدّل تعبيرات وجهه، ظلّ حاجباه منعقدين، كان وجهه مخضّلاً برونق العزّ، ومشربًا بالحمرة وكأنّما وجنتيه يكبّان دمًا، غير أنّي لاحظت خضار عينيه واتّساعها، وأهدابه الطويلة التي تسقط عليهما، وكان شاربه أصفر، منمّقًا، رفيعًا بخطّ ممتدّ امتدادًا أفقيًا حتّى شفتيه، وكان يرتدي برنيطة بنيّة اللّون، وقميصًا نصف كمّ حريريًا.

هبط المعلّم على يده يقبّلها، ومن بين شفتين لم تتحرّكا همهم:

- أهلاً يا معلّم.

ثم راح يجوّب فيّ بعينيه، وبسبّابته أشار نحوي يقول:

- أهذا هو الكلّاف الذي حدّثتك عنه؟

- هو يا معالي الباشا.

قال لي باقتضاب:

- اسمك!

ردّ عليه المعلّم:

- "عبد السّميع" الكُردي يا باشا.

اعتدل قليلاً وبدا الاهتمام على وجهه وهو يستطرد:

- هاه.. كُردي إيراني ولاّ سوري ولا تركي؟

- كردستاني سعادتك.

ضمّ حاجبيه ثانية وقال مدّعيًا انهماكه في الكتاب:

- مقاوح من أولها، طيّب، عمومًا يا معلّم خذه الإسطبل وعرّفه على الخدم.

فانصرفنا، وقال لي المعلّم:

- أسوق عليك النبي لو نفسك تكمّل في هذه الشغلانة خلّي رأسك مداسًا للباشا، ولا تسأل ولا تتحدّث كثيرًا، وكن مبتسمًا في وجهه، طائعًا منصاعًا، كُل عيش يا كُردي، أظنّك لا تعرف أنّ الباشا أصوله تركيّة؟!

ثم برطم وأنا سائر جواره:

- شكلي سأندم إنّي توسّطت لك يا كُردي! أنا كان مالي؟ إلهي تنحرق يا "سِكيّ" مكان ما تكون يا شيخ.

دخلنا الإسطبل، كان ممتدًّا طولاً وفيه قرابة العشر غُرف، وراء كلّ منها حصان أو فرس، وينتشر الخدم يهرولون لتلبية طلب أو قضاء مصلحة، عرّفني المعلّم على كبير السائسين، وكان اسمه "بيومي"، صافحني الرّجل بحرارة، وكان ضخمًا كتفاه عريضتان، وله أنف كبيرة سوداء، لونها أغمق من لون وجهه الأسمر، قال لي "بيومي":

- أنا عمّك "بيومي"، من "القرنة" غرب البلد.

واتّجهنا إلى غرفة في نهاية الإسطبل، بعد أن ودّعني المعلّم "بنداري" وقال لي:

- لا تنس أن تمرّ عليّ، سلام يا كُردي.

لكنّي أوليت ظهري لـ"بيومي" وناولت المعلّم الريال، فابتسم يشكرني، وأضاف:

- في رعاية الله.

وضعت صرّتي فوق سرير من جريد، عرفت أنّه أصبح سريري من اليوم، وقال لي "بيومي":

- اليوم راحة، اعتبره إجازة، يبدأ عملك من باكر.

وتركني وانصرف، ففردت جسدي على السرير، منصرفًا - بدوري - لدوّامة النّوم.

7

استيقظت في المساء، كان جسمي كأنّ قطارًا مرّ عليه ومزّقه أشلاء، خرجت من الغرفة ولم أجد أحدًا من الخدم، ومن بعيد أصوات زمر وطبل كانت قادمة نحوي، خرجت من الإسطبل، وفي ساحة السراي رأيت الخدم ملمومين جميعهم حول حلقة من زمر، انتبه "بيومي" لي، فصاح:

- صحّ النوم يا كُردي، تعال.

انسللت وسط الرّجال، وقدّم لي "بيومي" قدحًا من الشاي بالنعناع، سألته:

- ما هذا يا عمّ "بيومي"؟ زفاف!

فضحك ضحكة جوفاء، وقال:

- زفاف! الله يخيّبك يا كُردي، أبدًا يا سيدي، الباشا اليوم عيد ميلاده، الكلّ موجودون داخل السراي، إنّما نحن سمح لنا على استحياء أن نحتفل به بالرباب.

ضربت عينيّ يمينًا فرأيت أضواء متألّقة تسطع قادمة من خلف زجاج النوافذ المغلقة، وعدت أرمق المنشدين، وكان صوت الرباب مخمليًا تسرّب إلى نفسي، كانت الرّبابة مصنوعة من خشب الخيزران، ومشدود عليه خصلة من شعر خيل، ورقبتها من خشب الزان ووجهها مصنوع من جلد ماعز، كان العازف يمرّر القوس على الوتر الواحد

ويلمس بأصابعه الخمسة، وكان منتشيًا وهو يصدح مغمضًا عينيه ورأسه مائلة على رقبته:

يا بنتي أنا صعيدي

وشايل قلبي على إيدي

يطول بالليل موالي

وأنا ساكن في تنهيدي

وأغزل م الحنين توبي

ناسي كلّ مواعيدي

وكان الخدم مندمجين، بعضهم أراح عمامته قرب عينيه وانسطل، والبعض الآخر يصفّق، وعمّ "بيومي" يهتف:

- الله الله يا سيدنا، أكمل أكمل.

والعازف يشدو:

ولا يهمك من أمّك ولا عمّك

ده أنا بحلم أكون ضلّك

وبحلم أكون فرحك أكون همّك

وف عز الشوق أنا أضمّك

وأشيلك وأشيل عنّك

وتضبّبت دماغي، ورأيتني جالسًا مع "زينب"، أقول لها:

- كم بودّي أن أحمل عنك الألم.

فتضحك، لكن عينها تروحان عنّي، كنت أعرف أنّ شيئًا يغصّ في جوفها، فقلت:

- "زينب".. أخرجي من الأسر واكشفي عن وجيعتك.

ظللت يا "زينب" تتطلّعين نحوي، عيناكِ تدعوني للحديث، وقلبي يدعوني للانتظار. لعلّي أعرف أنّ مجرّد الحديث عن أيّة أوجاع سيحيها، لذلك فأنا أكتم تساؤلاتي وأصبر، إنّما ضحكتُ ضحكة خاطفة وقلت:

- لن تتخلّصي منّي بسهولة.

ضحكتِ، ولكن شيئًا مجروحًا في داخلكِ يضحك بشجن، ثم نظرتِ لي كأنّكِ تقولين: لا تقلق سيأتي الأوان، لن أجهد نفسي في تدبّر مجرى للحوار بيننا، كلّ ما في الأمر أنّ قيدًا يغلّل بواطن عقلي فيمنع لساني.

قالت:

- عليّ أن أفكر فيما سيحدث غدًا.. أن أنسى الماضي ولو بشكل مجازي.

- الماضي دروس.. ينبغي أن نتعلّم منها ما يجعلنا أكثر قوة وشجاعة.

ورحنا بعينينا نحو السماء، كانت قطرات صغيرة من المطر تتساقط على وجهينا، تتلوى ملامحنا، تلتمع عيناكِ، أقول وأنا أنظر نحوكِ:

- هل رأيتِ؟ السماء تحثنا أن ننسى كلّ شيء، أن نُهطّل كلّ الذكريات المريرة خارج عقولنا ونبدأ صفحة جديدة، تمامًا كهذا المطر، ينزل بكلّ الضباب والغيم والأرق، ليبدأ يوم جديد في عمر السماء.

كانت الزهور تتضوّع وتترنّح حولنا، سعيدة بقدوم المطر، أشرت ناحيتكِ وقلت:

- هل تعرفين أسماء هذه الزهور التي تملأ الحديقة؟

هززت رأسكِ نافية، وضعت يدي فوق كتفك وأكملت:

- لنفعل شيئًا مفيدًا إذن.. سأخبرك عن أسماء الزهور.

بدأ المطر في غسل بعض الضعف الذي كان يسكننا، فبدوتِ أقوى من العادة، وبعض الذكريات راحت تتساقط منّي مع قطرات المطر، راحت تصغر، تنكمش، أدرت وجهي نحو وجهكِ، كان يرتعش، رأيته كأنّه طاقة نور تود لو تنطلق إلى الفضاء، لامسته بأناملي، ابتسمتِ ابتسامة طفيفة مرتجفة وألقيت برأسكِ على صدري، وكان أمل يأتي من بعيد، لم أكن متعبًا فحسب، ولم تكوني، كنّا كأنّنا ضائعين، رحت أنزلق إلى نهر هادئ فاتر الماء، يحملني فوق أمواجه ويختلج بي في غبطة، كانت أمواجه تحملني بعيدًا، وكنت قد قاربت أن أذوب في ثنايا لحظة مختلفة.

تختلف كينونة المرء من آن لآخر تبعًا لما تفرضه المآسي، تساءلت: أيّ الغرائز أشد تأثيرًا! غريزة الحبّ! أم غريزة الفقد!

8

اصطحبني "بيومي" ومررنا بحجرات الخيول، ثم أعطاني مفتاحًا نحاسيًا مربوطًا بدوبارة، وقال:

- هذا مفتاح شونة التبن والبرسيم، كلّ صبح سيأتي لك مزارع، استلم منه علف اليوم.

ورحت أراقب الخيول وهي تداعب الأرض بحوافرها، وظلّ "بيومي" معي طيلة الصبح يعرّفني قوانين السراي وأماكن العلف والتبن والحشائش، كذلك مضى يعلّمني عن طبائع الخيل، وقد اعترفت له أنّي مستجدّ في هذه الشغلانة، وكان يقف أمام حجرة حجرة ويقول:

- هذا العسلي عربي أصيل، وهذا الأشهب وهذا الأبيض، والأسود، أمّا هذا الأشقر فهو حصان بربري أصلي، لا توجد هنا خيول مهجّنة.

وأخبرني أنّ الباشا يختار خيله بعناية ودقّة، ومعظمها يختاره بنفسه، بحِجل وغُرر، يتفحّص أعينها، ويتأكّد من وسعها، ويتأكّد أن ظهورها مستقيمة وقوائمها منتظمة وعضلاتها قويّة وخصورها ضيّقة.

- تعرف يا كُردي، الخيل العربي أعرق سلالة خيل في العالم وأغلى خيل وأجودها، العرب كانوا يهتمّون بالحفاظ على أنساب الخيول الممتازة ويهتمّون بسلالاتها، الخيل العربية معروفة بشكلها الحلو وأعضائها المتناسقة وحركتها الرشيقة، أيضًا تجري كما لا تجري في سرعتها خيل أخرى، ذكيّة، ويُمكنها التكيّف مع كلّ الأوطان.

هل يمكنني أنا أيضًا أتكيّف مع جميع الأوطان يا عمّ "بيومي"؟ دارت رأسي قليلاً، لكنّه أكمل:

- كذلك تعتبر سلاسة الخيل العربي من أقدم السلالات لأنّ دمها أصيل، وشُجاعة لا ترهب حاجزًا ولا إنسًا ولا جنًّا.

وأخذ يحسّس بيده على ظهر أحد الخيول، ويقول:

- ربنا سبحانه وتعالى ذكرها في القرآن (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ). صدق الله العظيم.

كانت أشجار التين والنبق مترامية من وراء حجرات الأحصنة وفروعها ممتدّة تطلّ من فوق أسقف هذه الحجرات كأذرع إخطبوط، ثمارها تتدحرج فوقنا وبعض حبّات النبق تسقط داخل شعر رأسي، معظمها عطن ضربه السوس، تقدّمني "بيومي" وانتظرني فخرجت، سحب باب الإسطبل وراءه وجلسنا حول طبلية خشب كبيرة نتناول مع الخدم طعام الإفطار، كان عبارة عن مشّ وجبن قريش وبيض في طاجن وعسل أسود وبصل أخضر وكرات وجرجير، وعيش شمسي منتفخ بثلاث آذان، كان يُشبه الخبز في كردستان، إنّما خبزنا كان تخمّره أقل ومستطيلاً عكس العيش الشمسي المستدير، وله أذنان، واحدة في طرف الرغيف والأخرى في الطرف الثاني. نزلت على الأكل لا ألوي على شيء، كنت جوعانًا حدّ السعر، لكن ما إن هممت ألتهم الطعام، حتّى علا صوت الباشا من "فراندة" السراي ينادي:

- يا كُردي.

هرعت إليه، وبقايا المشّ لم تزل عالقة بفمي، مسحت يديّ في كمّ الجلباب وأشار لي بسبّابته فتبعته داخل بهو السراي، وقفت قليلاً أجوّل بصري في حشايا البهو، كانت ثريا من كريستال يُشبه الألماس في لمعانه تتدلّى من السقف، وكان مزدانًا بألوان خلّابة، وكان السّلم الطالع للطابق الثاني ملفوفًا مستديرًا وفي استدارته تتراص لوحات على الجدران جوار بعضها البعض، لم أفهمها، وفي البهو تترامى الحشايا والتكايا في كلّ ركن، وثمّة أباليك بارزة من عباب الحوائط، وتحف وتماثيل ونباتات، وفي يمين البهو، كانت صورة كبيرة معلّقة للباشا صاحب السراي.

إنّما ما لفت انتباهي أكثر، هو اللّحن الطالع من يسار البهو، ضربت عينيّ، وكانت فتاة جالسة خلف ستار شفّاف تداعب بأناملها بيانو بطول جدار، استوقفتني بطلّة نحوي، ولم تزل أصابعها تجري فوق أزرار البيانو، كانت عيناها تشعّان حزنًا أدركته من فوري، فإنّ أصحاب الحزن يشعرون ببعضهم، طالت نظرتها لي، ورحت أتأمّل جلستها خلف البيانو، كانت قدماها بالكاد تلامسان الأرض، جالسة فوق كرسي مذهّب، وشعرها كستنائي اللّون، وبشرتها خمرية، ترتدي "دريل" بلون دمّ الغزال، ولم تطُل نظرتها، إذ سرعان ما ارتفع صوت الباشا ينادي ثانية، استدرت نحوه وقد جلس على كرسي وفي فمه سيجار فاخر.

- خلّي "بيومي" يعرّفك على الفرس "مزيانة"، أريدك أن ترعاها وتوليها اهتمامًا خاصًا.

- أوامرك يا باشا.

وانحنيت وأنا أتقهقر بقدميّ إلى الوراء، ثم جذبت الباب خلفي وأنا خارج من باب السراي، وكان الخدم جالسين لا يزالون يلتهمون طعام الإفطار. لكنّ فتاة السراي كان جوفي قد امتلأ بها، فلم أشعر أنّي في حاجة لمزيد من الطعام، انتظرت "بيومي" حتّى يفرغ، ثم ذهبنا إلى الإسطبل ليحدّد لي الفرس "مزيانة"، وقال:

- هذه الفرس غالية قوي عندنا، فرس الهانم الصغيرة.

فطنت أنّ الهانم الصغيرة صاحبة الفرس هي نفس الفتاة عازفة البيانو، دخلت إلى "مزيانة"، كانت فرسًا يخامرها الانطواء، واقفة عند آخر ركن من أركان الحجرة، وعيناها شبه دامعتين، قال "بيومي":

- إنّما احذر، السّت "مزيانة" لها معاملة خصوصي.

ولوى فمه بابتسامة متهكّمة، وتركني مع "مزيانة"، اقتربت منها لكنّها حرّكت قوائمها خطوتين للوراء وحمحمت ثم أدارت وجهها عنّي، وإن ظلّت تتابعني بعينها المتألّقتين من جنب، رفعت دلو الماء وغطّست فيه الليفة ثم مررت على جسمها بالماء، بدت استراحت لي، والخيل الأخرى تصهل من بقيّة الحجرات، خلّلت بأناملي شعر رقبتها الكثيف الأسود، ثم دنت بأسنانها من يدي تتناول حزمة برسيم، وفجأة نفّضت رأسها فتقاطر الماء عليّ، غير أنّها سرعان ما استكانت ثانية واستجابت لراحة يدي التي توسّدت خصرها، ثم أزّ باب الحجرة، وإذ بي أجد عازفة البيانو أمامي، شُدهت قليلاً وهي تتقدّم نحو "مزيانة"، ربّتت على ظهرها دون أن تنظر لي، ثم قالت ولم تكن تنظر لي أيضًا:

- أنت الكلّاف الكُردي الجديد؟

- نعم يا هانم.

اكتنف وجهها تعبير جادّ وهي تُكمل:

- لا أعرف لمَ يهوى أبي تشغيل الغُرب؟ السودانيين والبدو والكُرد! هذه البلد تعج بالعاطلين الأبرياء!

قلت وقد آلمني تصوّرها:

- ليس لي ذنب يا هانم في الهجرة، مثلك أنحدر من نسل لم يعرف الّذل ولا الهوان، لولا الحرب.

- وهل ساويت نفسك بي لمجرّد أنّك مهاجر بائس؟

أوغرت في نفسي سخطًا تجاهها، لم أكن أعرف أن الوجه الرقيق قد ينشقّ عن قسوة كهذه! اكتفيت بأن تنهدّت وأوليتها ظهري.

- ألا أخاطبك أيّها الكلّاف؟

- تحت أمرك يا هانم.

زفرت وفي يدها طبق، ناولت منه الفرس قطعًا من السكّر، وكان يشفّ ملامحها حزن كامن، لكنّها استدارت نحوي وقالت:

- اهتم بها جيّدًا، سوف اعتبرها من اليوم عهدة لك، وإلاّ..

ثم لم تستكمل خطابها، ومضت، ثم وقفت قليلاً أمام باب الحجرة وقالت:

- صنف نمرود أنتم أيّها الخدم.

ورمتني بنظرة لم أعرف معها هل كانت تستوقد بداخلي السخط أكثر أم الشفقة!

فوق السرير الجريدي تمدّدت استدعي النّوم، بلا جدوى، تنشغل رأسي في المساء بهواجس الماضي، لكنّ الهانم عازفة البيانو كانت على مقربة من تلك الهواجس، مقربة كافية كي تجعلني أستبدلها ببعض الأفكار، وكان الهواء البارد يرقد حولي جامدًا، وكان قلبي يتقافز بعيدًا، حيث شمس مدينتي وفضائها، حيث الأجسام المشتعلة والأشلاء، حيث القبور والخلاء وأرواح الأهل التي لم تزل جارية بين أرض وسماء. في "السليمانية"، عندما كنّا نزور جدّي، كان يُمكنني أن أطلّ معه على أرواح تعيسة تهوّم في السّماء ليلاً، كان يشير لي نحوها ويهتف:

- أنظر يا حفيدي، إنّ الأرواح تقترب من الأرض.

كنت أرى دُخانًا ونورًا وضبابًا، وكنت أرى الفضاء يربد بضوء نافق، ولمّا رأيت الأرواح، سألته:

- لكن يا جدّي لماذا لم تستقر هذه الأرواح؟

- لأنّ لها على الأرض أحبّة.

- إذًا كلّ الأرواح لا تستقر؟!

- وهل كلّ الأرواح لها أحبّة يا ولدي؟

وكنت أختلس دفتر جدّي عندما يكون في سباته العميق، لعلّه كان يعرف، لكنّه كان يدعني أتلصّص على محاوراته التي يخطّها بالحبر داخل دفتر متهالك، لم أكن أفهم شيئًا ولا أريد، إنّما كان يأسرني الشغف لترجمة خواطر جدّي تجاه هذا العالم. قالت لي أمّي أنّ الزّمن أخذ كلّ شيء تركه جدّي، أخذ منه الأصدقاء والأقارب والأحبّة، وكان ميراثه لا شيء غير هذا، وحين رآني جدّي أصعد الشّجرة لجلب ثمار

الخوخ، ضرب على صدره وصاح: انزل يا "زاخولي". كان الجميع يعرفون إنّما جدّي رفعني لمكانة خاصة ويخشى عليّ خشية عظيمة، لكنّي كنت أداعبه وأدّعي السّقوط، فكان وجهه يمتقع، وكان يغضب منّي، بل وكان يخاصمني بالأيّام.

ولمّا مات جدّي، أزعم أنّي استطعت أن أرى رُوحه مارقة في الفضاء، رأيت الدُخان ومن بين خيوط الدُخان رأيت وجهه، وكان يبتسم، وعرفت أنّ رُوحه لن تستقرّ، لأنّ لها أحبّة على هذه الأرض.

وماجت رأسي بدُخان الحرائق، ورأيت جميع أرواح الراحلين، جدّي وأبي وأمّي وعروسي، و"مَدّ" التي شاه وجهها مع مضي الزّمن، رأيتني يوم تسحّبت أناملي - رغمًا عنّي - ولمست يد بنت العمّ الموضوعة فوق المنضدة برفق، فأجفلت وكأنّها أفاقت، كانت عيناها تلمعان بدموع مثل اللؤلؤ وهي مثبّتة نظراتها عليّ، حضرت أمّي وأراحت كوب الشاي أمامها، ثم تسمّرت لثوان وهي تحدّق في يدها المختفية تحت يدي، ثم ضحكت في لطف وابتعدت عنّا تتغمّز لبنت العمّ.

واجهشت "زينب" في البكاء فجأة.

- أخشى عليك منّي، لا أعرف ما الذي يدفعني لهذا، ولكن أمّنا "حواء" طردت "آدم" من الجنّة، وأخشى أن أطردك من جنّتك، أن أصبح قيدًا في حياتك.

قلت وأنا أضحك:

- كان "إبليس" يا حبيبتي.. وليست "حواء"..

- ساعتها كان إبليس منهمكًا في خلافه مع الله..

ثم شردت قليلاً وابتسامة باهتة تحتضن ثغرها وكانت تنظر في كوب الشاي، ورغم أنّي لم أعرف طبيعة الهواجس التي تتراءى لها عن علاقتنا، إلا إنّي أخذت أتأمّل في النور الذي راح يشع من وجهها.

وازدرت ريقها ثم مالت عليّ وتوّسدت صدري، وغمغمت بصوت مكتوم:

- هذه اللحظات برزخ مضيء بالعشق، أخشى من مصير غائم أراه في خيالي.

- بدأت تذكرينني بأمّي، طالما دارت برأسها مثل هذه الخزعبلات.

اعتدلت واتكأت على ظهر المسند وراحت تتطلّع لي، ثم أكملت بشيء من حسرة:

- لا أرغب في الحقيقة أن أكتشف فجأة أنّ كلّ هذا مجرد يقظة مؤقتة، هدنة من تلك الجراح التي يبدو أنّها لن تندمل قط، أحاول أن أنظّم حياتي من بداية مختلفة، غير تلك البدايات القارحة، التي رأيت فيها مدينتي ترضخ لغزو الغرب، ضاع كلّ شيء هناك، واليوم أحاول أن أثبت لنفسي أنّ جلال التغيير يكمن في ترميم كلّ الندوب القديمة، أنا لا أتكلم برثاء يا حبيبي صدقني، ولكنّني أجاهد الإبقاء على كلّ ما هو جميل ومضيء في حياتي الجديدة، وكلّ هذا يعني باختصار أنت، أنت بكلّ ما تحمل من دفء ومن براءة، والسبيل الوحيد أن يصبح كلّ ما كان - مخلّفًا تشوّهات لا تزول - بلا فائدة، هو الهروب إليك، نعم، الذهاب معك نحو ذلك العالم الذي لا أفق له، فهل تستطيع هذا معي؟! أنا مللت كثيرًا من الهروب السابق دون جدوى، وربما لا تدري أنّ كلّ الطرق قد تقطّعت بي، لطالما صرخت وانتحبت وضاعت براءة

طفولتي، براءة كلّ مشاعري البكر، أسوأ ما يمكن حدوثه في حياة الطفلة أن تنتزع منها البراءة حين غرّة!

في قرب الظهيرة تكون الشمس سيفًا مشرعًا في وجوه الخلق، سيفًا ذهبيًّا برّاقًا، لا تستطيع عين أن تطيل النظر إليه، وفي جلبة المدينة، كان ملجأنا الجرف المليء بالعشب الأخضر قُرب ضفّة النهر، مشينا داخل جنينة من الشّجر وحولنا العصافير، تحيط بنا جداول نبتت حولها زهور موشّاة بألوان حمراء وبنفسجية وصفراء، عبق أنفينا عطر هذه الزهور فرحنا ندور حول الجداول كأنّنا دائخين، ومن بعيد تبدو قباب البيوت كأنّها أثر بالغ القدم، يحدّ البصر بدوران الجرف، لونها أقرب للّون صخور جبل طوروس البعيد، قلت لها:

- بالطبع تعرفين أسماء كلّ هذه الزهور؟!

فابتسمت بشحوب، ومضت جلست قرب أحد الجداول فتبعتها، وغمست أناملها في غدير الماء، وقطفت زهرة وراحت تمسح بها خدها، أسبلت جفنيها وقالت متمتمة:

- كم تمنيت أن يثمر قلبي مثل هذه الحديقة! أن يكون مليئاً بكلّ أنواع الزهور، التي أعرفها والتي لم تعرفها أرضنا، كم تمنيت أن يعيش قلبي في ربيع أبدي!

كان رزاز مياه النّهر القريب والذي يتدفّق موجه يضرب شطّ الضفّة فيُغرقنا يوخز بشرتنا بلطف، وكانت أعمدة رهيفة متلألئة صاعدة لأعلى تتماس وخيوط الشمس، فتضرب أعيننا ببريق أخّاذ، تعاود السقوط إلى أسفل في غنج باستدارة وفي دلال كأنّها راقصات يتضوّعن، يبتسمن في وجهينا. لم تحوّل بنت العمّ عينيها عن حبال

المياه المجدولة برقة، كانت تتأمّلها في نظرة شاردة غير ثابتة وكأنّها تروم احتواء كلّ التفاصيل في نظرة واحدة. مدّت يدها أمامها بالوردة الموشكة على التهدّل، وأخذت تفرك عودها الأخضر بين أناملها بتؤدة جيئة وذهابًا، فتتطوّح الوردة يمينًا وشمالاً، وكانت خصلات شعرها الأسود قد تداخلت بسبب البلل والتصقت بجيدها.

تنهّدت، مالت برقبتها تشتّم الزهرة، كانت توشك على البكاء ثانية، تهدّج صوتها وهي تقول:

- هل يُمكن أن يظلّ المرء حبيسًا خلف قضبان الماضي؟

وتحشرج صوتها، سقطت الوردة من يدها وارتمت نحوي، تلقّفتها فوق صدري وضممتها بقوة، كانت تبكي بكاء اليأس، وأخذت رأسها تهتز، وراحت تشهق شهقات خافتة متواصلة وقد خبا وجهها المتورّد، واغرورق بالدموع.

كان الرزاز يتناثر فوق وجهينا، وبضع حمائم تحوّم منتعشة حول المياه المتدفّقة الطالعة إلى أعلى.

وقُرب الفجر، كانت يد "بيومي" تهزّني في شدّة، وتوقظني من نومي العميق، استيقظت، وكانت جسدي مبتلاً بالعرق، أدركت أنّي رحت أخرّف أثناء نومي، وكان "بيومي" مفزوعًا حين نهضت وحملقت في وجهه، ثم قال:

- بسم الله الرحمن الرحيم، كأنّك ملبوس يا كُردي!

كان التوتّر باديًا فوق ملامحي، ورحت أرتعش مثل هرّ يحتضر، فقال "بيومي":

- لا، أنت لازم تروح لشيخ.

ضحكت ساخرًا منه، لكنّه عقد حاجبيه وأضاف:

- لا تستهن بكلامي! والله أنت ممسوس، ولا يستطيع أن يخرج المسّ من جسمك غير الشيخ "أبو الزّمن".

- "أبو الزّمن" من يا عمّ "بيومي"؟ كان كابوسًا فقط.

وتنهّدت ثم أضفت:

- أو ربّما حلم جميل، لم أعُد أدري؟

- لا يا ولدي، صدّقني، جسمك ليس خالصًا، "أبو الزّمن" جوار المعبد، يعني مسافة السّكة، هل ستخسر شيئًا إذا قرأ عليك بعض القرآن؟

- أنا لا أؤمن بهذه الخرافات يا عمّ "بيومي"!

- الرجل بركة، سيتلو عليك قليلاً من القرآن ليصفو جسمك وتصفو رُوحك.

- سامحني يا عمّي، ذكريات الوطن فقط هي التي تجعل رأسي غير صافية.

- كلّنا يا كُردي لدينا ذكرياتنا، المهمّ ألاّ تستغرقنا هذه الذكريات فنتوه في عوالمها.

- عندك حقّ.

- خلاص، كلها ساعتان ويشقشق نور الله، ستأتي معي للشيخ "أبو الزّمن" رغمًا عن أنفك، واعتبر أنا من سأحاسبه، هو رجل بركة ولا يطلب الكثير.

- أعفني من هذا المشوار.

- يا كُردي اطمئن على نفسك، لن تخسر شيئًا، اللهم بلّغت اللهم فاشهد.

وتركني تساورني الذكريات.

إنّما لّما انبسط ضوء الشّمس فوق الزروع، وفرش أبهّاءه على جدران المعبد ورمل التباب، انشغلنا مع الباشا في السراي، وجاء لي "بيومي" قبل المغربية، مصمّمًا أن نزور الشيخ، بعدها كنت راكبًا الحمار خلفه متّجهين إلى الشيخ "أبو الزّمن".

دخلنا من صدر المعبد، وكانت الأرضُ تميل، والشّمسُ تذوب، والشّمسُ إن الأرض مالت، غابت خلف ستائر الأفق، وفي غيبة الظلام، بدوت كأنّي لا أستوضح من الطريقِ ملمحًا، وكأنّنا لن نبلغ وجهتَنا أبدًا، كانت حجارة معبد "الكرنك" مترامية من جميع الجهات، غير أنّ "بيومي" أخذ يلكز حماره بكعبيهِ، يستحثّه، فيتقدّم الهوينى، ورهبةُ الظلمة تغلّف خطواته، وقلت في نفسي: مسافة السّكة صحيح! ظلّ يمدّد البصرَ، وبدا كأنّما لا يستوضح من انحناءات الطريق إلاّ ما يظهر حين غفلةٍ، عَرضًا، دونًا عن كافّة العثرات الملقاة على كاهل الطريق. الحمار يمضي بنا، وأمضي ببصرِي شيئًا فشيئًا، أحدّق في نتوء قادم يتضخّم أمام بصرِي في بطء، والحمار يقترب منه. لم يكن يعنيني - إطلاقًا - تقدير المسافة تلك التي يُمكن أن نقطعها لبلوغ بيت الشّيخ، حيث اضطررنا للالتفاف في درب مأهول جوار المعبد، كلّ ما كان يعنيني -هذه اللحظة- تقدير حجم حماقتي، وعمّا إذا كانت رحلتي للشيخ أساسًا مُجدية في نزع بواطن الأسى من نفسي! أحاط بنا الظلامُ كما لم أحتسب، والحمار

يقترب من النتوء الذي بدا أشبه بخيمة، أحاول تحديد شكل الخيمة بالتقريب، كانت خيمةً رمادية، ترتفع عن مسطّح الأرض بما يناهز المترين، جسمُها صلد، متفسّخ، أخذ "بيومي" يتحسّس هيكلَها الصلد، ثم زام، كأنّما استأثر به هاجس أنّه أضاع الطريق، أدرك أنّه أمام مُزحة حقيقية، غير أنّ الخيمة مجرّد تبّةٍ، فيرمي بصرَه، ثانية، ولو بالفضول القاصِر، رحت أفكّر: "إنّما الليل لا يُعطى له ولا منه يؤخَذ.. يٌقبل بعلاّته وإن داخلنا نحوه الكثير من الحذر والخشية".

هكذا، وبكلّ ما أوتى "بيومي" من عزمٍ، زفر، كما لو أنّه يستنطق الإرادة بداخلِه، كيما يستكمل تلك الطريق التي تبدو لا نهايةَ لها، دون أن يخالطه يأسٌ أو إحباط، وقال لي: والنبي شكلي اتلبست مثلك يا كُردي! أين بيت الشّيخ؟

باستقامةِ الطريق يسير، وباستقامتِه تتمازج الأفكار أو تتباين، لكنّي سارحٌ في فِكرة هي الأعظم ربما: هل حقًّا لبست أرواح الموتى جسمي؟

وسط كلّ هذا الكمّ من المجهول! قد يتعجّل الحمار بعض الشيء، إنّما سرعان ما يعاود بطئه، وتنتابنا حالةٌ من الحيرة غير المفاجئة، ليظهر لنا نتوءٌ جديد.

هذه المرّة يستهمّ "بيومي" حماره، يقترب على عجل، وهو يقول: هل استبدلت بيتك بخيمة يا شيخ؟ يهبط ثانية، يقف على مقربةٍ من النتوء، خيمة، نفس الخيمة، ونفس الجسم الرمادي الصلد، يحاول أن يستحدث طريقة للفهم، بلا جدوى، إنّما - رغم ذلك - مضيت أفكّر: هل مررنا هنا من ذي قبل؟ تكرار مريب!

إذا مسّنا خرفٌ في هذا الخواء فهذا شيء طبيعي، عليّ أن أتقبّل سائر معاني الخرف ها هنا، لاسيّما والجَهد ينسِخ الوعي. ومن بعيد يلوح جسر، ومن خلفه بيت "أبو الزّمن"، مدفونًا في عباب الأفق الضبابي، فتنفس "بيومي" الصعداء وهو يصيح: ها، أخيرًا يا كُردي! ثم استدار لي يقول: والله أنت مسكون بالعفاريت!

اقترنا من البيت، وفي تلك السّاعة التي تتشاجر فيها بقايا من ألوان النهار المتزاوجة ما بين الأحمر والبرتقالي، شديدة الوهن، في ساحة السّماء، ونسيجٌ شبكي من لون اللّيل يزحف ببطء ليطردها ويأخذ مكانها، كان لونُ البخور الأزرق يحتضن بيت "أبو الزّمن" الذي يتصدّر المشهد أمام أعيننا، والمدى أمام بصري مرصّع بأنوار تقفز من جوف البيت وتتناثر حوله، وثمّة أصوات آتية من جوف البيت تقتحم حدود السمع مشوشرة ومتداخلة، لكنّها عالية، ويبدو أنّ توافقًا ما يحكم سيطرته عليها. تقدّمنا، وطرق "بيومي" الباب، انتظر قليلاً، بعدها جدّ في طرقه، كان القمر يتوارى من خلف بيت "أبو الزّمن" باستحياء، متغزلاً في السّماء، تاركًا مسافة من الضوء خلف البيت، كقبّة فضيّة، ولاح لي الأفق ككتلة صمّاء من التساؤلات.

بعد قليل، انفتح الباب، ومن ورائه برز وجه الشّيخ "أبو الزّمن"، ضخمًا كان، طويلاً، إنّما جحوظ عينيه وتألّقهما منحه طاقة روحانية نفذت داخل رُوحي، تأمّلت الشّيخ قليلاً، لوى شفتيه، قبل أن يتزحزح خطوات، ويسمح لنا بالدخول، دخلنا، وقعدنا على طوار بطول الصّالة الترابية، ولكن "أبو الزّمن" استدار عنّا، لم يكن واضحًا كلامه، حين استغرق يتلو.

قال لي "بيومي": لا يُمكن لأحد أن يزور "أبو الزّمن" من الباب للطاق، إلاّ باستعداء مباشر، إمّا برسالة عن طريق أحد المريدين، وإمّا برسالة روحانية، أو تكون ملبوسًا وهو يقرأ رءوس الجميع، يعني ما كان سمح لنا بالدخول لو أنّك يا كُردي سليمٌ معاف!

قعقعةُ الخشب في ركية النار كتمزّق عضلات رجل، الجالسون داخل بيت الشّيخ يدخنون الشيشة يلتّفون برءوسهم نحونا وتنفتح أفواههم، قال لي "بيومي" وهو يهمس في أذني: لا مكان هناك إلاّ لطالبي البركة. ندفٌ مشتعلة كذباب يحترق تتطاير من قلب الركية وتفنى في الهواء، يقول "بيومي": السلام عليكم، يردّون السلام بتمتمة لا تكاد تُسمع وبأيدٍ ترتفع ببطء وتعجّب وهم يتابعون خطواتنا، والشّيخ لم يزل يتلو، ويترنّح بجسده يُمنة ويسرة. يفتحون لنا الباب الجانبي الموارب لآخره، باب الغرفة الداخلية، أرفع بصري إلى فوق، وتمامًا فوق بروز الباب العلوي من الخارج، توجد حنطة لتمساح ضئيل الحجم، إنّما تجويفا عينيه كانا غائرين غورًا أضرم في كلّ جسدي رعشة، لا أعرف أحسست كأنّ به حياة ويتأمّلني من مكانه في الأعلى بتحقّرٍ ورفض. دلفنا، رحت أتفقّد معالم البيت المُغرق في الشعوذة، الجدران ممتلئة بحبّات معقودة ببعضها من الدوم الجاف القديم وكأنّها أفئدة ضامرة يابسة، صور لمشايخ وأولياء من نواحي البلاد، كلّهم يطلّون منها في تواضع مستفز بدا مفتعلاً، أبواب الغرف مطعّمة بتشكيلات "الأرابيسك" والزجاج الملوّن، وكان دقّ الطبول يأتي من عمق البيت منتظمًا أخّاذًا، يدوّي داخل جمجمة الرأس كهدير شلال، سقف المنزل تتدلّى منه "تعريشة" من ألياف نخل تبدو كنسيج من أقمشة بالية

محترقة داكنة اللون، وأمام العين يتراقص البخور الكثيف الطالع من أطباق نحاسية تتأرجح بمنتصف الحوائط في سلاسل تشبه حبّات المسابح، كان الجو دافعًا للتّشظِّي، والستار المؤدي للحضرة داخل الغرفة ينفرج ببطء ودهشة، وأنا أدلف مرتعشًا، تقدّم الشيخ علينا خطوة أو يزيد، وجلس فوق كرسي كبير مذهّب من خشب الزان وتحته يجلس مجموعة من الرجال.

- تعالا.

دخل "بيومي" أولاً وجلس تحت قدميّ "أبو الزّمن"، سحب الشيخ أنفاسًا من جوزة غاب، واعتدل بجذعه نصف اعتدالة، بتردّد تقدّمت إليه وهو يشير لي بيده، ووقفت قبالته شبه متحجّر مُغرق في نظرة شاخصة إليه، كانت هذه هي النظرة الأولى الراسخة وجهًا لوجه، لم يكن طويلاً ولا ضخمًا كما بدا له عندما جئنا، ولا أعرف ما الذي أوحى لي بأنّه قد يثب الآن! ينفض عن جسده الملابس، ويتحوّل إلى مارد قاس خرج لتوّه من حكايات ألف ليلة، وربما يشفطني بين ضلوعه كورقة شجر خريفية عرضة ريح، لكنّه - رغم خواطري - ظلّ ثابتًا في قعدته الوقور، وبحر من الثقة يتموّج في عمق عينيه، كان كلّ شيء فيه تقريبًا مضبوطًا لأن يحتويني بهذه السرعة، ثقة متناهية، رصانة غير متكلفة، وكاريزما ربّانية، وكأنّ رسامًا بفرشاة شديدة الدقة قد أتقن خلط كلّ هذه التفاصيل، شعر الرأس الفاحم المنسدل قرب المنكبين، الوجه المشرّب بحمرة خفيفة إنّما يشع مع ذلك بياضًا كبستانٍ من فُل، لحيته المهذّبة بعناية ودقة كأنّها حُفت بموس سحري، كلّ هذا مع حضورٍ

طاغ، مثل غمامة مسحورة تلف العين. همّ "بيومي" بقول شيء، لكن الشيخ استوقفه، بينما ظللت واقفًا والعرق يغمرني.

- أقعد.

وأفسح لي مكانًا بجواره على الكرسي العريض، جلست فتابعني الرجال بأعينهم، وبدا أنّ هذا غير مألوف، وأنّ رجلاً لا يجرؤ على الجلوس جنب الشيخ، لذا جلست متقوقعًا، و مضى الشيخ يتملّى بعينيه فيّ، وطال هذا التملّي إلى أن لاحت بسمة فوق شفتيه، كانت بسمة طفيفة لكنّها تخبرني الكثير، وأردف بهدوء:

- النّار في رأسك يا كُردي.

ولم أعرف كيف استطاع إدراك هويتي! أوعزت ذلك بأنّ "بيومي" لعلّه أطلعه مسبقًا على نيّته في الزيارة، لكن "بيومي" لم يفارق السراي طيلة هذا اليوم! دنا الشيخ يمسّد جبهتي بكفه، في البدء كانت هناك سيطرة من استسلام غريب، حاول أن يتطرّق بلمساته إلى عالمي الغامض، وأخذ يتلو، ويتلو، وكنت أرتعش، وينزّ منّي عرق، وهو يتلو تلاوات لا يسمعها أحد، مثل همس طلسمي، إنّما سرعان ما فزعت منتفضًا ورجعت للوراء، وكأنّي أفقت من غيبوبة طارئة، رجع الشيخ أيضًا للوراء وقهقه قهقهة عالية:

- أتخاف من الشيخ "أبو الزّمن"؟

- أخاف الخرافات أكثر.. أخاف من أرواح الماضي.

ثم حاولت أن أقول مستدركًا:

- سيّدنا أنا...

فاستوقفني بإشارة:

- "زاخولي"...!

فتلجّمت، وقال:

- إنّ ماضيك مشتبه عليك، وقد ينخدع فيك النّاس لكنّك لن تصمد أمام هذا الماضي لنهاية المطاف.

وانكفأ - ثانية - يتلو، بدا الأمر ملغزًا، ثمّة رسالة، أحسست بذلك، وبينما يدندن "أبو الزّمن"، ويؤخَذُ في غيابه أكثر، ساورني الشّك، وقام يتراقص "أبو الزّمن"، ومن حوله جماعته، فقلت لنفسي مندهشًا: هل هذا هو الرّجل الذي سيخلّصني من أرواح تقتحم أحلامي؟

- تُرى هل أنا ممسوس حقًّا؟

توقّف "أبو الزّمن" فجأة، وحدجني بنظرة مباغتة، وقال:

- كلّنا ملبوسون من حين لآخر، أنا المكلّف بالتفاوض، مع الأحياء، والموتى، إنّي يا هذا رأيتُ الرّب، فوالذي يرى - قسمًا به - لن يروي سيرة الرّب غير راءٍ. يده - في جلالٍ - سوف تخرج من بين ثنيات الأرض لتبطش بكم، سوف تدفع أمامها البحار، والجبال، وتقلّب الأبصار كما ينبغي أن تتقلّب الأبصار، وتطوي - بين أصابعها - سبع أراضٍ، وسبع سمواتٍ. أو ليس للإنسان أن يؤوب! يد الرّب سوف تتداخل، روح العاصي مع روح الطائع، لا بديل عن التخالط تلك الساعة! يد الرّب تعلم، يد الرّب تمزج شمالها بجنوبها، لكن الرّب تركني، لأرى، وقد رأيت مدينتكم تتهاوى، تتحوّل إلى حطام.

ثم أخذ يهدأ، وهو يجلس جواره ثانية، فوق الكرسي، وأضاف:

- ما ذنب الملائكة تموت على أرضكم؟

- أيّ ملائكة؟

تنهّد "أبو الزّمن"، وقال:

- تُراك لا تدري أنّ الملائكة تتحوّل أيضًا إلى رماد، وفي مدينتكم احترقت الملائكة.

هممت أنهض، لكنّ "أبو الزّمن" غرس أصابعه في لحم ظهري، فتأوّهت، استدرت نحوه، وكان وجهه يفور دمًا، وملامحه تربد، وكان حاجباه منعقدين، حدّ أن بعث في قلبي فزعًا، وهو يستكمل:

- سوف يكشف لك الله عن إشارات طواها الماضي، لم يزل الدّم عالقًا بروحك، والنّار أيضًا.

أجل، رائحة الدّم لم تزل في أنفي، من وقتها، ونظرات الموتى راشقة في عمق صمتي القسري. إنّ النهار عبثٌ، وأيّ عبث! هكذا كان أحدّث نفسي كلّما طلعت شمس على مدينتنا والدُخان يضبّبها، وقتذاك، رفعت عينيّ إلى السماء، وأنذرت الشمس بالرحيل، على أيّة حال إنّ الرحيلَ حتميٌّ، لكنّي طالما انتقد الشمس، ميزة المنح - دون مقابل - في حدّ ذاتها شيء يصيبُ بالغثيان، منذ متى والشمس تمنحنا الدفء ولا تنتظر أن نمنحها الشكر حتّى؟ وكانت باستدارة الأرض تستدير المخاوف بداخلي، وتلتقي في نقطة بديهية المعنى،

العرق يهطل من كلّ خلايا وجهي، وعيناي جاحظتان جحوظ التذكّر، أخذت أحدّق في "أبو الزّمن"، أجل الدّماء في روحي، وجه "أبو الزّمن" غائم (والسّماء تحدف نجومها أسئلة، السّماء داكنة الألم).

الريح تحاصر المكان، أنظر إلى "أبو الزّمن"، هو هادئ، لا بأس، كيف يتدثّر من الريح؟ نهضت، درت دورتين، وقعدت، والشيخ لا يأبه، يتركني أتعاون مع تفاصيل المكان.

- إنّي أرى الأكفان السوداء، والجثث المحترقة عن آخرها، والملائكة ترفعها، والسّماء تفتح ذراعيها، لكن السّماء بعيدة، منذ خُلقت بعيدة.

قام "بيومي" وهو ينهج، وقمت ونيّتي المغادرة، هذه المرّة، تركني الشيخ، ولم ينظر إليّ، فانتظرت، لم ينظر إليّ، فاقتربت منه، لم يستدر نحوي، اقتربت أكثر، قدماي ثقيلتان، لكنّي أخذت أقترب، والشيخ منكفئ يوليني ظهرًا، السّر لم يزل سرًّا يا شيخ، سرّ نفسي مطموس، ما حكمة المجيء إذًا؟ اكشف سري يا شيخ.

فجأة استدار "أبو الزّمن"، ووجهه غير الوجه، وعضلاته نافرة، وعيناه ناريتان، زعق:

- ابتعد.. ابتعد.. سوف أصعد لأخبره أنّي لا أقبل هذا التفاوض، في النهاية لا يُمكن أن أتفاوض مع الدّم الطليق.....! هو أصل الشرور كلّها.

تقهقرت مهزومًا، مفزوعًا، ولم أفهم، استقام "أبو الزّمن"، بدا كمارد يستفيق، زعق ثانية:

- دع رُوحك يا كُردي للأمان، لا تعكّرها بظلال الماضي، الماضي هباء، أنت في غير حاجة لي، لست ملبوسًا إلاّ بالماضي.

قلت في نفسي: وما الجديد؟

سألته:

- لِكنّ الماضي يلاحقني.

فقال:

- إنّما نحنُ نطفيء الأنوارَ عنّا عدا نور غرفتِنا الواهن، لذا؛ لسنا نرى غير أنفسنا، ونُغمض أعيننا عن العالم، ونعمدُ إلى تجاهلِه، فكأنّما الأحداث أُختزلت في غرفتِنا ذات الضوء الشاحب، رغم أنّنا مجرّد نقطة لا يراها أحدٌ في فضاء هذا العالم السرمدي؛ الفضاء اللانهائي.

ثم طاف الشيخ بعينيه شاخصًا في سقف البيت، فاقتربت منه مرّة أخرى، بيدي، بيدي أعرف، لكنّ "أبو الزّمن" جزّ على أسنانه، وصاح:

- إبليس..

اندفعت للوراء، ووجهي محتقن، ارتطمت بـ"بيومي"، وبباب البيت، وتحت قدميّ أجساد المريدين الطريّة، تحطّب جسمي، لكنّي؛ أرتجف، لكنّي؛ استطعت أن أتراجع بظهري، وأنا أراقب "أبو الزّمن"، لماذا أخشاه؟ لماذا لهذه الدّرجة؟

"أبو الزّمن" جنّ جنونه، رافعًا يديه للسّماء، كان يتمتم:

- "إبليس".. نسبكم إليه- وإليه تعودون، الوباء فتك بأرواحكم.

وفي لحظة كاشفة استدار، واجهني بعينيه وهو يقول:

- مدينتكم أهلكت الملائكة...!

9

قيل لي أنّي كنت طفلاً شقيًّا، أبعثر كلّ محتويات المنزل وأمّي منشغلة في المطبخ وأبي منهمك في مصلحة، أو وهو نائم، من شقاوتي اضطرّ أبي يومًا أن يصنع بابًا من الحديد أمام باب بيتنا خشية أن أغافله فيجدني مدحرجًا داخل الدرب المبلّط.

كنت قد تجاوزت عامي الثالث - هكذا قيل لي من أمّي. لكن الحروف لا تزال تخرج من فمي متكسّرة، تفتقد سلاسة النطق، فـ"أبي" أنطقها: "بب". وما زلت أطلق على الطعام "ننّة". ولا يفهم من حواراتي معه سوى القليل. نصحهم جدّي بأنّ الحل الأمثل لحالتي المتأخّرة في النطق هي لسان الجدي، وللعجب تحسّنت وبدأت أتحدّث بطلاقة! لعلّها مصادفة، إنّما كلّ شيء بعدها سار طبيعيًا.

حتّى هذا اليوم..

حينما سمعني أبي بأذنه أتكلّم مثل الكبار.

قالت أمّي أنّ أبي كاد يجن، وكان إذ يسمعني أبي لا يفهم كيف أتحدّث مثل الكبار، رغم أنّ لساني لم ينضج بعد للدرجة، قالت لي أمّي كثيرًا ما حاولت أن أدلّ أبي على أماكن ملائكة أراها تلعب حولي لكنّه لا يكترث، أشير نحوهم وهم يتقافزون في كلّ أرجاء المنزل، لا يراهم وينظر لي بلامبالاة مستخفًّا بعقلي، يربت على كتفي:

- خلاص يا ولدي.

قالت أمّي آنذاك وهي تضحك:

- وكأنّهم - الملائكة - يجلسون معك جلسات تدريب ليعلمونك النطق السليم!

ولأنّه صنع أمامي سياجًا، في ليلة من تلك الليالي التي ينام فيها أبي حتّى ليكاد شخيره يبلغ غرف الجيران، حلّق واحد من الملائكة فوقه ثم صفعه بجناحه صفعة أرعبته فاستيقظ مبسملاً ومستعيذًا بالله من الشيطان، فارتميت على صدره معتذرًا ونمت.

وتضحك أمّي وهي تقول:

- عارف يا ولدي أنَّ أباك صدّق فعلاً حكاية الملائكة التي تصفعه!

يومها قرّر أبي أن يجيء بأحد المشايخ ليقرأ عليّ، ويقرأ على البيت كلّه. وقالت أمّي أنّها هي نفسها دخلت عليّ الغرفة ووجدتني جالسًا على الأرض أناغي الهواء وأضربه بيديّ، ولمّا استدرت أنظر نحوها، كنت أداري عنّها حبّة أرز ملتصقة بثغري، وبقايا قطرات من لبن!

قالت لي أمّي:

- أجل يا ولدي، لقد كنت تأكل الأرز مع الملائكة أنفسهم!

10

قبل سنوات بعيدة، كنت أعدو في السّهول أطارد الملائكة، وكان "عمّار" يستخفّ بعقلي، ويُقعي أرضًا يكاد يفطس من الضحك عليّ، وفي أوقات الظهيرة كنّا نغطس في الماء نتبارى في السباحة، وكان "عمّار" كثيرًا ما يغلبني.

لم أزل أذكر تفاصيل هذا اليوم كأنّه كان بالأمس ليس أبعد، قال "أبو الزّمن" أنّ الدّم عالق برُوحي، كان يعرف أنّ الدّم سكن رُوحي منذ زمن، كنت و"عمّار" نلهو في عبّ الماء، وكان ينقضّ عليّ ممازحًا وأنقضّ عليه، يغطّس رأسي تحت سطح المياه، فأخرج باصقًا الماء عليه وعيناي محمرّتان، وأناوله ركلاتي وضرباتي فيبتعد وهو يطيح بالماء عليّ، يومها كدت أفقد أنفاسي تحت المياه، فعاجلته بضربة ماكرة في مؤخّرة رأسه، ثم هويت بيدي عليه وظللت مغطّسًا رأسه في الماء، وتخشّبت يدي، ونازعتني غواية أن أكيده، وإنّما كِدتُ نفسي، لم أزل أذكر تفاصيل هذا اليوم، حيث خرجت رأس "عمّار" من تحت الماء ساقطة على رأسه، وحاولت أن أجذبه إلى الضفّة فأخفقت، لم أكن عوّامًا ماهرًا مثله، وكان جسمه يهوي لأسفل المياه فأشدّه للسطح ثانية، في هذا اليوم قلت أنّ "عمّار" قد أغرقه القدر، لم يعرف أحد إنّي أغرقته بيديّ المجرّدتين.

فقط كنت أزوره عند القبور، وفي نفسي فراغ، نعم يا شيخ، إنّ الدّم يسكن رُوحي، للثمالة لو تدري!

11

قال لي "بيومي":

- إنّما جديدة حكاية "زاخولي" هذه!

قلت:

- نسبة لجدّي الأكبر، لكن اسمي "عبد السميع".

ولم أحاول التطرّق لجدل، تسحّبت أتنصّت على صوت البيانو الذي يقدح من داخل السراي، وقادتني قدماي إلى إفريز النافذة، فاختلست نظراتي من ورائه، وأدركت أنّ الشمسُ لا تأتي مصادفة، لا تأتي عبثًا، كانت الشّمس جالسة خلف البيانو تعزف لحنًا حزينًا، وشعرت وفق أنغام لحنها أنّي أسقط من أعلى الأفق كيمامةٍ غلّ جناحاها عن التحليق.

ورأت عيناي "زينب"، بقلبكِ يا بنت العمّ حفرتِ لي طريقًا نحو الخلود، بقلبكِ هذا - معذّبتي - جرعت عنّي الألم، واستعذبته. أوليس للزمن في الغفران احتمال! وبروحي - وفوق روحك - انقضى وطن، وبات للحقيقة وطنٌ جديد.

أراني أهرول، يضرب رذاذ قادم من مكان ما أعصاب وجهي، ولا آبه للبرد، ولا آبه، تتخلّل شعر رأسي أنامل الصقيع وتهرش فيقشعرّ بدني، ولا آبه، تنتشر ذكرياتي على مدّ الحزن، ولحن الهانم يطير بي، ويحيق برأسي، مثل ريح عاصفة.

بعد قليل، توقّف اللحن، وعادت رُوحي تستشرف حدود السراي ثانية، كان الباشا يقترب من الهانم، وكان وجهها يربد، وأخذ يصيح بها:

- هذا الولد لا يليق لا بك ولا بنا، أعقلي أحسن لك.

- لكن هذه حياتي.

- والله لو فكّر أن يخطو إلى برّ الأقصر سأضربه بالنّار.

قالها في شيء من عصبية، فاستدارت نحوه، محدّقة فيه طويلاً، وابتسمت، بدا كأنّها تحصّنت بابتسامة كي لا تنفجر في وجهه، وقالت:

- لم يعد بالإمكان تخيّل أنّ المعجزات ما زالت توجد في هذا العصر، هذا عبث.

وابتسمت ثانية، ابتسمت تلك الابتسامة التي ينمّ معظمها عن عدم اقتناع، وربما عدم اكتراث، أحسّ هو بذلك.

بعد قليل، بدا كأنّما هدأ، ثم غادر عنها، فمضت تنتحب، كأنّها شعرت أنّه غضب بعض الشيء من لهجتها، لم أعرف كيف أفسّر اختلاج ملامح وجهها هذه السّاعة، لكنّها همّت خلفه تستوقفه لولا أن انحبس صوتها في حلقها، فجلست تتبعه ببصرها حتّى أغلق خلفه باب مكتبه، غام بصرها خلفه قليلاً، لكنّها زفرت زفرة طويلة، ومصمصت شفتيها فيما يُشبه الندم.

فكّرتُ: لماذا لم يعُد العالم يؤمن بالحب إطلاقًا؟

طلّت الهانم في المرآة، وراحت تفرك خصلات شعرها في سأم، وتتأمّل وجهها داخل المرآة في كثير من تحسّر.

جرى بي الوقت وأنا أتفحّص ملامح الهانم من وراء شيش النافذة، وشعرت أنّ اللحظات تتداعى، والمشاعر أيضًا، وربما الذكريات، لم يعد يبقى دائرٌ في مدار الزمن، تتلاشى كلّ الأوقات السعيدة ككواكب نافقة يا هانم، ولعلّك لا تعرفين أنّ هذا العالم مليء بالأسرار. ثم في لحظة استدارت نحوي الهانم، وكأنّها شعرت بي، قرّرت ألاّ أستكمل التلصّص، فقد تكهرب عقلي، رغم أنّها لم تنظر لي علنًا، إنّما ابتعدت قليلاً عن إفريز النافذة وأخذت أدور بعينيّ حولي خشية أن يلمحني أحد، ارتددت للخلف بسرعة، وأغمضت عينيّ مؤنّبًا، تسقط الحسابات أحيانًا، ولكن شغفي لم يكن فضولاً فحسب، ولا تلصّصًا، ولا شعورًا يُقاس، كان تسرّعًا ربما، لا أجد له مبرّرًا احترازيًا. دخلت الحجرة، حاولت أن أُعد شايًا، انتفضت يدي، ودلقت كوب الشاي على جلبابي، فكدت أصرخ، إنّما جلست فوق السرير الجريدي، بحركة بطيئة، ممزوجة بحيرة رهيبة، وبتأنيب أعظم، تحرّك بصري ينخفض للأسفل وأنا أتنهّد، ماذا لو أنّ الهانم رأتني فعلاً؟! شعرت كم أنّي متلصّص وغد، في أسى نفضت رأسي، وإن يدي لم تزل ترتعش.

بقية من ارتعاش لم يكن أحد أسبابه اندلاق كوب الشاي.

12

اليوم..! لا لم أعُد أذكر اليوم، ولا التاريخ، كلّ الذي أذكره أيّامي المارقة في حياتي كسحابة مفعمة بالجنون، بدأ كلّ شيء يتحوّل بالتدرّج للّون الرمادي، ثمّة ترسّبات في الذهن لا تترك مجالاً للحياة. أنت ميّت في كافة الأحوال يا "زاخولي"، أنت بلا سعادة ولا وجود أصلاً. أنت مومياء تسير مستجدية الحياة، بلا جدوى، لا العين ترى تفاصيل الأشياء، ولا القلب يهوى النبض، ميّت إذن أنت، ولا تدرك ممّا حولك إلاّ ما يعينك قليلاً على استكمال هوس الحياة لأجل ذكريات مريرة، ليس لها غيرك، فامتهن قليلاً مسايرة الأمور.

الشّمس في هذا النّهار من شهر أغسطس تبدو ساخطة على أهل المدينة، لكنّي جلست على أحد أحجار المعبد وفوق رأسي مظلّة ورنوت بعينيّ نحو بضعة أطفال عرايا يركضون بين تباب الرمل يتصايحون وفي أياديهم عرائس من طين، استطعت أن أفسّر العلاقة بين الرسوم والنقوش الهيروغليفية التي تحكي حكايات فيضان النّيل وبين الاحتفالات التي يقوم بها النّاس هنا احتفاءً بالفيضان، تحكي الجدران حكاية دورة النيل منذ العصور القديمة عندما كان يمتلئ ثم يكبّ المياه فوق ضفاف البلاد، وكان المصريون يقيمون عيدًا سنويًا، يبدأ من موسم الفيضان مرورًا بموسمي الظهور والحصاد. كانوا يعتقدون إنّ إلههم "حابي" راض عنهم لذا يُرسل لهم المياه ليباشروا زراعاتهم، بعد تراكم الطمي على ضفاف النّيل، وقد رجّحوا أنّ أصل الفيضان يرجع

إلى دموع "إيزيس" التي هطلت حزنًا على وفاة "أوزوريس" ومن ثَمّ فاضت فأغرقت البلاد جنوبًا وشمالاً، لم يعرفوا أنّ كلّ هذه المياه تخلّفها الجبال البعيدة، وكانوا في البداية يقدّمون القرابين التي كانت عبارة عن تماثيل ذهبية، ويتلون الأغاني ويؤلّفون القصائد والأناشيد، كي لا يمتنع الإله "حابي" عن فيضانه، ويعمّ القحط والجدب والجفاف، ويحافظون على أن يكون النّهر طاهرًا لا يتلوّث، لذا، فإنّ تلويث النّهر كان جريمة كُبرى، صاحبها سوف يدخل الأرض السفلى حتمًا في العالم الآخر، بل وينبغي على المتوفّي أن يذكّر في صحيفة اعترافاته التي يتبرّأ منها من آثامه أنّه لم يلوّث مياه النّيل، فالنيل الذي يرتفع لتخضّر النباتات وتعمّ الخصوبة وتحيى أرضهم بعد موتها، لا يُمكن لبشر أن يلوّثه، وإلاّ سخط عليهم الإله "حابي"، ومنع عنهم الفيضان، وتحكي الأسطورة أنّ في زمن الفراعنة كان هناك ملك عادل لم يكن يرتضي الظلم، وكان شعبه يعيش في رخاء، لكن في موسم الفيضان لم يأت "حابي" بمياهه، فحلّ الجدب على أرض مصر، فاجتمع الملك بالكهنة يتشاور معهم عن عدم قيام النّهر بفيضانه هذا العام، فأخبره كبير الكهنة أنّ "حابي" ربّ النّيل وجالب الفيضان غاضب وحزين لأنّه يريد الزواج من فتاة بكر جميلة سمراء، وانتشر الخبر وذيع في كلّ ربوع مصر، أنّ من تريد أن تتزوّج من إله الخير وجالب الحظّ السعيد للبلاد وأن تنجب منه ذرية من الآلهة فعليها أن تتقدّم في الاحتفال الذي سيقام كي يتمّ اختيار أجمل وأنسب فتاة تزفّ إلى الإله "حابي"، وتقدّمت الفتيات من كلّ بقاع مصر يرغبن التزوّج من النّيل، وبالفعل تمّ اختيار العروس، والتي تمّ إرضاء أهلها، لتلقي بنفسها طوعًا في الاحتفال إلى النّيل، لتزفّ إليه في العالم الآخر. وقيل أنّه في زمن آخر لم يجد الملك فتيات لتزويجهنّ

إلى الإله "حابي"، فقد خلصت الفتيات البكر عامًا بعد عام، ولم يكن هناك سوى بنته الوحيدة البكر، وألمّ به مرض وحزن حزنًا شديدًا حيث أدرك أنّه سيفارق ابنته لا محالة، ففكّرت خادمتها في أن يُلقى نيابة عنها عروس خشبيّة، ونجحت الحيلة، وصار المصريون يلقون عروسًا خشبية كلّ عام إلى النّيل. كذلك كان القِبط يحتفلون بهذا الموسم حيث يلقون إصبع الشّهيد إلى النّهر، تبدّلت هذه الاحتفالات اليوم، أصبحت مجرّد إرث طقسي ليس أكثر، حتّى تحت سطوة سخونة الشّمس، كان الأولاد يخرجون ويصنعون عرائس الطّين ليلقوها في النّهر محبّة، وكانت النساء تأتين بسلال من خوص مليئة بالبلح الطري الأخضر والأحمر والأصفر، وكحك ومخبوزات على شكل عرائس وترميها في النّهر، ورأيت جماعات من البشر يقفون على الضفّة بالزّمر والطبل، أكثرهم يرتدي الجلابيب الأنيقة التي تناسب احتفالاً كهذا، والقلّة اكتفوا بارتداء سراويل ممسوكة على خصورهم بأساتك مشدودة، وهؤلاء كان معظمهم يقرعون بالعصيّ أغشية الطبل، وكانت تتجدّد دهشتي بأعراف وتقاليد النّاس هنا يومًا بعد يوم، فالنّيل الذي تأتي مياهه هادرة تكتسح البيوت والأراضي والمراكب لم يكن يعرف الرفق، كان يدهس كلّ قائم في طريقه، لكنّهم كانوا يفرحون بالطمي، أو ربّما توارثوا عادة أن يحتفلوا بمجيء الفيضان، بهجة مكتسبة وسط قُتم هذا العالم الجنوني. في الصّباح، جاءت مياه النّيل متتابعة تتدفّق، هرعت أتابع المشهد من شرفة السراي، ورأيت الأمواج قادمة يركب بعضها بعضًا، رأيتها وكانت من بعيد، إنّما استطعت أن أفصّل المشهد، وأميّز نفوق الموج فوق ضفتّي النّهر، وهو يلطم النّخل والبيوت، التي تجهّز أصحابها سلفًا، هم يحسُبُون موعد الفيضان بالتقويم القبطي،

العجيب أنّ كثيرين كانوا يتركون أنفسهم للموج، ويسرون عن أنفسهم بالعوم وسط النباتات المتشابكة التي تأتي تحاصر جذوع النخل وجدران البيوت، نباتات ورد النّيل، وكأنّهم يلعبون مع الفيضان، بعضهم كان يتعرى كاملاً، وينهض فيبدو جسمه الأسمر مكسوًا بالبلل مثل حجر لامع يتألّق تحت أشعة الشّمس، وكان البعض تجّار تماسيح، ينتظرون من عام لعام قدوم الفيضان، وكان لهم فيه خيرٌ عظيم، يصنعون شباكًا من ألياف النخل، ويضفّرونها جدائل متينة قويّة، ويتركونها أيّامًا مغمورة بالمياه، ثم يجفّفونها تحت حرارة الشّمس بعد أن يحموها بالطّين، فلمّا تجف، يتقشّر الطّين عنها وتصبح جاهزة لاصطياد التماسيح، كانت شباكًا تناهز العشرة أمتار طولاً وعرضًا، ضمانًا ألاّ يفلت منها تمساح، ولمّا تنحسر المياه، تاركة الأسماك والتماسيح والورود والنباتات ملقاة فوق الضّفتين، كان صيّادو التماسيح يضربونها بعصيّ خرزان حتّى تدوخ ثمّ يكمّمون أفواهها خشية غدرها، ويكبّلونها بحبال سميكة، ويحملونها فوق عربات الكرّ التي تجرّها أحصنة. وكانت طيور "أبو قردان" تأتي جماعات تفرش ضفتّي النّهر مثل سجّادة من ريش، تلتقط بمناقيرها الأسماك التي خلّفها الفيضان، كذلك كانت السنابك الحديدية تطوّف في البرك التي يتركها انحسار الماء، وترمي الشباك لتصيد أسماك البلطي، أدركت أنّ الفيضان موسم الرّزق، ليس فقط لذوي الأراضي والزراعات، وإنّما أيضًا للصيّادين والتجّار والطيور.

13

في هذا الصّباح، كانت الهانم الصغيرة كأنّما استبدّ بها الجنون، رأيناها خارجة من باب السراي وفي يدها كرباج، ثم دخلت الإسطبل ونزلت على ظهر "مزيانة" ضربًا، جاهدت أن أحيل بينهما، لكنّ الهانم استدارت نحوي وفي عينيها مقت كالنّار وراحت تضربني بالكرباج، وسرعان ما شدّني "بيومي" بعيدًا، وهمس لي:

- وأنت مالك يا كُردي؟ الهانم تأتيها هذه الحالة من حين لآخر، ابتعد أنت.

وراحت الهانم تصرخ وتنبح، وكأنّ جحيمًا يستعرّ في أحشائها، و"مزيانة" لاذت بالصمت، كانت تتحمّل ضربات الكرباج وفي عينيها شفقة، ثم هرولت الهانم إلى الخارج، ودخلت السراي، وطلعت بعد قليل وهي ترمي أوراقًا من الشرفة، وكأنّ جنونًا مسّها، وكان الباشا واقفًا خلفها يصفّق بكفّيه وهو يهتف:

- وما جدوى الجنون! يا ابنتي اهدئي طيّب.

ولكنّ الهانم لم تكن تستمع له، مضت ترمي أوراقها وكانت الأوراق تتهاوى محلّقة من الشرفة على فضاء السراي والإسطبل، وهي تصرخ:

- أين كرباجك يا معالي الباشا؟ أين؟

استطعت أن أحوز بعض الأوراق، لففتها ووضعتها في جيب الجلباب، وفي المساء جلست على سريري الجريد، كان "بيومي" قد غطّ

في نوم، فأشعلت اللمبة الغاز ورحت أتفقّد الأوراق، كان بعضها رسائل، وكان هناك دفتر صغير الحجم، أدركت أنّه يخصّ الهانم، رجّحت أنّه دفتر يوميات، أمسكت رسالة، وفضضتها بعينيّ:

(حبيبتي، السأم سمير المدينة، ابنتي تتعلّق بيدي وهي تدور بعينيها في الأنحاء، تجرّ قدميها خلفي في استسلام، أترك يدها قليلاً لأشعل سيجارة، فيتشكّل الدخان وجهك يا حبيبتي.

كنتِ الوحيدة التي بدأت تتلقّف يدي بعد أن أغرقتني الذكريات؛

أجل أنتِ.

لم أكن أصدّق أنّني معكِ قد أبدأ عمرًا من جديد، كنت أنتقل من ملهاة لأخرى سدى، أبحث في كلّ ملهاة عن دواء الحبّ الغائب، حتّى أحسست أنّني أتلمّس الطريق نحو حقيقة واحدة مؤكّدة.. هي ألاّ حبّ آخر في هذه الحياة.

لكن حين رأيتكِ، بدا أنّ الحقيقة ماكثة هناك طوال عمري الماضي، في عينيكِ وطلّتكِ، ولكنّي لم أكن لأعرفها إلاّ عندما يُقدّر لي، حقيقة أنّ الحبّ ها هو أمامي جليّ واضح لا يتطلّب عناء البحث الذي طال، كلّ هذه الأدوار التي تقمصتها والأقنعة التي ظللت أبدّلها في كل ذكرى وكلّ همّ، حتى كدت أضلّ عن نفسي ذاتها، كلّ هذه مجرد سُبل لكِ، مجرد هداية إلى وجهي الفعلي الذي غاب عنّي كلّ هذه السنوات المنصرمة، فالآن هأنذا أعرف أخيرًا من أكون! لم أكن أيّ شيء على الإطلاق سوى الباحث عن الحقيقة، لم أكن ضائعًا كما احتملت، كنت أنشد لقاءك لا غير، والآن فقط توّصلت إلى نفسي.

لو ترين ابنتي وهي تلهو وتعبث في الأدراج، وأنا شريد ضيّعني اليأس يا حبيبتي، المكتب أمامي وفوقه تتناثر الكتب والأجندات.. علب السجائر الفارغة.. بعضها منبعج تمامًا كقلبي والبعض الآخر يحتفظ بشكله وتنسيقه وكأنّه لم يُمس.. أكواب شاي فارغة ونصف فارغة.. أكواب مندلقة ومخلّفة على سطح المكتب هذا التخثّر.. المصحف.. الدبّاسة.. وغير هذا من الأشياء التي لا يعنيني في الحقيقة أن أوضّحها. أُمسك القلم أحاول أن أكتب لك رسالة، يتردد إصبعي كثيرًا، يتراجع، أضع القلم، ثم أتناوله ثانية، أما حان وقت الاعتراف بأنّي لا يُمكن أن أعيش من دونك! أقول لنفسي: فلتحدثّها، أخبرها أنك سافل ومنحط، لا تكن بهذه الدرجة من الكِبر والتعالي، كن على يقين بأنّها لن تبادر على الإطلاق بمراسلتك، بينما تحمل في صدرها مثل هذا الجرح الغائر.

لكن لا جدوى منّي، أنا أعرف، أنا أجبن من تصرف كهذا، وقد تركتك تمضين عنّي ولم أفعل شيئًا حيال فقدك، أجل أنا جبان يا حبيبتي أرجع برأسي إلى الوراء، وفي عينيَّ نمل يمشي، كم ليلة لم أنم؟! خمس.. ست.. سبع.. في الحقيقة ساح ذهني من طول السهاد والسهر، ولم تعد كلّ المسائل المريحة كبداياتها، الآن أنفق جسدي وراحتي وعقلي في سبيل رسالة واحدة منكِ.. مجرد رسالة. الشيء الجميل الذي فعلتيه وتركتيني أنكِ منحتيني الشعور بأنّ الحياة - رغم كلّ ما فيها من كآبة - تستحق أن نعيشها بالقدر الذي يُشبع كلّ مشاعرنا، نفس الحياة التي كانت منذ قبل مجرد "أكليشيهات" مكرّرة متعددة كرحلات في عالم من ضجر. أتذكرين أول لقاء لنا؟ حين جفّ لساني، لم تعد الكلمات تنطّ منه كعهدي به، سرى إلى نفسي هذا الشعور الذي لا يشبه الفرح

ولا يشبه الحزن، شعور فريد، مستثنى عن كلّ المشاعر التي قد تختلج في قلب رجل، لا يشبه بالمرة أيّ شعور مُذاق من قبل، أذكر أنّي وقتها تعرقت، وأصابني عجز كمن يقف في المنتصف ما بين عالمين متعثرًا وجامدًا وعطبًا ومنتظرًا، غير قادر على تعبئة الكلمات داخل فمه، كنت أشعر وكأنّني في معزل عن كلّ اللغط المحيط، ولكن كانت هناك هذه الذكريات، هي التي منعتني حقيقة من أن أبيّن ما يجيش في صدري حيالك، اكتفيت فقط بأن أحدّق في وجهك، وأتناول عنك الوردة الشاردة التي وثبت من أحد الكُتب، والتي تأبّطت أناملي في رقّة غريبة، وكان عجيبًا أن تبدين أنت أكثر جرأة وميلاً، كانت عيناكِ تفيضان بهذا النداء المستتر، وكأنّ بيننا موعدًا قدريًا تحدّد قبل أن نعرف الوجود ذاته، كنت تستقطبين من عينيّ أيّ رد فعل وبكثير من حياء، الأغرب أنّني لم أتعوّد بتاتًا على أن أُفتن بواحدة بمثل هذه السرعة، ومن النظرة الأولى، حين كان أخداني يقولون هذا كنت أهزأ بهم وأقول: وهل هناك ما يسمى بالحبّ من النظرة الأولى؟! فكانوا يرفعون أياديهم إلى السماء ويدعون الله أن يصيبني، وها هي دعواتهم تُستجاب، غلالة من ألفة ومن تواطؤ محبب تُنسج حول عينيّ، فأجدني مشدودًا بخيط كالأثير إلى الجلوس معكِ، التعرف إليكِ، متمنيًا أن تستوطنين الباقي من عمري، في لحظة تمنيت هذا بالفعل.. في أول لحظة.. وأول لقاء، دون حتّى أن أعرف إن كنتِ على ارتباط بقلب غيري من عدمه! ولكن لا شيء على الله عسير، ما هُيّأ مصادفة لعلّه مصيرٌ مُنتظر، الخلجات لم تعد في أماكنها، تبدّلت بداخلي كلّ الأحاسيس في لحظة خاطفة غير متوقّعة، وبأدب متردّد سألتكِ أن ترافقيني لاحتساء مشروب في إحدى

الحدائق، وافقتِ بارتباك، فأصابتني حيوية غريبة، جلسنا، وكانت كلّ التفاصيل تسترق الاندماج مع ملامحك المشعة.

وأتساءل.. كيف هُنتِ عليّ؟ إن كان ثمّة أسئلة لا أجوبة لها، فثمّة أجوبة كذلك تحمل من البداهة والتعقل أكثر ممّا يستنبطه أخرق مثلي.

يا الله! هل خسرتكِ؟! هل تهوّرت؟!

ترى.. هل أصبحت في طيّ النسيان بالنسبة لكِ؟

لست أعرف ذلك إلى الآن...

كلّ ما أعرف أنّنا عاشقان منذ أول الزمان، وإلاّ.. لماذا كلّ هذا الاشتياق والألم إذن؟

إن كنتِ هكذا وبمثل هذا الاستحواذ على عقلي فما الذي أعماني ففقدتكِ بهذه البساطة! أهي تلك الثرثرة التي انقلع متنها بعد وقت وجيز؟ كلّ ما أعرفه أنّني نادم عليكِ، على كلّ اللحظات، كنتِ عطرًا أُختلط من كافّة عطور التاريخ، كنتِ البلسم الذي يكفكف دموعي.

لو تريني وأنا بشراسة ألتهم السجائر في فمي وبشراسة أشدّ بمرّ الوقت، غدوت منفصلاً عن كلّ ما حولي، الحظّ عثر، تحديدًا حظّي أنا دونًا عن حظّ كلّ هؤلاء الذين ينعمون براحة القلب، يا لوجعي! ما الذي انشرخ فيّ حقًا فنجمت عنه كلّ هذه التقيّحات؟! آه.. ألم يعد قلبكِ لي كما اعتقدت؟ ألن تصبحين يا حبيبتي الهدهدة التي بها أستريح؟!

الأكواب تدلق من أفواهها الشاي البارد، يتخلّل كلّ الأوراق المسجّاة أمامي فوق المكتب، ومرآتي تشاطرني النحيب، احتوت عينيّ هالة

سوداء مفزعة، شعر وجهي مثل لُطخ عفنة، وحتّى رائحة الغرفة، كأنّها قبر لقلب ميت، هذا لأنّي فقدتك!

قلت آنذاك: لو أنك لست ابنة الباشا صاحب الأطيان؟ لو أنّ حبّكِ لم يكن؟

لكن حبّكِ كان، للانهاية.

حبيبتي، أخشى أن تكون الثقة في مقدار ما أحمل لك من حبّ واعتزاز قد تلاشت، وإن كنت أعرف مدى حبّك لي، إنّما تحت كلّ مخاوفك التي تراودك بشأني الآن وسخطك عليّ، يكون الفخر بكِ وبحبّك، أنا لا أحاول أن أبرّر ما بدر منّي آنذاك، ففي الحقيقة أنا لست بصدد تبرير أيّ خطأ.. لكن دعيني أبرّر على الأقل النوايا، ولا تنسي أنّني كنت الحضن الذي احتوى آمالك وتلقّف فؤادك، تركت كلّ العالم من أجلك، وربما كلّهم - رغم فداحة الجرم - على مقربة من صواب ما، كلّ من حاول أن يقصيك عن حياتي مؤكّد له عذر، قد تقبلينه وقد لا تفعلين، لكن غالبًا ما تكون الحقائق موجعة يا حبيبتي، أنا لا أعفيهم من الذنب، وربّما من العقاب، لكن لعلّ ما يشفع لهم عندي - في كلّ الأحوال - أنّهم لا يبغون إلاّ مصلحتك، إنّما ما أحاول قوله لك أنّني كنت مغيبًا، لا أعرف ما أصابني أو ما دفعني لأن أتحوّل لمثل هذا الإنسان الذي كان أمامك، وكلّنا في نهاية الأمر بشر، لكنّني الآن نفس الرجل الذي أحببته، ويكفي أنّني تركت كلّ الدنيا لأجلك دون غاية أو رجوع، أفلا يصبح هذا مبررًا مقبولاً للغفران! ورغم أنّ كلماتك الأخيرة كانت شدّ جارحة وردّ فعلك كان صعبًا عليّ مع أنّي أدرك كيف يتناسب مع ما اقترفت في شأنك، إلا أنّني رغم أيّ شيء أتلمّس لكِ العذر، وسوف أعتبرها مجرد عاصفة طارئة وراحت لسبيلها،

وسنسترد ما كان بيننا بسرعة حبّنا ذاته، لكن عليك أن تفهمي ما أودّ قوله وأن تتريّثي في الحكم على علاقتنا ريثما نلتقي ثانية، هذا إن شاء لنا القدر، أحبك.. وسأظلّ أفعل مهما ابتعدتِ عنّي ومهما حدث.. ولو كنتِ في آخر بلاد الله).

غصّ فؤادي، أدركت بعضًا من أسباب ثورة الهانم وجنونها، إنّما أمسكت دفترها أقلّب فيه، ورحت أجوّل بين الحروف:

(حبيبي في البدءِ تنشأ خشونةُ اللحظات، لا ترسو نفسٌ على مستقر، ولا بديل عن التعاسة، في البدءِ تكون الفكرة، هي أصلُ كلّ غواية، ثم لا تكون نهاية، إلاّ الفراق. نعم في كلّ مساء أجلس مع ذكراك، تلبس وجهًا باشًّا، تتشبّع رئتانا برحيق الأزهار القادم من بعيد، تمهّد لي ذكرياتي الانتقال ما بين عالمين، أفضّل أن احتفظ بها في داخلي كأول مرّة تقابلنا، ومعركة لم تزل دائرة في عقلي وقلبي، كان عليها أن تستقر وتُحسم حتّى يمكنني الوقوف على من انتصر في النهاية، ومن ثَم يتيسّر لي التطوّر مع سير الأمور، عن هذه المعركة التي تتقاتل فيها كلّ مشاعري كلّ يوم منذ التقينا آخر مرّة، بلا نتيجة محددة، صرت كمن يضرب في صحراء لا نهاية لها، تعرج بي رمالها إلى دروب متباينة من التعجّب والتفكير والحسرة، لا أجد أنّ شيئًا قد استبان في هذا الدجى الذي تسبح فيه روحي، وتمامًا في موعدنا كلّ يوم، أهبط إلى أماكننا، أفر من حديقة لأخرى، أوشك أن أعدو وأنا أتنقّل كفراشة حائرة بين كلّ الأماكن التي جمعتنا في السابق، أبحث عن وجهك بين الوجوه، وجهك القديم الذي ألفته، أقف للحظات لاهثة وأنا أشم روائح الزهور التي لا

تتغير ولا يتبدّل الإحساس بها، تطفر من عينيّ الدموع، أراك طيفًا تحتويني تحت ظلال الشجر.

أيّ وجع أن تكون ذكرياتنا ما زالت هناك باقية في كلّ الأماكن!

أيّ وجع أن أشاهد طيفك جالسًا معي والسيجارة تتضاءل بين أصابعه!

أراك مقبلاً نحوي، بسمة في عينيك وفرحة، خطواتك كالعادة مسرعة، تطأ بساط الأرض بخفة كأنك تتهادى فوق أثير من إحساس السعادة، تحتويني، نطير سويًا نحو عالمنا البعيد، ولا نعود إلاّ عند المساء.

تقودني قدماي إلى كلّ الجلسات التي جلسناها معًا، دون أن أدري أو أرتّب، أجلس مجهدة فوق كراسيك، أتحسّسك قليلاً، يخبو بريق كلّ التفاصيل، تكتسي السماء بلون أصفر شاحب، تتساقط أوراق الأشجار فوقي أسفًا عليك، كلّها مفردات تفتقدك، أتمشّى في ممرات حدائقنا، أشعر وكأنّها تعود بي إلى كلّ نقاط بداياتنا، ألم تعاهدني يا حبيبي أن نتجنّب الفراق! فأين العهد؟! أحاول أن أهرب من كلّ الذكريات عبثًا، دائماً تجرّني قدماي إلى كافّة الصور والمشاهد واللقاءات، كيف أهرب؟ كيف أصارع كلّ تلك المشاعر التي تجثم على فؤادي؟ كنت أسأل نفسي في دهشة: كيف أنتهي منك؟! لابد أن أفعل، لابد أن أفرغ قليلاً لحياتي ولقلبي، كم أحتاج إلى أن يؤانسني قلب آخر، قلب غيرك، وهل كان محرّمًا أن ألقي بمشاعري على صدرك فتحتويني؟! سوف أرفع السلاح مرة ثانية في وجه هذا العالم المتآمر كما كنت دومًا، متمركزة عصبية، سوف أواجه سائر التحديات القائمة ببأس وتحمّل، شيء أقوى منّي

يدفعني لأن أكون هذه الإنسانة الأخرى التي تمنّيتها قبلاً. أحترق بنارك وأنا أسأل نفسي: لو أنّي فقط أعرف لي نهاية! لو يختفي عذابي إلى الأبد!

كعادتي أستقبل العطور بشرود وأسى. أتذكر يوم قلت لي:

- سنقف على قدمينا بأسرع ممّا نتصوّر..

استدرت ناحيتك، قابلتك بابتسامة متشككة، وقلت:

- ولو.. لقد جئونا بالفعل لهذه الدنيا المخادعة.

وكلّما حاولت أن أرسل له رسالة، طبّقت الورقة بين أصابعي دون وعي، وفي شرود، ألقيها أمامي على المنضدة ويستولي عليّ البكاء. لم أعد أفهم من طلاسمه المجحفة شيئاً! هل هذا من سلّمت له قلبي؟ يا للرجال! يتسيكون كلّ اللحظات، الجميل منها والعصيب، وحتّى أوقات الجروح، يستأثرون ببداياتها ونهاياتها، لهم الحقّ في افتعالها وفي كفكفتها دوناً عنّا. غير أنّي لم أحسبه كبقية الرجال. أين الشفافية التي غمرني بها في بدء العلاقة؟! أين حروف كلماته المحمّلة بحبه الجارف؟! غير أني كم أشتاق إليه وإلى هذه الحروف!

أيّها الغبي.. تتصدّق عليّ بالحبّ! ألا تعرف أنّني واهية وهشّة أكثر ممّا تعتقد، وأنّني في لحظة قد أجيء أسفل قدميك طالبة إيّاه؟ تقول: إن شاء القدر...! بدلاً من أن تسعى جاهدًا لوصل ما انقطع بيننا! لماذا تفعل هذا؟ لماذا تتركني وحيدة ومعذّبة؟ أنت الحقيقة الناصعة التي لم أعرف مثلها في حياتي، فكيف أوحيت لي بأنّني مجرد لعبة للتسلية؟! لماذا خلّفت الجرح في قلبي وانزويت في تلك المسافة البعيدة؟!

لكنّي سأكتب له، سأقول له أنت فكرة الرجل الكامل، أنت مبتدى عشقي البريء، فلا تدع التفكير يطوله، لأول مرة منذ بداية حبّنا لا أدري أين أنت؟ ولا كيف أنت؟ لأول مرّة تحرمني من تغزّلك في رسائلك، لكن ثق أنّك لن تجد من هيّ أدفأ منّي، أو أصدق منّي، لن تجد حتّى أنثى تشبهني في شيء، بل لن تجد حدوتة لذيذة تعيشها إلاّ بين يديّ، فأنا من تجعلك وليًا في محراب هواي، أنا من تجعلك ربيعًا لتتجاوز خريف أيامك، أنا التي أُوقد من روحك اليانعة قمرًا يتلألأ في عينيك، فأمنحك البهجة والسعادة والفرح، حبيبي أنت مجرك حكاية ناقصة اكتمالها يكون فقط..لديّ.

أمسكت ورقة وقلمًا، كانت دموعي تنحدر نحو الورقة، فلم آبه:

"حكايتي معك بدأت منذ انتهت حكايات الآخرين، أظنك تدرك الإام أرمي، قد افترضت فيك الصدق، لكن لم يكن الوقت ليسعفنا صدّقني، لعلّك تعرف أنّي استأنست بك، ولو بنشوة المجاز، تعرف أكثر أنّ الحقائق لم تكن ثابتة في عالمنا، ومليئة بالتجاوزات مع ذلك، كان كلّ شيء له تأويل مواز، وله تداخلات مع أشياء أخرى، وملابسات، وتداعيات لم يقبلها غيري، الأكثر ثباتًا كانت مشاعري نحوك، لا تستعجب، فمشاعري كانت واضحة وحقيقية، ولحوحة أحيانًا، بل وصنعت منك - إليّ - قيسًا حداثيًا، لذلك -ولأسباب أخرى- سوف أصفح عنك.

صديقي العزيز وملجأي في غياهب العالم الافتراضي:

أظنك كذلك على علم بما جمعنا طيلة الفترة الماضية، بعضه نفحة من نعيم، وبعضه مرّلا يُطاق، إنّما لا أنت - غالبًا - ولا أنا صرنا نملك

ألاّ يعترينا هذا الشغف وذلك الانتظار المضني كيما نتلاقى، حتّى ولو بهذا الشكل الخرافي، أذكر نصًّا آخر رسائلك، والتي اختفيت بعدها من حياتي، ولم تعد هناك، ولم أعد أنا هنا، تبدّل كلّ شيء بطبيعة الفتور يا صديقي.

"وحين تحبّ أنثى فلا يشغلك سواها، أقصد تعشقها حدّ الثمالة، ولا تبارح خيالك، ولا أحلامك، رغم أنّك تعرف مدى ما يُبعدكما من حدود، ومدى أنّ إحساسك أحادي، ومدى تأرّقك من شدّة الوله بها.

تنام حالمًا بها ليلة بعد أخرى ثم تستيقظ لتجدها أمامك..

المشكلة أنّها مختلفة.. وأنّ سائر الطرق قبالتنا لن تكتمل..

فهل هذا قدر لطيف؟ أم قدر يمعن في نزف الفؤاد أكثر؟".

تذكر هذه الرسالة! أليس كذلك؟ آه، ما أتعسني! لكن على أيّة حال أنا أعتبره قدرًا لطيفًا ذاك الذي جمعني بك، ولو اعتبرته أنت خلاف ذلك، إذن لا الأقدار تستطيع أن تزرع المشاعر عنوة، ولا الظروف، هي المشاعر هكذا، وستظلّ هكذا لنهاية الكون، تأتي دونما احتساب، وقد تزول بأسرع ما جاءت، فصدّقني لو أنّي لم أزل أهفو إليك، لم يزل يعترك فيّ فيض محبّتك إيّاها.

قلت لي: علاقتنا مجرّد علاقة عابرة! هذا هو المسمّى الذي قد نفرضه على علاقتنا؟ علاقة عابرة! لكنّي - تحت كافة الاحتمالات - أحببتك، وذلك الذي لم أتيقّن من طبيعته لديك، هل أحببتني؟ كلامك يوحي، وتصرفاتك توحي، غير أنّ الحقيقة لها وجوه متقلّبة.

كنت مندفعة، وكنت ترهب أحياناً ذلك الاندفاع، ويثير شكوكك، لكن صدّقني، كان اندفاعًا تلقائيًا دون تخطيط ولا غاية، إلاّ التقرّب منك، وخيل لي يومًا أنّني تمكّنت - ولو قليلاً - من ذلك، في البداية فضحت مشاعري نحوك، وفي النهاية فضحت زيفك لي، لا تحنق، ولو أنّي اكتشفت زيفك مبكّرًا بعض الشيء، لكن حرصي على العلاقة دفعني لاستباحة الانخداع، أنت يا عزيزي تشبه كلّ أولئك الرجال، على اختلاف وحيد، وهو أنّي أحببتك بصدق، ألم يكن ذلك كفيلاً بإبداء القليل من التفهّم والتروّي؟ لا عليك، كلّ ما هو آت آت، وكلّ الأقدار مكلّفة، لو تعرف! لو تعرف كم كلّفني قدر لقائنا؟ الآن بتّ ممسوسة، انقلب نهاري ليلاً وليلي نهارًا، ما سلّمني في الأخير لكتابة هذه الرسالة إليك - وإن كانت السُبل أغلقت فيما بيننا - على أمل أن تصحو ذات يوم وتتفقّد ضميرك فيرقّ قلبك لي قليلاً، أكتبها وأنا في ذروة احتياجي إليك، على عكس ما تفترضه! بل إنّ بداخل أحشائي يمور لغط يبدو بلا نهاية، وتساؤلات مضنية، وأفكار لئيمة. كنت أتمنى ألاّ يؤلمنا القدر، لكنك تعرف القدر، أنا التي لم أدخل في صدام طيلة حياتي دخلته مع قدري، يا له من قدر عابث! بلغت فداحة التشويش دون مبالغة، ووصلت في النهاية لقناعة حكيمة بأنّي لابد أن أتغاضي عن مثالبك الأخيرة، وأبدأ في التسامح، وعليّ أن أعترف أنّي متسامحة معك لنهاية المطاف، ذلك لو أنّ بيننا مطافاً، لكن قد تجد رسالتي فيها بعض مماطلة، أو بعض حيرة، وربما بعض النفوذ لثرثرة لا طائل منها، إنّما ينبغي أن تشعر بمدى شوقي المبثوث طيًّا بين السطور، إنّها أشياء تُستدرك حسًّا.

ترى أصرت بلهاء بحبّي لك؟!

وهل كان في عمري بارقة أمل إلاّ حين قابلتك؟!

هل كانت أنواء حياتي تنذر بسكون قريب؟!

ما بيننا كان ألماسة بريقها يأخذ العيون، قل لي أين أخفيتها؟ هل دفنتها في عمق غرورك السحيق؟ بالله لا أسألك ولكنك أضحيت لغزًا عسير الحل.

ارتجف القلم في يدي، بسرعة كوّرت الورقة ثم أسرعت بتمزيقها، كأنّي لا أحتمل خسارته تحت أيّ ظرف، كأنّي أود لو أُبقي على النذر اليسير الذي خلّفته علاقتنا. على دقات قلبي تتراقص أطياف في ظلام الغرفة، وريّش مروحة السقف تشفط رأسي وتدور بها دورات متعاقبة خاطفة، فلا تتّزن الدنيا من حولي، أشعر بالانشطار وكلّ شيء به ريبة غير متوقعة، الستائر تتدلّى إلى أسفل في خنوع، زجاجة عطري المشروخة في الدولاب يتسلّل منها العطر هاربًا إلى الخارج، غطاء زجاجة العصير مائل لأعلى، الملابس منكمشة فوق بعضها البعض، الوسائد تحتمي ببعضها تخشى ثقل جمجمتي، الدببة ألعابي مقعية على وجوهها وكأنّها تنتظر جلد سوط أبي، لعلّها - الأشياء - تنذرني ببؤس قادم، لكلّ مشاعري وكلّ تخيلاتي. أحسست أنّ الأتربة تغطّي عيني، إمّا بالفعل كلّ الأشياء مغبّرة.

كم أحسّ أنّ في داخلي طاقة، أما آن لها أن تطفو؟! طاقة قابعة في قاع جسدي المشرّد.

أمرّر أناملي فوق خدي الناعم وأُزيل دموعي، كانت المرآة سكة وعرة عليّ تجاوزها، ففيها وبين أمواجها يكمن شبحي الذي أخاف منه، بسرعة أوليت لها وجهي وانخرطت في التفكير، هل تكفي الدموع لتفريغ ما أشعر به الآن؟! وما جدوى الدموع أصلاً؟ ماذا يمكن أن تفعل بي غير التيه والتردّي؟!

أرانا جالسين تحت ظلّ العشق ننجرف خلف الحديث العذب بالساعات، فينقضي النهار ويحفّنا المساء بمجيئه السلس، أسمع ضحكاته وهو يداعبني: أريد أن أبدو أكثر واقعية معكِ.. أشعر أنّني مجرد مجاز في حياتك. أحدجه بنظرة مستنكرة متدلّلة، أقول في هيام: إن كنت أنت المجاز فأخبرني أيّ حقيقة بعدك في الحياة؟!

في أول لقاء لنا، كانت الحياة أكثر سطحية ورتابة، كلّ شيء كان مرتّبًا ومنظّمًا وباردًا، وهو ما كان يقلقني، أنا أعشق الفوضى، أعشق العبث، إن كان ترتيب الخطوات والمساعي والأوقات بالنسبة لفتاة - انتقلت توًا من عالم راكد لعالم صاخب - من الأهمية ما يجعلها آمنة مستكينة بلا أخطار أو معوقات، فإن "الدوشة" بالنسبة لي تحديدًا عاملاً أساسيًا على التعايش، لم أكن يومًا منظّمة، حتّى في غرفتي الخاصة جدًا في بيتنا، كان كلّ شيء "مدربكًا"، وشيء من تمرّد دومًا كان يدفعني للانقلاب على كلّ المفاهيم الراسخة والعادات السائدة، كنت أخرج بشعري الهائش المتموّج ضاربة بتحذيرات أبي عرض الحائط، كنت الوحيدة في المدينة التي تخطف نظرات الفتية والرجال، مؤكد طالما يشعرون بأنّ تحرّرًا ما يطغى على تفكيري. ولعلّك لا تدري أنّ أبي ليس محافظًا للدرجة، إنّه يعشق سهرات اللّهو والعربدة، يعرف أنّني

صعبة المراس، ويعرف أكثر عن عِندي وصلابة رأسي، لم يمنعه هذا من أن يتزل على جسدي بضربات سوطه المؤلمة مرّة بعد مرّة، وهو يصيح:

- يا بنت الكلب أنتِ لست صغيرة.. الناس في البلد أكلت وجهي.

والدماء تنسال من شفتيّ وأنفي وجسدي، كنت أبتسم ابتسامة هازئة، مهما ضرب وعاقب ونهر، لي الحق في اختيار مظهري ومنحى تفكيري، ما أكبر عقاب سيحل بي؟! الضرب.. الألم.. الحرمان من الدراسة، ليكن، لا تعني الدراسة لي شيئاً في واقع الأمر، وأغلظ ما سيكون أنّه سيضربني بسوطه حتّى أجاور أمّي في الجبّانة القريبة، وكنت أتساءل: لماذا رحلت أمّي وتركتني لسوط أبي دون إنذار؟

وكان أبي يضرب كفّاً بكف ويكلّم نفسه كمجنون:

- كيف لا أستطيع قصف رقبتها؟ كيف أعجز عن إرغامها على طاعتي؟

أجل أتحمّل لسعات سوطه بكلّ جسارة، له العذر، المجتمع الذي نعيش فيه ضيّق، لا يتّسع لكلّ المفاهيم الإنسانية، ضيّق لدرجة أنّ المتخلّف فيهم وليّ، يسرعون بإقامة ضريحه حين مماته، يصبح الضريح ملاذ البائس ومهجع الشاكي، يذهبون ليتوسّلوا الفرج والنجاة، كلّ هؤلاء مساكين، لك العذر يا أبي، قد لا تدرك أنّني أعرف الله أكثر منهم، ففي كلّ صلاة وكلّ خشوع، في كلّ دعوة وكلّ تهدّج، أرفع إلى السماء رأسي وأرجوه الفرج القريب.

في المدينة أسير كطاووس زاه، أترفّع عن نظراتهم الساخرة وتعليقاتهم الموجعة، أشُفق على أرواحهم التالفة، أرواح يصعُب

ترميمها، فطالما استأسد الجهل في العقول لا مفر، يصدّقون الأكاذيب والترهات من ثمّ يؤمنون بها هذا الإيمان التام وعن قناعة راسخة، حكاياتهم الكثيرة بائسة، لكنّها مع ذلك تافهة، على الأقل في نظري، بل أتفه من أن يدوّنها زمن أو تاريخ، بؤساء.. هل يعرفون أنّهم هنا بلا تاريخ؟! من ذا الذي قد يلتفت لهؤلاء المهشّمين؟ معضلة! ربما أكبر معضلة في هذا المجتمع الذي أعيشه دون طواعية ولا اختيار هيّ أنّهم كلّهم مهشّمون، رحى من عهد غابر قد طحنت كلّ طموحاتهم وعقولهم، لا أدري إن كان هذا فعل الطبيعة الجغرافية أم فعل الطبيعة البشرية؟! الأكثر غرابة أنّهم كذلك مهمّشون، يخالون ألاّ رجال سواهم في سعة العالم ورحابته، إلا أنّهم في الواقع يعيشون داخل بؤرة من نسيان أضأل من أن ترصدها ولو عين مجردة.

حبيبي ثمّة ترسّبات في نفس كلّ واحد يشقّ كثيرًا الوقوف على تداعياتها، أو حتّى تفسير ما قد تؤول إليه من نتائج يحتمل أن تصيبنا بربكة وتشتت حتّى إشعار أمل جديد، أتذكر عندما كانت أجنحة الفراشات الهائمة فوق آلاف الزهرات تشع ألوانًا متدرّجة ومتباينة، أقواس قزح أحاول أن أتفادى لمعانها الذي يسقط على عينيّ.

آخذ في تذكّر كلّ ما مضى من غير استدراك فعلي، وأتذكّر كذلك أول لقاء لي معه بعد عمر خامل من غير هوى، عندما تعثّرت فسقطت الكتب منّي وفلتت وردة نائمة بين أحضان كتاب، كان هو من رفعها عن الأرض ببطء وناولها لي، آنئذ كان قوسا قزح أيضًا يثبان من عينيه نحوي، بثبات وهدوء تنحنح وقال:

- تفضلي..

أتلعثم، أشعر بالحرج وأنا أرمق الوردة بين يديه، لم يكن هناك ما يوحي بالارتباك، لكنّني سرحت في كلّ مظهره، حذائه الأسود الذي يلمع كأنّه لم يطأ الأرض قط، قميصه المكوي باهتمام، حزامه الجِلدي الذي يزيّن خصره بـ"توكة" تنعكس عليها أشعة الشمس فتنغلق أهدابي، ساعته الفضيّة، بنطلونه الجينز المستمسك بساقيه، في لحظة عابرة أخذت ألاحظ كلّ ذلك، بنظرة غير ثابتة، وأخذت أتفقّد بنفس السرعة مفردات وجهه، كان بريئاً كبراءة صبح وليد، شعره القصير بدا كعمامة من خيلاء تكلّل عرش رأسه، ابتسامته العفوية قطرات من رحيق عذب وددت حقًا لو ألعقه من فوق شفتيه، أحسّ بهذا التشتّت، ابتسم أكثر، كانت الوردة بين يديه لم تزل، وكان مادًّا لي أصابعه بها، قلت بتوتر:

- شكراً..

- لا داعي.. انتبهي فقط.. فالجامعة بطبيعتها مليئة بالعثرات.

وقفنا متقابلين، لحظة من سكوت مطلق جابت ألسنتنا، أثناء ذلك رحت أتأمله بإحساس حديث الولادة، وراح يتفقّد هيئتي من تحت لفوق بنوع من غطرسة مغموسة بإعجاب، لبكن.. لا يهمني! هذا حقه، يدرك أكيد ما مُنح من عطايا، ليتعالى وليتغطرس كيفما شاء، إن لم يكن لشجرة فارعة سامقة كلّ التعالي فلمن!

تنهّد ورفع يده إلى أعلى فظلّل وجهي وهو يقول مبتسمًا:

- شمس هذا النهار قاسية..

بادلته ابتسامة رغبة وامتنان، تشجّع مكملاً:

- يبدو أنك جديدة في الجامعة؟ لقد رأيتك مرة أو اثنتين من قبل!

أومأت برأسي، كان لساني مغلولاً فلم أستطع الرد. تفرّست في ملامحه، أدهشني هذا التناسق، كلّ تفاصيله شبه مكتملة، لا توجد معالم كبيرة ولا صغيرة، ولا يوجد ملمح مميز، إنّما بالمجمل كلّ ملامحه تسبح في اتّساق وطمأنينة. كنت أخشى التحرك، لعلّي أخشى بالفعل من أن أرحل عنه فيروح دون رجعة ولا أراه ثانية، بدا طيفًا من خيال استدعاه قهر قلبي فتشكّل أمامي، ظللت متسمّرة أمامه كأنّه منقذي وأنا طفلة تائهة تخاف الزحام، وظلّ واقفًا، هذه الوقفة التي لا تشف عن أيّ تصرف، وكأنّه يقف فقط لمجرد الخجل، أو الحرج من المضي دون استئذان، لكنّه أردف قائلاً مثلجًا صدري:

- اسمحي لي إذن بدعوتك لاحتساء مشروب ما دمت وافدة جديدة!

زفرت بارتياح، لن أفقده الآن، ستسنح لي فرصة أخرى للتمعّن في كلّ تفاصيله ثانية بروية وعلى مهل، تطلّعت إلى الوجوه الفضولية التي تتابع خطواتي وأنا أدلف وراءه إلى إحدى الحدائق، بسطوة الرجل بداخله تخيّر منضدة وجلس، وضع ساقاً على ساق وأنا أستأنف الخطو ناحيته، جلست، راح يتلفّت بحثًا عن عامل، ورحت أتشبّع من عذوبة بريق وجهه، إن كان ثمّة صفاء في كلّ الوجوه التي مرّت بي في حياتي فهو الصفاء ذاته خالصًا لا تشوبه شائبة، انتبهت وهو ينقر أمامي، ابتسمت، يبدو أنّني شردت في ملامحه بعض الشيء، استطرد بأدب:

- هه.. ماذا ستشربين؟

- فنجان قهوة.

ارتدّ إلى الوراء قليلاً، واتّسع فمه لابتسامة كبيرة، وهو يقول ببساطة:

- "وااو".. قهوة! أعجب من مزاجكن الذي يهفو دومًا إلى الكيف! على الرغم من أنّ القهوة كمشروب عالمي هو كيف الرجال، هل تعرفين أنك لست أول فتاة تطلب القهوة وهي جالسة معي؟!

بدا عليّ بعض الاستياء، معنى هذا أنّني لست أول من تجالسها! شعر بما اختلج في قلبي، فأدار عنّي وجهه في ابتسامة حرج وطلب فنجانين من القهوة.

- على فكرة.. آسف.. دون أن أسألك طلبتها قهوة مضبوط!

- أنا أشربها هكذا بالفعل..

- يا للروعة! يبدو أنّنا نتشابه في بعض الأمور.

يصافح البعض، ينصرف عنّي لوجوه يعرفها، يهبني فرصة أكبر لتأمّله، أتطلّع دون استحياء إلى نبض فرّ من جسده نحوي، نبض يحمل نجوى ملهمة، يسبل جفنيه قليلاً ويركّز في إشعال سيجارة، يفشل في عدّة محاولات مع أعواد ثقاب واهنة، ثم يرجع بظهره للوراء عندما تشتعل السيجارة وهو يشدّ النفس الأول موارب العينين مرتعش الأهداب، تدور أصابعي بفنجان البن في الطبق بلا تركيز، وعيني تناشد عينه الرجوع، وجوارنا أحد الشعراء يشدو، ومطرب يضرب العود، يعود لي ببصره في تأمّل مباغت، يقتحم خلايا عينيّ فلا أشبع، أناجيه هل لنا أن نلتقي كلّ يوم؟ يضطرب القلب حين أشعر به يجيب وكلّ ساعة لو أحببتِ. الشفاه منغمسة في إطباق متردّد، غير أنّ عينينا

يتخاطبان بغير رقيب، كان الزمن يمرّ بي بسرعة ألف قدم، وتفل القهوة جفّ وتشرّخ داخل الفنجان، لم أكن على دراية بأنّ المساء قد غلّف الأفق، إلاّ حين تسرّبت بعض الخيوط الواهية، هممت بانصراف أليم، وكان هو جالسًا يعاتبني بعينيه كيف إلى الآن لم تخبريني عن اسمك ولم تسألي عن اسمي؟! هل تلك أشياء لم تكن لترد على الخاطر! ربما لعدم أهميتها، وربما لأنّ اللقاء غير المنتظر طغت حلاوته على التحدّث في تفاصيل كهذه لا ضرورة منها؟! لكنّني فرجت فمي عن ضحكة قصيرة محرجة لأنّني كان لابد وأن أتعارف عليه قبل الجلوس معه في الأساس، قلت بنبرة تحمل الاعتذار:

-"نورا".

تتلاشى المعالم رويدًا، يخفق في فؤادي جموح آسر، بلا وعي اتّفقنا على موعد الغد، هو ذات الميعاد، هو ذات المكان، الجامعة، يطير جسمي من على المنضدة ويتأرجح في الأجواء، أذوب ببطء في ثنايا غياب موجع، كذوبان حلقات الدخان التي ينفثها فمه.

حبيبي، لم أعد كما أنا.. لن يهمك أن تعرف إن كان رجوعنا أحد الاحتمالات القريبة الواردة، لكن ثق أنّني لست بالضعف الذي تفترضه، لعلّك لا تعرف أنّ أقوى ما بداخلي هو عِندي وتمردي على كلّ شيء.. وأيّ شيء، حتّى ولو كان هذا الشيء هو الذي يقيم حياتي أجمعها، ولن يهمك كذلك أن تعرف مدى المعاناة والتمزّق اللذين عانيتهما أثناء هذه المرحلة، مرحلة تركتني - وهذا ممّا يُحسب لك لا عليك صدقني - وأنا أتلهّف لسماع صوتك أو قراءة ولو رسالة أخرى غير هذه التي مارست عليّ من خلالها صلفك وتعاليك، لكن الآن أجدني أكثر تحيّزًا لفكرة أنّنا

لابد وأن نتمهّل قبل الخوض مليّا في أيّ تفكير نحو استعادة العلاقة، بعيدًا عن هذا الشوق الحبيس الذي يعتصر فؤادي في كلّ ليلة تفصلني عن لقائك، حبيبي.. ما يزعجني حقيقة - دون النظر لما أتيته في شأني - هو إحساس التسلّط الباطن الذي يتسلّل إلى كلّ لحظة من لحظاتنا، تغاضيًا عن روعة ما تفعمني به من أحاسيس، لكن هذا الإحساس يبدو وكأنّه يدخل إلى كلّ اللقاءات عنوة، ربما لا تستطيع السيطرة عليه، أو على نفسك، ربما لا تعبأ به وربما لا تشعر به من الأساس، إنّما كلّما تركت نفسي لك يلحّ ذات إحساس التسلّط بلا بوادر، لكن رغم ذلك بقاياك تتحوّطني من كلّ الجوانب، رائحة الزهور تشيع في الجو كأول مرّة تمامًا كما شممناها معاً، لمساتك تتحسّسني الآن بكرًا وكأنّي أحسّها للمرّة الأولى، الغرفة بأكملها متشبّعة بأريحية وجودك، وكأنك جالس بجواري تتفقّد خطّ القلم داخل هذه الورقة فتسترشد بك أناملي، على أيّ حال أنا أكثر تركيزًا من ذي قبل، تبدّد قليلاً ما كان يكتنف ذهني من تشتّت وتخبّط، قد أسامحك، إنّما عليك أن تسامح نفسك أولاً).

رحت أقلّب بين الرسائل والدفتر، وكان عيناي تنهمران بالدموع، أدركت كيف أنّ الهانم مُغرقة في الأسى! ومضيت أتصفّح رسالة بعد رسالة:

(في نفسي مانعٌ لا أستسيغه يحول بيني وبين الاعتراف المطلق.. هل هو كِبر مأثور لا تزال آثاره باقية في روحي؟! في الواقع أجهل تفسير ما يحدث لي.. إن لم يكن الاعتراف واجبًا فالأقلّ أن أفعل ولو من باب أن يستريح ضميري.. إنّما لا أعرف! ثمّة شيءٌ ما.. قيدٌ ما.. يجعلني أكتفي بأن أدفن رأسي بين أعقاب السجائر والغمغمات المؤلمات ولا أفكّر في توضيح

ما نجم عن حماقتي.. ولعلّني أغلب الظن أخشى أن أفقدك إلى ما لا نهاية.. أن أبريء ساحتك فتتملكك العجرفة ويستحوذ عليكِ الكبرياء.. رغم أنّني موقن أنّ خصالك بعيدة كلّ البعد عن أيّ ظنّ من ذلك القبيل.. لكنّني ما زلت خائفًا.. لا أقوى على مثل هذا الاعتراف.. حبيبتي.. ما الذي يغلّب فضيلة الغفران لديك؟! هل آتي باسطاً قلبي للعقاب؟! أم أترك الجرح للوقت حتى يلتئم؟! لكن على أيّ حال سامحيني.. أهمس بها لكِ وقد تسمعينها كحلم في غور عقلك الباطن.

أترينني جننت حين أتحدّث مع نفسي كممسوس؟! يبدو أنّ الخط الفاصل ما بين البلاهة والشرود مجرد حسّ واه، بتّ أكره رائحة الزهور.. أنتِ تعرفين يا حبيبتي أنّني لم أكن لأعشق غير رائحة الزهور، لكن ترتبط الرائحة الآن في ذهني بأيام مخادعة، أشعر أنّ كلّ خلجة في تلك الأيام كانت مجرد سبيل للخروج من مأزق ما، وأنّ كلّ كلمة بدت صادقة وقتها هي في النهاية أضحوكة عليّ أن أقنع نفسي بزيفها، أصعب الأمور أن يبكيكِ الهوى.. أن يحترق القلب ويكتوي بنار لا يضاهيها أيّ ألم.. وأن تحتشد عيناكِ يا عزيزتي بالدمع دون حتّى أن تجدي أنكِ تستحقين مثل هذا الألم، لا زلت أذكر حين توقّفتِ عن الحديث بغصّة، رشفتِ من فنجان البن رشفة بطيئة ثم رحتِ تتطلّعين إلى الحدائق المترامية بامتداد البصر في الخارج بصمتٍ طويل، كنّا جالسين في حديقة في شارع "الأزهر"، ثم طلبت فنجانًا آخر من القهوة، تفحّصتكِ في دهشة، سألت نفسي: لماذا تُفرطين في شرب القهوة؟! ما سر غرامكِ بها؟! كان الفنجان الرابع تقريبًا الذي تطلبينه.. أعرف أنّ المرء قد يهوى شرب الشاي.. عصير الليمون.. أو حتّى الزنجبيل على

سبيل المثال.. لكن القهوة! لا أظن أنّ لها الإغراء المميّز الذي يدفعني لعشقها مثلما تفعلين، تحتسينها بشكل خرافي، لا يفعله أشدّ الرجال المتمرّسين في شرب القهوة، وكان شيء من ملل قد احتوى نظرتك نحو الحدائق المترامية أمامنا، وأنتِ تنظرين في عمق وفي جدّية، استدرتِ نحوي وقلتِ:

- يا للخسارة...! كلّ هذه الزهور الجميلة بألوانها الخلاّبة وروائحها المفعمة بالروعة مصيرها إلى زوال مؤكد.. عمرها أقصر ممّا تحمله لهذا العالم من بهجة.

- ألا يكفي أنّها تفنى من أجل أن يُنبَت غيرها فيتجدّد العالم...!

- وما ذنبها؟!

ثم عضضتِ شفتك السفلى في أسى، وبدا أنّ عينيكِ لا تودان الاستقرار في نظرة معينة، فقلت لنفسي: يستحسن ألا أنجرف خلف توطيد ذكرى الأب التي لا تستطيعين أن تهربي منها، فأنا لا أفهم لماذا تطاردنا الذكريات الأليمة حسبما تشاء، حاولت كثيرًا الفرار من قبل، لكن يبدو أنّ الذكريات قدرلن يرحمنا.

قلتِ دون أن تنظري نحوي:

- أعتقد أنّ السبب الحقيقي وراء هذه المعاناة أنّ عقولنا لا تتوانى عن التفكير..

تنهدّت قائلاً:

- ربّما.. نعم.. كنتَ أفكّر كثيرًا مثلك من قبل، الآن لا أحاول أن أفكّر.. ولو حتّى قليلاً.

- لماذا إذاً تحمل كلّ هذا الحزن في عينيك؟!

لم أرد، وشخصت ناحية الحدائق، لسبب ما تذكّرت زوجتي وهي جالسة تدندن معي، كان صوتها الآن يطنّ في رأسي، وودِدت لو أتمايل مع النغم الذي يسري في عقلي دون الاعتداد بكلّ الموجودين حولنا، لسبب ما أرى الآن نظرتها الراشقة وهي تودّعني في المستشفى، فيوجعني مشهدها وهي تسبل جفنيها، تختفي مع طلوع شمس نهار جديدة، وتتحوّل إلى مجرد نقطة سرمدية في فضاء المدى عالقة بخيالي، يا للألم!

قلتِ يا حبيبتي وكان فنجان القهوة قد انتهى فطلبت بسرعة واحدًا آخر والنادل ينظر لكِ متعجّبًا:

- لو بحثنا بشكل دقيق في حياتنا سنجد أكثر من سرّ وأكثر من مأساة، أنا مثلاً، عرفت عدّة أشكال للظلم، كان أبي قاسيًا للغاية، ولم يكن صديقًا لي يومًا، وكانت أمّي مع ذلك هي نبراس البيت الذي يضيء عتمته، رغم أنّها كانت مثالية في كلّ شيء، في الرضوخ لأبي، في صبرها على العناء معه، وحتّى في خدمتها له، كانت مثاليتها فريدة، وأنت تعرف أنّ أبي واحد من الإقطاعيين أصحاب النفوذ، معه الجاه والمال لكنّه لم يستطع إنقاذ أمّي، تخيّل ماتت أسرع ممّا يتوقّع أحد، حاصرها المرض، وحزنت المدينة، كانت يومها ليلة مطيرة، وفي هذه المدينة الماجّة بجبال تطوّقها من كلّ جوانبها؛ عندما تمطر، يتحوّل الناس إلى فئران، عذرهم عدم التعوّد على المطر، أشعر كأنّهم ينجذبون نحو بعضهم البعض فيشكلّون كتلاً من أقدام مسرعة يفرون من المطر إلى كلّ مداخل البيوت، يقبعون تحت المظلات الخشبية، يتدافعون بالمناكب، يتراصّون كقطع شطرنج فوق رقع محددة، ثم والمطر يسيطر على كلّ

شيء، أكون تحته - على الأرجح - وحيدة أجري بلا هدى، جريت عندما ماتت أمّي، جريت في كلّ الشوارع، وكرهت معنى الفقد.

لكنك حبيبتي تعشقين المطر، تذكرين يوم أمطرت هنا في "القاهرة"، أقنعتك أن ترحلي بطلوع الروح، قلتِ لي: وما الضير في بعض البلل والبرودة.

- يا حبيبتي.. ستغرق الشوارع كلّها بعد قليل.. يجب أن تذهبي..

- آه لو أبقى العمر في حضنك والمطر لا يكف عن الانهمار!

- لو بيدي..لبقينا حتّى مطلع عمر جديد.

تختبئ العصافير في أخاديد الأشجار، تهيّب الدنيا مجيء هذا المطر فتتوارى خلف سماء متصدّعة، أقبض على يدكِ، نتجه كلانا نحو وسط المدينة الغارق في المطر، تودّعيني بنظرة حانية، ويبتلعكِ ظلام المساء.

الآن، أنزوي يا حبيبتي في غرفتي، لامتداد الصباح وعيني متحجّرة، تصفو الدنيا فجأة مع ولوج الشمس، ولا تصفو نفسي. لذلك، حبيبتي، ومن وسط كلّ أكوام الحزن التي بتّ أعيش فيها من بعدِك، من بين أوراق محترقة، وذكريات مريرة، من بين أكواب البّن والشاي، ينبغي أن أصارحك بالحقيقة..

لم أزل باقيًا على حبك، تمامًا كما كنت باقيًا من ذي قبل).

أمسكت دفترها، فررت صفحاته، بدا أنّ الحكاية بلا روابط، معلّقة، لا تنتهي.

(كيف يُمكن يا حبيبي أن نطبّب الشروخ؟ لن أنكر عليك مكانك في قلبي، ولن أعاند، أنا أهفو إليك، حاولت كثيرًا أن أنسى، انتظرت أكثر

أن تبادر، ولو بإبداء الأسباب، كنت أعرف أنك وقتها كنت مسكونًا بوهم ما، لم أتبيّنه بالتمام، لكنك لم تكن حينها نفس الرّجل الذي أحببته، لذا، أعدك بالغفران، أعدك أنّ ذكراك ستظلّ باقية لن يمحوها زمن، ومهما بكيت، أعرف أنّ الدموع لن تكون الدواء، أنت علّة استوطنتني، ولا دواء لها، إلاّ معجزة إلهية، سأكتفي بذكراك لأرمّم مستقبلي، وقد سامحتك، فأنت الحقيقة الوحيدة في حياتي).

طويت الرسائل والدفتر وأقعيت على وجهي أبكي كطفل رضيع، يا لها هذه الحياة! تتكرّر المآسي بوجوه متبدّلة، المأساة بلا وطن، مأساتي ومأساة الهانم ومأساة حبيبها، وتساءلت: ما الذي يدع المرارة طليقة هكذا جانحة لا تُبقي ولا تذر؟

14

وكنت أرى الهانم تذبل، يومًا وراء يوم، جاءتني يوم جنّ جنونها، في المساء، دخلت الإسطبل ولم يكن مستيقظًا أحدٌ غيري، كان دفترها وكانت الرسائل متناثرة فوق سريري الجريد، طلّت عليّ من خارج الحجرة، وقعت عيناها على الأوراق، لكنّها أشاحت بوجهها وقالت:

- سأخرج بـ"مزيانة".

أدركت أنّ الجنون يستحوذ عليها حتّى هذه اللّحظة، فُزعت وقلت لها:

- في هذا الوقت يا هانم؟

- لا يخصّك، جهّز "مزيانة".

- والباشا، يجب أن نعطيه خبرًا.

- أنت ثرثار أيّها الكُردي، نفّذ ما أقول.

أُسقِط في يدي، لكنّي خفت ثورتها، وجنونها، فدخلتُ حجرة "مزيانة"، وضعت اللجام على فمها والبردعة فوق ظهرها واستوثقت من إحكام الحدوات في حوافرها، فامتطت الفرس، لكنّي أصررت أن أرافقها، رغم رفضها في البداية، ولمّا شافت عِندي وتمسّكي قبلت على مضض، فأمسكت لجام الفرس، وخرجنا وسط هدنة السراي، وكانت الهانم تئن في خفوت، أدركت أنّها لم تزل تتوجّع، وقد وقفت على بعض

أسباب هذا التوجّع، دخلنا في الدروب بين بيوت مجاورة، وقطعنا مسافات من التباب والكثبان وولجنا إلى المعبد، كانت الكباش رابضة تحدّق إلينا بعيونها الحجرية، ونحن نمضي في الطريق، وفوقنا المسلّات والتماثيل، همهمت الهانم:

- وكأنّنا نعيش أسرى الجدران تمامًا كهذه التماثيل!

- هونًا عليكِ يا هانم، في الحياة ما يستحق أيضًا.

فاستدارت لي وقالت:

- هل عبثت بمذكراتي ورسائلي؟

وقعت عيناي أرضًا ففهمتْ أنّي فعلت، فقالت:

- لا بأس، ولكن ينبغي أن تُعيد لي ما اختلسته.

لم أردّ، وتركتها تقول:

- لا شيء في الحياة يستحق، إنّها صمّاء، جرداء.

وطلعت بنا الفرس فوق تبّة رملية، كانت المدينة تحتنا غافية، وكانت جدران المعبد من خلفنا داكنة وشعرت أنّ ثمّة فحيحًا يسري في الأجواء، وريح تتخلّل الفراغات وتصفّر، ترجّلت الهانم من فوق ظهر الفرس، وتمدّدت على التبّة، وأغمضت عينيها، فاستطعت أن أتأمّل في ملامحها تحت ضوء القمر الشحيح، وشعرها يتطاير حولها، واستغرقها التنهّد، فاستغرقني التأمّل، لو أنّ لي حياة أخرى غير هذه! من العجيب أن تكون أمامنا اللآلِئ ولا يُمكننا غير النظر إليها بحسرة! لا يُمكن حتّى أن نتحسّس ملمسها، كانت الهانم تتضوّع، وكنت واقفًا فوقها، وحولنا ريح وصفير وهسيس وذكريات، والفرس تحمحم، وفي قلب السكينة لا

يُمكن أن نسيطر على خيالاتنا. فرأيت الهانم ترمح ورأيتني أرمح وراءها، ورأيتنا منسلخين من رداء الحقيقة. هل يُمكن أن يحتمل العالم مثل هذا الجمال؟

ومضى بنا الوقت، وبدت الهانم كأنّها غفت، ثم في لحظة استفاقت، ركبت الفرس دون أن تنظر لي، وقالت:

- هيّا بنا.

عدنا أدراجنا، وكنّا أكثر ميلاً للهدوء والصمت، وأعرف أنّي لست أكثر من خادم إن أُمر يطيع. فوخزني التصوّر في عمق فؤادي، لو أنّ لي وطنًا ما جئت خادمًا في وطن بديل. أمّي تقول أنّنا دومًا نخدم الرّب. أمّا هنا، فنحن نخدم مع الرّب البشوات والأعيان وأبناءهم. يا له من وطن!

وعلى باب السراي، كان "بيومي" يقف مفزوعًا، وقد أيقظ الباشا الخدم جميعهم، ورأيت وجهه من وراء الخدم يربد، أصاب الهانم الهلع، إنّما سرعان ما ابتسمت ساخرة، وتقدّمت وسط الخدم والباشا بالفرس، لا تكترث. نظر لي الباشا ثم استدار إلى "بيومي" يزعق:

- "بيومي"!

التفّ حولي الخدم، وهمس "بيومي" في أذني وعيناه دامعتان:

- سامحني يا ولدي.

قيّدوني في جذع نخلة، بعد أن جرّدوني من ملابسي، وبعد قليل خرج الباشا من بهو السراي، وفي يده اليمنى كرباج، وفي يده اليسرى جديلة من شعر الهانم يجرّها وراءه، لكنّها كانت تحتفظ بنفس الابتسامة، نزل عليها بسوطه أولاً، ولم تتلوّ، ولم يصدر منها صوت، فجنّ الباشا، ولفّ

ناحيتي، ونزل عليّ بسوطه، وفمه يرغي ويزبد، والخدم حولنا مطأطئو الرءوس، وكان الباشا يصرخ:

- هذا جزاء من يخالف أوامري.

كنت مستجدًّا على أن أستوعب كلّ أوامر الباشا، لكنّه مضى يجلدني وأنا ساكت، لم تكن الهانم أجرأ منّي! وبدا هذا يغيظه، فيجلدني أكثر، ولا يتوقّف، ثم أخذ يكيل لي ضرباته حتّى مطلع الفجر، وظللت مربوطًا في جذع النخلة.

15

كان "بيومي" قد راح يمسح جروح ظهري بالمايكروكروم والقطن، وكنت ممدّدًا على بطني ولم أكن أحسّ بجروحي قدر إحساسي بوجع الهانم، كم أنّها لئيمة هذه الحياة! لم أكن أفهم لماذا تعاني الهانم مثل هذه المعاناة! كانت حمحمة الخيول تهمس في أذني وتخامر ذكرياتي، وكانت الرّيح تنفذ من بين ثقوب الحجرات وتزأر، والنخل يحفّ مع نسائم الفجر، وكنت كلّما مسح "بيومي" جُرحًا تأوّهت، وأحسست به يتأوّه مثلي، ويتوجّع، وهو يقول:

- كان مالك يا ولدي ومال شحططة الهانم!

- غصب عنّي يا عمّ "بيومي".

- يا "عبد السّميع" يا ولدي السراي هنا مليئة بالأسرار والحكايات، لكن لهم دينهم ولنا دين.

اعتدلت مرتكزًا على مرفقي، وقلت:

- إنّما يا عمّ "بيومي" نفسي أفهم حكاية السّت الهانم! ما الذي يجري؟

- ولا حكاية ولا يحزنون، السّت الهانم الكبيرة ماتت في عزّ شبابها، يمكن لم تحتمل ظُلم الباشا وقسوته، تخيّل الباشا كان حابسها في السراي، منعها حتّى من زيارة أهلها في برّ "أسيوط"، وكانت الهانم

الصغيرة ساعتها لم تتعد العشر سنوات، لمّا مرضت السّت الكبيرة، والحكماء احتاروا في مرضها.

ورأيت "مريم" الأرمينية والحكماء عندنا احتاروا في تصنيف دائها، إنّ المأساة تكرّر نفسها من وطن لآخر.

- المهمّ يا ولدي ماتت السّت الكبيرة وسابت الهانم كي يربّيها الخدم، أنا واحد ممّن شاركوا في تربية الهانم، كنت أرعاها مثل ابنتي، وكنت أرى الباشا وهو ينزل على جسمها الرقيق بالكرباج، لكن يا ولدي لم نكن نعارضه ولا حتّى كان يُمكن أن نتساءل عن دوافع هذا! كلّ الذي أمكننا فعله هو التأسّي على حال الهانم في صمت. إنّما يعلم الكثيرون أنّ الباشا "زناتي" مخبول، عقله خفيف، وأهون ما كان يفعله أن يستخدم الكرباج مع الهانم الصغيرة ومعنا، لكن أكل العيش مرّ يا كُردي، مجبرون يا ولدي.

وقصّ لي "بيومي" كيف سافرت الهانم إلى برّ المحروسة كي تلتحق بالجامعة، وهناك قابلت أحدهم، وكانت كلّ مشكلته أنّه ينحدر من أسرة فقيرة من أسر المحروسة، فاتحتْ الباشا في الأمر، إنّما الباشا ضربها كعادته بالكرباج ومنعها من السّفر إلى الجامعة، ومن يومها الهانم أصابها الجنون.

وكان من العسير أن أحدّد المنطقة التي استوقفتني في الحكاية أو اللحظة التي بدأت ألاحظ فيها هذا التحفّز الذهني النافر الذي استولى عليّ، ومن المؤكد أنّه لم يكن بذلك الوضوح بداية ما انغمست في متابعة الحكاية التي يحكيها "بيومي"، فإنّ إحساسي بمضمون المأساة المقلقة في عمق الحكاية جاء على مهل، ونضج من دون دراية ملموسة،

كمن سيق عن غير عمد إلى غور مياه ضحلة، ومن العسير تحديد إن كانت كاملة أم مُجتزأة! حدث بعضُها من ذي قبل أم اختلاق ذهن منفرد شطح في خياله ليصبغ الحكاية صبغة المرارة! إنّما كان عليّ مع ذلك أن أفنّد أحداث تمرّ وأحداث سوف تجيء، هل يُمكن أن يتغيّر الحال بالسّت الهانم؟ هل يُمكن أن تنال بعض السعادة؟ ضحكت في حسرة، لا ينال السعادة في هذه الحياة غير الأوغاد، والباشا وغد حقيقي في الحكاية هذه - إذًا - ألف موضع لألف جرح، لكن كما زعم "بيومي"، لهم دينهم ولنا دين، مالي أنا ومال جروح الآخرين؟ لذا سرعان ما تقبّلت الصمت بلا حيلة، وبروية واتّزان وبسعة عقل، وأخذت أشرع في محاولة استبيان علّتي الكامنة وردّ الشيء غير المألوف إلى منبعه الأصيل، وهو فوضى الحدث الذي ساد، معي ومع الهانم نفسها، لسنا نتحكّم في مجريات حياتنا، ولا معطياتها!

ظللت لأيّام لا أقوى على الحركة، كان من الطبيعي أن يعاملني الباشا كخادم مأجور، غير أنّه لم يكن من الطبيعي أن ينتهك كرامتي، لم يضربني أبي قط، ولم أشعر بالإذلال مثلما شعرت والباشا يهوي على جسمي بكرباجه، أنحن حقًّا هوامش جوار هؤلاء؟ لكنّي لُذت بالصبر، كان الصبر أجدى خصوصًا أنّي فاقد المأوى والهويّة، وعاقرت نخلة في باحة السراي وكنت أجلس تحتها أجترّ ذكرياتي الأليمة، وأنتظر أن تطلّ الهانم فيُمكن أن تُعيد لجسدي بعض السكينة، لكنّها لم تفعل، وبقيت جالسًا تحت النخلة، وهي حبيسة السراي، وبدا عليّ أنّي مشتاق إليها، إن جاز لي الاشتياق، لا أعرف ما الذي يصل بين أحاسيسنا! لعلّه الوجع نفسه! ولكنّي - ومع مرور الأيّام - لُمت نفسي على هذا الاشتياق، ففي

الحقيقة لم يكن مشروعًا لي أن أستبيح أيّ شعور من الهانم، لأنّي لا أعدو أكثر من خادم وضيع يُضرب بالكرباج! لكن ألم تضرب الهانم نفسها صاحبة السراي بالكرباج أمامي وأمام كلّ الخدم؟

وفي ظهيرة، فتحت الهانم الشرفة، وما كادت تطلّ من الشرفة حتّى وجدتني معروفًا توّاقًا إليها، شعرتُ بذات الأعراض إيّاها.

إنّها واقفة أمامي تداعب كوع يدها، و ثمّة أشياء قدرية تعتمل في صدري، لا يمكن التحكّم فيها. حاولت الهانم عدم الاهتمام بل وأبعدت عينيها عنّي، وأسدلت ستائر الشرفة، إنّما استطعت أن أتبيّن طيفها وهي تتلصّص من خلف الستارة، وتتابعني بعينيها.

استطبت هذا الإحساس، ومار قلبي وماج، وبعد دقائق، أزاحت الستار ومضت تتطلّع لي، وبدا في عينيها التساؤل، العيون أبدًا لا تكذب، غالبًا هي الشيء الصادق الوحيد في كلّ إنسان، وبدا أكثر هذا الشيء الغريب المطلّ من عينيها، كأنّ الألم ينزح نفسه ويصبّ مرارته في قلبي، وأمسكت الهانم سيجارة وهي لم تزل تتطلّع لي، السيجارة في فمها ترتعش، والدُخان مجرّد حلقات مقتضبة وكأنّها تسفر عن توترها، ولأول مرّة تبتسم في وجهي، فأبتسم، كأنّ عينيها تخاطباني، كأنّها تستجديني الغوث، كما لو أنّ أخرى تتقمّصها، لم أحاول أن أستنبط، حيث إنّي أغبى من كلّ التأويلات، لم يدُر بذهني إلاّ أن أتأمّل في ضيقها وحزنها فضاع تحليلي لما ساورني تجاهها.

وقدحت أنغام البيانو مرّة أخرى، قلت لعلّها تعبّر عن خروجها من القوقعة، فمنذ أيّام لم تعزف الهانم على البيانو، كانت جريحة ربّما، لكنّ الذي حكاه "بيومي" أنّ الهانم جريحة منذ ماتت أمّها، غير أنّي

فردت ساقيّ تحت النخلة، وتركت أنغام البيانو الشفيفة تعاقر جوارحي، وإن كنت قد تساءلت عن عدم طرد الباشا لي؟! هل اكتفى بتأديبي؟ أم أنّه مخبول فعلاً؟

واندياح ذهني لأيّام كنت أدندن مع نغم "الطنبورة" الذي يعزفه عمّي، كم أنّها مراوغة هذه اللحظات! يتقلّب ذهني من يأس ليأس، ويساورني الهمّ كما لم يساور بشرًا قبلي، وبنت العمّ تتراءى لي غمامة سابحة في محيط السّماء، لكنّها غمامة مُحبطة، دهستها سطوة الحروب، أجل دهستنا جميعًا يا "زينب".

استظلّ بوجيب النغم، والهانم يستغرقها أنين الّلحن، فتمضي تضرب في حماس، وأنا ممدّد مثل أسير، تجتاحني الأفكار، وتتناوب عليّ الذكريات، ولمّا انصرم الّلحن، وجدتني مهرولاً إلى حجرتي، أستخرج منها دفتر الهانم ورسائلها، وأفضّه محمومًا، وأقرأ آخر صفحة في الدفتر سوف أقرأها قبل أن أعيده لها برسائله:

(سألتك بلهفة: ما بك يا حبيبي؟! تنهّدت وقلت: مخنوق. سحبتني كشاةٍ من يدي وجررتني خلفك دون حتّى أن أطلّع على وجهتنا، لم أكن مُساقة إن كنت رجّحتَ ذلك، بل كنت مشفقة عليك.. على هذا الضيق الذي يكتنفك الآن، كان قلبي يتوّجع عليك، فمضيت أتبعك كناقة لا حيلة لها وأنت تتشبّث بيدي لنخرج من الحديقة، ثم وأنت تلوّح لتاكسي وتجلس على المقعد الأمامي شاحب الوجه، يختلج فؤادي اضطرابًا وولعًا، حبيبي صارحني بما تشعر.. لن تجد غير مصغية دون نقاش، لن أتناقش في أيّ شيء، صارحني فحسب ولا تتركني مشتّتة هكذا.

كلّ شيء مغبّر، حذاؤك وأنت تهبط من السيارة، ملابسك ووجهك، شعرك الفاحم استحال إلى رمادي، استدرت نحوي تقول: لابد لنا من خلوة بعيدًا عن الناس.. أحتاج كثيرًا لأن أبوح لك عمّا يدور بقلبي.. ثمّة موضوع جدير بالنقاش الجاد بيننا. لم أتجادل، وربما كذلك أسعدني هذا الاحتياج المشوب بالريبة، إنّما لا يهمني سواك، أثق بك ولو بيننا وبين كلّ البشر ألف سور، لكن دع يدك تطمئن يدي، فأنا رغم هذا أرتجف خوفاً، هناك نغزة في قلبي تحثّني للرجوع، لكن أنت! كيف يا حبيبي؟! كيف لا ائتمنك على جسدي إن كنت ائتمنتك على روحي نفسها!

ورغم ظلمة مدخل البيت، إلا أنّ الحركة بدت فيه جليّة، كانت الأصوات تأتينا من فوقنا من كلّ الطوابق عالية، تسمّرت قدمي قليلاً، ظللت أنت واقفًا تنتظر أن أنصاع للولوج بدون حتّى أن تربت على كتفي لېزول توجّسي، وقفت تشعل سيجارة أخرى وأدرت لي ظهرك، رحت أتفحّصك وأنت تطفئ عود الثقاب فيغمرنا الظلام ثانية ثم تسحب أنفاس السيجارة وتزفر، أرحني وقل لي كلمة واحدة: لا تخشيني، قل لي: تعالي فأنا الأمين الأوحد عليك في هذه الدنيا، لكنك متردّد مثلي تمامًا، كأنك تخشى ما أخشى وأكثر، كأنك ستستدير نحوي الآن وتصيح: هيا بنا.. سنجلس في حديقتنا!

يومها يا حبيبي أدركت أنك خائف، من كلّ شيء وإنّما لعلّك لم تخف عليّ قدر خوفك على نفسك، قلت لي يا حبيبي:

- لابدّ أن تنتهي هذه العلاقة، اليوم، بل وهذه اللحظة).

16

- مال لحنك يا غريب!

فلا أردّ.

- مال لحنك لا يستقر على وطن!

فأستعيض عن ردّي بنظرة مشروخة.

تقول شجرة "الكافور":

- إن يظنّك الغافل تعزف لا يدري! هو ليس يعلم إنّ عزفَك روحٌ تجوب أرجاء الحقيقة!

أقول:

- أين الحقيقة؟

فتقول شجرة "الكافور":

- في لحنِك الحزين.

- والحزن؟

- فيض من صدأ الرُوح.. احزن.. لا شيء يطهرنا قدر الحزن.

- يبدو الحزن طريقًا للخلاص.

- مت إذًا واظفر بالخلاص.

- وإنّما أنا ميّت...!

- إن أدركوا أنّك ميّت، ما حييت أبدًا.

- وهل بعد الموت حياة؟

- بعد الموت..! أجل.. حياة.

17

ضبابٌ، وبرودةٌ، وسلمٌ ممتدّ نحو السّماء، أثب، كي تتمكّن يداي من درجة السّلم، فأصعد، يراودني هذا الضّوء البعيد، القادم من كبد السّماء، فأصعد، إنّي سوف أرى الرّب الآن! سوف أرى الهانم و"زينب" وأمّي وأبي، سوف أرى "مَدّ" والفتاة الأرمينية و"مريم"! لعلّ بنت العمّ هي التي تعبث بالضّوء فتراسلني من خلاله؟ لعلّها! سوف أرى تفاصيل المدينة من فوق، يتأرجح جسمي، وبدا يطير كعطر رقراق، وفي السّماء جدول من ماء، صاعد معي إلى أعلى. لم تكن الجنّة! لكنت عرفت! لكنّ الجدول ينساب طالعًا مع طلوعي، ينساب لأعلى، غدير من ماض، ومن تذكّر.

"زينب" تتبدّى لي، وفي عينها حياة!

تلك إشارات حياة. قطعًا لا أريد التّسليم بكونها لم تزل مستوثقة بالحبل الرّابط بين العالمين. ففي الحقيقة كلّ الدلالات باتّة لا ريب فيها، لقد صعدت روحها، لكن لمَ تحدّق إليّ هكذا؟!

ثم....

يد "بيومي" الغليظة تستحثّني أن أنهض، وكان يصيح:

- وبعدها معك يا كُردي؟ ألا تريد العفاريت أن تفارقك؟

وثبت ناهضًا، بكمّ الجلباب رحت أمسح العرق، وجلس "بيومي" أمامي وقال:

- يا ولدي، أترك الذكريات ترحل.

- لكنّك لم تسألني أبدًا ما الذي هجّرني من وطن لوطن!

- كلّنا يحمل بداخله بئرًا مليئة بالحكايات، ومن العجب أنّ نتلصّص على البئر، أظنّ يجب أن تفيض من تلقاء نفسها.

- وإنّما فاضت بئري.

- دعني إذًا أتلصّص على حكايتك.

فضحكت بوجع، وأعدّ شايًا وجلس جواري، وكنت قد بدأت أسترسل في حكايتي، وامتدّ بنا اللّيل.

18

قال لي "بيومي":

- مدينتنا اسمها طيبة، وفي القديم كانت مقاطعة، ثم أصبحت عاصمة، ثم دخلها الهكسوس ودخلها البدو ودخلها العجم والقبط والرومان ومن بعدهم دخلها العرب، ومن يومها طيبة مدينة مسلمة، في طيبة آلهة وصروح مقدّسة وخرافات، إنّما النّاس يتغلّبون على الخرافة بالخرافة، في الغرب عندنا معبد اسمه "الدّير البحري"، اكتشفه الإنجليز، واستخرجوه من دفنته في بطن الجبل، صاحبته ملكة اسمها "حتشبسوت"، يُحكى أنّها كانت تتشبّه بالرّجال، وتلبس ملابسهم، وتنصهر مع العّامة وهي تضع ذقنًا مستعارة، وكانت تاجرة كبيرة، تأتينا بالخشب والفاكهة من البلاد البعيدة، أحبّت مدّنسًا من العّامة ووضعته كبيرًا للمهندسين، وفي يوم فكّر أن يهاديها، فبنى لها هذا المعبد، ولم ينس أن يوقّعه باسمه، ستجد أنّ أحد الجدران عليها اسم هذا المهندس، في مدينتنا يا كُردي تُصنع الأساطير، وتضيع الممالك، ويطويها الزّمن، وتروح سلاطين، وتأتي أخرى، وتهاجر أوطان البشر، أتدري ما الذي يبقى وسط كلّ انحرافات التاريخ؟ الإنسان نفسه، هو الذي يحفظ الخرافة والأسطورة والحقيقة.

- أمّا مدينتي يا عمّ فهي مدينة الحقيقة، لا خرافة في مدينتي، لكن أتعرف أنّ الحقيقة غالبًا ما تكون أدهش من كلّ الخرافات! إنّما رغم

ذلك تخيّل أنّ الخرافة نفسها في أصلنا نحن الكُرد، قال لي أبي أنّنا أبناء الجّن، جدّنا الجنّي الأكبر اسمه "جسد"، وكان على خلاف مع الملك "سليمان"، وحين أرسل الملك "سليمان" رجاله لجلب نساء من الغرب كي يزيد عدد حريمه، وكانوا أربعمائة امرأة، اعترض طريق رجال الملك جدّنا "جسد"، واختطف النساء وسباها، ثم عاشر الجّن أولئك النسوة، ومعظمهنّ عاشرهنّ "جسد" نفسه، ومن ثمّ أنجبن أطفال، هؤلاء الأطفال صاروا هم الكُرد بعد ذلك.

- حكاية غريبة يا كُردي! أيّ جّن الذي تنحدرون منه؟

- أقول لك إنّ الخرافة لا وطن لها، وكذلك الحقيقة.

- والله الشّيخ "أبو الزّمن" كان عنده حقّ لمّا تكلّم عن نسبك.

ضحكتُ بحسرة وقلت:

- أجل ليس لي نسب وليس لي وطن.

ثم شخصت عيناي بعيدًا وأنا أذكر له قصّة:

- عندنا في التراث، في الأثر، قديم الأثر، في زمن غابر، حكاية عن عصفور يرمح في الفضاء، بلا وطن، طار بعيدًا وحطّ فوق صخرة، والصخرة عليها شوكة، والشوكة انغرست في العصفور، وطار بها وقد فشل أن ينزعها. العصفور يتألّم، والفضاء واسع، والشوكة عنيدة لا تخرج، قابل امرأة عجوز، فرنها لا تشتعل، وكلّما دفنت فيها القشّ والجمر لا تشتعل، ولا تسوّي الخبز، قال لها العصفور ساعديني وأخرجي الشوكة وارمها في الفرن، تحمّها وتشتعل، أراحته العجوز وأخرجت منه الشوكة، وساعدته، واشتعلت فرنها وسوّت الخبز.

والعصفور لئيم طمّاع، اشتهى الخبز، قال للعجوز أين شوكتي؟ قالت في الفرن. قال أريدها. قالت إنّي ساعدتك. لكنّه أصرّ أن يأخذ سبعة أرغفة مقابل الشوكة، والعجوز أعطته، غير راضية. في الفضاء الواسع طار العصفور، وأرغفته سبعة، قابل راعيًا يحلب عنزاته ولا يطلع من ضروعها لبن، قال له خذ أرغفتي ويخرج لبن، فأرغفتي ساخنة، وفمي لا يستطيع حملها. الراعي أخذ الأرغفة، وأطعم بها العنزات، فأخرجن لبنًا. قال العصفور الطمّاع أين أرغفتي؟ فقال الراعي ألم تهبني إيّاهم منذ قليل! إنّما العصفور قال له أعطني سبعة خراف مقابل أرغفتي، فأعطاه الراعي مرغمًا، وكان غير راض. والخراف لا تطير، فقابل العصفور عُرسًا، تحاصره الذئاب، قال لصاحب العُرس خُذ خرافي اطعم بها الذئاب فيمر العُرس آمنًا. ولمّا مضت الذئاب قال العصفور أين خرافي؟ فقال صاحب العرس ألم تمنحنا الخراف كي تمضي الذئاب! لكن العصفور قال سآخذ العروس مقابل خرافي. أخذ العروس ومضى، وصاحب العُرس غير راض. والعروس جميلة، لكنّه عصفور يطير، ولا يعرف الحبّ، فقابل شيخًا يعزف الناي، ولا يخرج منه لحن، قال له خذ العروس تعزف، سيخرج لحن، فأخذ الشّيخ العروس تعزف، وصدح الناي، لكنّ العصفور بلا عمل، وأتعبه وسع الفضاء، قال للشّيخ أين عروسي؟ فقال له ألم تعطني العروس تعزف معي الناي! لكنّ العصفور قال خذ العروس وأعطني الناي عوضًا عنها. أعطاه الشّيخ الناي فطار العصفور به يعزف، طار إلى الفضاء، والشّيخ غير راض، لكنّ العصفور له منقار، ولا يُجيد العزف، عاد للشّيخ يقول أعطني عروسي. لكنّ الشيخ قال أنت قبلت الصفقة وكانت عادلة.

ضرب العصفور الناي في صخرة فتهشّم، فقال له الشّيخ هكذا من لا وطن لهم، يخسرون كلّ غنائمهم.

ثم أضفت:

- وطار العصفور إلى الفضاء يبحث عن وطن، بلا جدوى، أتراني يا عمّ "بيومي" أبحث عن وطن بلا جدوى؟

قال "بيومي" وهو يربّت على كتفي:

- وطنك يا ولدي هو المكان الذي تستقر فيه رُوحك، لو أنّ رُوح هذا العصفور مستقرّة ما ظلّ يبحث عن وطن وما اعترَكته نوازع الرغبات، على رُوحك أن تستقرّ كي تشعر بمعنى الوطن.

- في مدينتي كانت لنا عادة عند موسم حصاد سنابل الحنطة، كنّا نملأ أكفّنا بالسنابل ونقشّرها، ونقدّمها لأول عابر سبيل غريب عن أهل المدينة، ويقدّم لنا مقابلها قطعة فضيّة أو ذهبية، في يوم، قدّمت السنابل لأحد الغرباء، طلع عسكريًا إنجليزيًا، وضرب علينا النّار، ورحنا نجري بين الحقول.

- إنّ الوطن يا كُردي يظلّ متوهجًا داخل الذاكرة، المهمّ نعرف كيف نحافظ عليه في داخلنا.

- لو رأيت أمّي وهي ترقص الدبكة على نغم الطبل والمزمار، وهي تمسك منديلاً زاهيًا تتطوّح به.

ثم غامت عيناي وارتميت على صدره وأنا أنهنه:

- لو أنّ أهلك احترقوا مثل أهلي لأدركت مرارتي ووجعي يا عمّي..!

19

في الرّبيع، عندما كنّا صغارًا، كنّا نخرج إلى الشوارع والدروب المغطّاة بفتائل الورود الناعمة، ونلعب لعبة "رفع الميّت بأربعة أصابع"، وكنت دائمًا ما أمثّل دور الميّت، كنت أتمدّد أرضًا، ويجلس على يميني اثنان، وعلى يساري اثنان، وكانت هناك كلمة سرّ، يهمس بها الأول للثاني ثم للثالث وللرابع، ثم يضع الرابع سبّابته تحت ظهري، وأنا مغمض العينين، ثم ينشد الأربعة:

واحد منّا واثنان منهم

اثنان منّا وثلاثة منهم

ثلاثة منهم وأربعة منّا

أربعة منّا وخمسة منهم

لنذهب إلى ملك الجّن، ولنقل له: لقد مات عندنا رجل نريد أن نرفعه إلى أعلى.

عندئذ يقوم الأربعة بالصّفير ويرفعونني من على الأرض، لكنّ اللعبة تفسد إذا ردّد أحدهم "بسم الله" أو ضحك.

إنّما، لم أزل أتساءل: لماذا كنت أمثّل دومًا دور الميّت داخل اللعبة؟

20

في ظهيرة هذا اليوم، استدعاني الباشا وكنت غافيًا فوق سريري الجريد، خرجت وكانت الشّمس متعامدة فوق قمم الشّجر، ببروده الذي اعتاده الجميع كان قاعدًا وفي فمه سيجاره، همهم بدون أن ينظر ناحيتي:

- هذا موعد استحمام "مزيانة" الشّهري في النيل، خذها، وتأكّد أنّك حمّمتها جيدًا.

وأشار لي بإبهامه، فانصرفت، وجهّزت "مزيانة"، وكانت الهانم واقفة في الشرفة تحدّق إلينا وأنا طالع بها من باب السراي.

امتطيتها، وسرنا حذاء السراي حتّى حدود النيل، وكانت النساء جالسات بجرارهنّ ومواعينهنّ مفترشات الطمي الرطب الذي يكسو ضفّة النّهر، استحين منّي، وسرعان ما مضى بعضهنّ، ونزلت بـ"مزيانة" إلى شطّ النّهر، فانسجمت، ونزلت أكثر ونزلتُ معها، وغطست وطلعت، وأخذت هي تنفض رأسها بانتعاش، وبدي تمسح بـ"الحكّاكة" على ظهرها، ورأيت كأنّ دّم "مَدّ" يجري مع الموج حولي، فامتقعت وكانت النساء انصرفنّ جميعهنّ، هذا الوطن ناء عن لوثة الحروب! الحرب تحرّشت بوطني ولم تبق، تحوّلت سهولنا الخضراء إلى خرابات يجري فيها دّم الكُرد، إنّما كنت أعرف أنّه ليست هناك مباراة أخيرة، لم يزل بيني وبين هذه الحياة جولات أخرى، أنا جُرح أبدي باق لما بعد قيام

السّاعة! لكن في السّفر معرفة، أجل يومَ كنّا أحياءً، كانت المعرفةُ شيئًا غير ذي أهمية، مع أنّ كلّ التفاصيلِ كانت تدفع للتساؤل، وكلّ المقدّرات تُفضي للنبشِ عن الهويةِ والصواب، إنّما بدا أنّ سائرَ الأحداثِ ليست أكثرَ مِن حُلم، ومِن الحُلمِ مع ذلك ما قد يبدو شديدَ الكفايةِ من صحّةِ التحقّق، ومن الحُلمِ أيضًا ما قد يخرج به المرءُ بمعرفةٍ شافيةٍ وافيةٍ لما يتحيّر منه العقلُ المتشظّي فلا يساوره ارتياحٌ قطّ، فمِن الحُلمِ - في الغالبِ - الحقيقةُ التي لا حقيقةَ سواها.

أيّ الحقائق كانت أحلامًا وأيّ أحلام هيضت!

هذا النيل الذي تعيش الآلهة على ضفّتيه وتعيش في وجدان النّاس، لعلّه يصون هذا الوطن! لم يصن وطني لا نهر ولا جبل ولا دعاء!

خرجت من الماء مبتّلاً، وفي يدي لجام "مزيانة"، وكانت تصهل فرحة، ولمّا رفعت رأسي للسّماء، وجدت أنّي قبعت في الماء لحلول المغرب، أسرعت إلى السراي، وقبل دخولي، تقدّمت سيارة عسكرية فوقفت قليلاً أنتظر حتّى تستكمل دخولها، تابعتها ببصري، وانفردت بعمّ "بيومي" أسأله، لكنّه قال لي:

- ما أكثر زبائن الباشا!

- أيّ زبائن؟

قال إنّ الباشا أكبر تاجر سلاح وذخيرة في البرّ، بل يُمكن الزعم أنّه يورّد الأسلحة للإنجليز أنفسهم، فهتفت:

- أسلحة يقتلوننا بها!

- يا ولدي هذا شرع التجارة. أتعتقد أنّ الباشا ولا الإنجليز يفرق معهم أن يموت شعب أو اثنان أو ألف؟ إن كان القصر نفسه يمنح هذه التجارة شرعية، بل رأيت الملك ذاته يزور الباشا في صفقة من الصفقات.

- الملك؟

- أمَال! يعني تفتكر الفلوس والهيلمان والعزّ والجاه والبشوية من أين جاءوا!

وتكرّرت زيارات الأجانب في هذه الفترة كثيرًا، يرفعون قبّعاتهم، ويستقبلهم الباشا بنفسه، يرطنون بلغتهم، ويجلسون بالساعات يتمّمون صفقاتهم، ويلعبون الورق، ويشربون النبيذ والويسكي، ويأكلون اللحم المشوي ويتغمّزون ويتلمّزون، ونسهر في خدمتهم. تأتي عرباتهم تلج إلى السراي هادرة، يتصاعد من تحت إطاراتها الغبار، تدوس بعجلاتها فوق الوطن، وينزل منها الأقوياء، الرّجال الأقوياء فقط بإمكانهم العبث بمصير هذه الأوطان، تُبرم الصفقات، وتندهس شعوب، وإذا استرقنا السمع، لم نكن نفهم من حواراتهم شيئًا، إنّما أدركنا إنّ الذي يُباع ويُشترى هم البشر أنفسهم، دماؤهم، وأدركت بدوري أنّ البشر سواء، إن كانوا في "كردستان"، أو في "مصر"، لا قيمة لهم أمام سطوة هؤلاء الحواة.

وأثناء هذه الأيّام، لم أكن أرى الهانم كثيرًا، اللهم إلاّ طلّة عابرة من خلف إفريز الشرفة، أو عزف مائع على البيانو، أحسست أنّها توارت وراء ذكرياتها، وطموحاتها المسفوحة، لم يعُد الحب طموحًا منطقيًا في هذا الزّمن! أجل هذا الزمن يختن أحلامنا، تمامًا كالخاتن الذي نحر أختي، وهي تفرفط تحت يده، والموس يجزّ بلا أيّ تحكّم، كأنّه مأمور،

ذلك الأمر الغيبي، الخاتِن المتمرّس الذي لم يعُد يمتلك حكمة الهتك، لم تعُد يده قادرةً على التفرقة بين جزّة تهذيب وجزّة موت، أيّ عجز! وأيّ عجب! لم يكن يحدث معه من ذي قبل إحمرار المشهد، لم تمُت بنت جرّاء ختانه، لكنّه القدر! يوم ماتت أختي، غدا كلّ شيء ملفوفًا بالذهول، تجلّط الدّم على حدّ الموس، وهو واقف، وأبي متحجّر، يسحّ الدمع من عينيه، ازرقّت أختي، وفاضت روحها، وكلّهم واقفون، العُرف بات جريمة! العُرف بات عجزًا! كانوا واقفين أمام القدر، بهيبته، وجبروته، وملابساته العشوائية، أجل ماتت أختي، إنّما القدر لم يكن يحفل، كانت "مدّ" تتطلع في الخاتِن بنظرة الرجاء، غير أنّه كان يعبث، ويجزّ، ويهتك، فيفرح العُرف بالجلود المكسوّة بالدّم، الجلود المتهرّئة، فضلة أجسادهنّ، أجل يوم ماتت أختي ساد الصمت، ساد الجميع، حيث لم يحتسب أحدٌ، ولم يخطر ببال أن يجزّ حدّ الموس روح أختي مع الفضلة!

إنّما - وللقدر حسابات ضالّة - ماتت "مَدّ".

في عُرف السراي، أن يخرج الخدم يومًا واحدًا في الأسبوع لزيارة أقربائهم، وكانوا يتداولون هذا اليوم فيما بينهم، أمّا "بيومي" فلم يكن يخرج أبدًا، إلاّ لقضاء مصلحة للباشا، أو - نادرًا - لقضاء مصلحة شخصية، ولم يكن لي أقرباء كي أتزاور معهم، إنّما تراءى لي اليوم أن أزور "بنداري"، كان أول من استقبلني في هذا الوطن الجديد.

خرجت في الصباح على حمار، تجوّلت قليلاً بين الباعة وبين البيوت المجاورة والحوانيت، ولم أكن أستطيع أن أميّز واحدًا يتحدّث في السياسة - هنا في هذا البرّ عكس برّ المحروسة، فبدا أن النّاس

يستطيبون الحياة في "الأقصر"، فضلاً عن أنّهم أرزقية بالمعنى الحرفي، ناءت بلدهم عن جميع الأحداث الخبيثة التي يُمكن أن تمرّ بها بلدان أخرى، لم أدرِ هل تلك ميزة!

دخلت في عباب شارع المحطّة، وربطت الحمار أمام غُرزة "بنداري"، وأوصيت "فوزي" أن يراعيه، فقال هازئًا:

- لا يُمكن للّص أن يقترب من غُرزة المعلّم!

دعاني "بنداري" لاحتساء كأس من عرق البلح، وجلسنا في غرفته الخصوصي، وقال:

- لك شوق يا حاج والله.

- وأنت يا معلّم "بنداري".

- حول كامل يا كُردي! طيّب اسأل على الرّجل الذي وقف جنبك.

وضحك، أدركت أنّ عتابه في محلّه، رفعت لفمي كأس العرق، وجرعته دفعة واحدة، واحترق جوفي، لكنّ عينيّ بعد قليل غامتا، وأخذت أسعل، فضحك "بنداري" ضحكة عالية، وقال:

- لا بأس، ستتعوّد على مذاق منقوع البراطيش هذا.

ثم اقترب منّي وقال:

- هه، ما أخبار الباشا معك؟

- لا نراه كثيرًا، إنّما الأمور غالبًا على ما يُرام.

ولم أشأ أن أروي له عن العتمة التي استوحشت في رُوحي مع مرور الأيّام، ولم يكن لشيء أن يستوقد فيها أثارة من ضوء، إنّي كنت إذا

خلوت إلى نفسي تمزّعت، لكن كثيرًا ما كنت أستكبر أن يشاركني أحدهم همًّا بعينه، تتشابه عليّ الأيّام، وليس لي متاع فيها غير انتظار طلّة من الهانم، أو استحضار ذكرى ما.

وسمعنا زفّة قادمة إلى قلب المحطّة، كان الوقت نهارًا فتعجّبت، شدّني المعلّم من يدي وهتف:

- تعال نحضر الدُورَة.

وخرجنا، ورأيت النّاس يقفون صفوفًا وبينهم تتدفّق خيوط من الجِمال والخيول التي يمتطيها البعض، وأعلام وبيارق ورجال عرايا وطبل وزمر وهتافات، وفي مقدّمتهم يسير رجال بملابس بيضاء، قال لي المعلّم:

- هؤلاء "الحجّاجيّة"، وهذا مولد سيدي "أبو الحجّاج".

ورفع يده يهتف:

- شالله يا سيدنا.

وقفت أتابع الموكب تحت ظلّ "تندة" الغُرزة، كان موكبًا مليئًا بالمريدين، والمجاذيب، والمشايخ، ومراكب فوق الجِمال والأحصنة، ونقّالات يقف عليها نساء، وبدأ شارع المحطّة يهدأ بعد قليل، فاستأذنت المعلّم في الانصراف، وامتطيت حماري، ورحت أسير بعيدًا عن جموع النّاس، ومشيّ بي الحمار بمحاذاة حقول من الذرة، مختبئة جوار أسوار المعبد، وكان اللّيل راح يأتي في تؤدة، وسمعت همس عيدان الذرة، توشوش لبعضها البعض، ثم دلفت إلى باب المعبد، قاصدًا الجهة الأخرى حيث السراي، أحاطت بي الحوائط الصخرية، قديمة

ومتكلّحة، أخذت أرمق الشرفات الحجرية التي تبرز من فوق أسوار المعبد، أرمق الغرف الصغيرة والحجارة، ودبّت حركة فوقي، رفعت رأسي، وشاهدت حمائم تتخبّط وهي تتصادم بسقف المعبد، لم أعرف ما الذي أفزعها! أظنّه حضوري المباغت، أخذت الحمائم ترتطم بالسقف، فداخلني وجل، وكان أحد الخفر يهرول نحوي يصيح:

- مَن هناك؟ مَن هناك؟

صحت:

- اطمئن، مجرّد عابر.

كانت بندقيته على كتفه، تقدّم عليّ وهتف:

- من أنت؟

- كلاّف السراي.

- هل فقدت وجهتك؟ السراي من الناحية الأخرى.

- لكنّها لفّة مُرهقة.

- لكنّك ستوقظ حرّاس المعبد.

ضحكت في استهزاء، فشعر، وقال:

- ألا تعرف أنّ بناة هذا المعبد يحمونه بحرّاس من الجّن؟!

- لكنّي طرقت هذه الطريق مرّات ومرّات.

أشاح بيده وقال وهو يبتعد عنّي:

- طيّب اذهب هيّا، اذهب.

ومضيت في طريقي، ونفذت من باب المعبد الشرقي، واستطعت أن أرى أضواء السراي تتلألأ من بعيد، وكأنّما أحسّ الحمار، فأسرع الخطو، دخلت وبدا أنّ جميع الخدم قد هجعوا، ثم طنّت أنغام البيانو، خدّرتني، فترجّلت من على الحمار واقتربت من إفريز النافذة، ورحت بعينيّ أتلصّص على الهانم وهي تضرب أزرار البيانو بأناملها، لكنّها كانت أنامل مرتعشة، أدركت من عدم انسجام اللّحن أنّ الهانم ثمّة شيء يجعلها قلقة، بعد لحظات، انفتحت الستارة فظهر الباشا، وكان السيجار في فمه، قال لها:

- إلى متى سيطول خصامك؟

لم تجبه الهانم، اكتفت بنظرة من جنب عينها، فاقترب منها، وجلس جوارها.

- "نورا".. ألا يُمكنك نسيان هذا الموضوع؟

استدارت إليه وغمغمت:

- هَب أنّي فعلت.

اقترب أكثر، ووضع راحة يده فوق كتفها، وقال:

- هذا الولد طمّاع، إنّه لا يناسبك.

تملصّت وهي تعقد حاجبيها.

- إنّما أنت الذي تطمع يا باشا، تريد الاستحواذ على مقتنياتك العمر كلّه!

أربد وجهه وصاح:

- على آخر الزمان نزوّجك لابن الفقراء!

- انتهى الموضوع يا باشا.

التحم بكتفها ولثم رقبتها وهو يقول:

- خلاص إذًا.. ما الداعي لهذه القطيعة؟

ابتعدت عنه، لكنّه دنا أكثر، ودسّ يده في ظهرها، فهبّت تزيحه، وصرخت:

- أُف.

وهرولت عنه، فأشعل سيجاره ثانية وكان وجهه محمّرًا، ابتعدت عن النافذة وهرعت إلى حجرتي، تمدّدت على سريري الجريد واستيقظ "بيومي"، كان الانفعال مستوليًا على خلجات وجهي، فصحت بصوت مبحوح:

- ما الذي يحدث في هذا السراي؟

21

وكأنّني أسيرٌ في هذا المكان، لم يعُد شيء مبهجًا غير عزف البيانو، وإن كان العزف بات يُفضي لأسرار أخرى، أشفقت على الهانم كثيرًا، وأدركت أنّ ما يختبئ في نفسها سرًا أعمق من محاولة فضّه، رأسي تستذكر الأسرار والمعاني ها هنا، إنّما لا تستوضح إلاّ ما يُكشف عرضًا، والذي اكتشفته كفيلاً وحده بجعلي مسرفًا في كرهي لهذا الباشا، بكلّ تفاصيله وملامحه وصفقاته، وكذلك مجونه ونزواته المفجعة، وقد راحت الذكريات تبهت مع مرور الزّمن، ولو لم تفارقني كوابيسي، غير أنّ الكوابيس صارت متقطّعة، والموتى يزورونني بغير دوام، وأخذت رُوحي تأتلف مع العتمة المستوحشة، أكثر فأكثر، وراقت لي في لحظة فكرة أن أهاجر إلى برّ المحروسة ثانية، إنّما كان عليّ إن عاقرت هذه الفكرة أن أستخلص نتائجها، أولى النتائج كانت أنّي سوف أهاجر فأعيش في دور المجذوب ثانية، والنتيجة الأخرى أنّي لن أرى الهانم بعد ذلك أبدًا، والأخيرة نتيجة لم تكُن رُوحي تستسيغها، كان ثمّة شيء في رُوحي يُخبرني أنّ الهانم ستستغيث بي يومًا، ولن تجد عند الإغاثة غيري، ولن أخذلها، استوطنت نفسي هذه الفكرة، فظللت قابعًا داخل متون الأسر على مضض، حريصًا ألا يزعج الباشا فعل من أفعالي، وأن أعيش داخل الإسطبل عيشة لا تقبلها البهائم، أقلّه الحمير والبغال والأحصنة يأكلون البرسيم الطريّ في شهيّة، وما عدت أشتهي شيئًا في هذا العالم،

اللّهم غير طلّة من هانم تسكن السراي، وتسكن بقعة غامضة في داخلي.

وتعرّفت إلى سحر الخمر شيئًا فشيئًا، كنت اشتري زجاجات العرق والزبيب، وأشربها بعد العشيّة، وكان "بيومي" يشاركني شرب الخمر، وقال لي إنّه يستعذب الخمر، وشاربها، وبروق له أن يصاحب مخمورًا بائسًا مثلي، ويضحك. وقال عوضي على الله فيك يا كُردي. إنّما في نهاية كلّ أمسية كان يحذّرني من مغبّة الإنقال في شرب الخمر.

وكلّ بضعة أيّام، أخرج في المساء، تأخذني قدماي لخمّارة "أبو مازن" القريبة من السراي، وأستأنس بروّادها، في الغالب كان روادها يستأنسون بطبيعة الحال، مع كلّ غريب، وكلّ شيء. وكان "أبو مازن" صاحب الخمّارة يزيد الأنس بتشغيل بناته الثلاث راقصات يروّحنّ عن زبائنه، ويشعلنّ طاقاتهم، فتزداد رءوسنا ثقلاً على ثقل، كانت بناته الثلاث جميلات، ورثن بياض أمهنّ الغجرية، وقوام أبيهنّ الحلبي، نحتسي معهنّ أقداح "البوظة" و"القرع"، ويجلسنّ بيننا يراودننا، فأعجبتني أكبرهنّ، لكنّها قالت أنّ سعرها غال عليّ، طلبت منّي ريالين لقاء نومة معها، إنّما دفعت، لا لشيء إلاّ أنّي بائس حقيقي، وريالان ليسا بكثير على تفريغ شحنة الأسى التي تحيق بي وتعصف.

طلعت معها لغرفة في طابق علوي من الخمّارة، يفصلها عن صخب الصالة ستارة كالحة عريضة، خلعت جلبابي من فوري فصاحت:

- حسبك يا كُردي.. شكلك مستعجل!

- حلاوتك خلّتني أشيط وجسمي يشتعل.

- بالرّاحة طيّب، الدنيا لن تطير.

- عقلي طار.

في غنج ضحكت وأنا أثب فوقها، لم تخلع ملابسها لكنّها شدّت لباسها فانقلع، ورفعت ساقيها، إنّما طاب لي أن أقلبها على بطنها، وأنّ أبدأ بظهرها، فانقلبت، وكانت مؤخّرتها عالية، وبدا ينبثق من كتفيها جناحان، فخامرتني ذكرياتي عن غير حيلة، رأيت الملائكة التي تهجر مدينتنا، ورأيت عروسي وأختي والهانم، فاندفعت لا ألوي على غاية، سوى هذه الغاية النبيلة جدًا والأصيلة في إسقاط بعض الزّمن من دوّامة حياتي، سوف أصعد إلى الجنّة وربّما لا أعود، إنّما ليت الأحلام تُنال بمجرّد التفكير فيها، أحلامي عاجزة كسيحة، والحلبية تتضوّع، وتصرخ، وتسرسع، وتبدو صرخاتها كأنّ جميع روّاد الخمّارة يسمعونها، لا بأس، معظمهم أتاها من ذي قبل، ويعرفون أنّها ماكرة في الصراخ، تشعل الجسم أكثر، وتستحلب كلّ خزائنه من الأحاسيس، وأخذت أضربها من وراء، وما اكتفيت، وإن بدا عليها أنّها اكتفت عند أن انخفض صوت صراخها، وتبدّل إلى أنين خافت، لكنّي قلبتها ثانية على ظهرها، وسقطت على بطنها، وفتحت بيديّ ساقيها، وكانت ساخنة، مليئة بالسوائل اللّزجة، واكتنفني عبق رائحة الشياط المنبعث من بين ساقيها، فدخلت إليها، وعرفت أنّ اتّساع مدخلها دليل على تعدّد تجاربها، لكنّي انقبضت، وأنا أقذف ولهي فيها، غزيرًا، دافئًا، محتدمًا.

استراحت على صدري وقالت:

- لولا أبي الذي يجرد حصيلة كلّ يوم لأعدت إليك رياليك.

- لا عليكِ، إنّي وهبتهما لكِ بنفس راضية.

وانخلع المساء، وبدا الفجر آتيًا متسربلاً بالغمام، تركت الخمّارة بقبلة من الحلبية، ووعد بزيارة أخرى إليها، مجّانية تلك المرّة، قالت إنّ الانبساط وحده ربح لا يقابله ربح آخر. وهي انبسطت.

وسرت في الدروب الهاجعة إلاّ من هديل الحمام وزقزقة العصافير وجسدي فارغ تمامًا إلاّ من وجيب الذكريات، وشاهدت في خيالي الهانم وهي نائمة تحت جسد أبيها الباشا ووجهها ممتقع، فاستغامت رُوحي، ووددت لو ألاقيه بسيف فأشطره نصفين، لن أبقي عليه، ألا يكفيه خيانة هذه البلد وتعاونه مع أعدائها! يخون أبوّته ويسفك دّم ابنته الوحيدة! هل تستحق الهانم أن يُسفك دَمها؟ أكان أهلي يستحقون أن تُسفك دماءهم؟ إنّها دائرة متّصلة وممتدّة من بلد لبلد ومن مأساة لمأساة!

أسير، والمدى ضبابي، كان من النادر ألاّ تترّن رأسي، بل لا أكاد أفقد تركيزي وأنا أتمعّن في تفاصيل الأشياء من حولي، إنّما مضيت أقطع الطريق إلى السراي في بطء وكنت أترنّح، أمشي في الشوارع نحو فضائها المُوحِش، تتقاطع الهواجس من حولي وأنا أهرع عابرًا الزمن، وكان عقلي يشعر بالغثيان.

ثم في لحظة أجد أنّي - كعطر هارب - أطير في الهواء، أرفرف في هدوء، وأرى الأحلام بتمامها، أنا صاعد للجنّة - أقول لنفسي. ما أروع السُطل! بتّ أقف على الضفّة الأخرى من الوجود ذاته، وكأنّما أُولد ثانية، هي الجنّة لا ريب.

بين الدروب، وفي الحواري والأزقّة، الوجوه تشبه الشمع، سريعًا تذوب متى حاولت القبض عليها بين حدود العين، الشوارع ممتدّة أمامي، مغطّاة بنتوءات، وبلادة!

وقتُ النداء..

تبدأ الرحلة حين ينتهي هذا العالم الافتراضي، يا لها من احتمالية!

أجري، راجيًا الزّمن ألاّ يتقدّم، الظلمة لا تُفسح سبيلاً للبصر، تتبعني تهيؤاتي، تحاصرني، ينطلق نعيق الغربان وهي تحوّم فوق الجثث الطريّة، يحتضن نعيقها المساحة فيما بين الأرض والسّماء، فتنحسر كافة أصوات الحياة، ويبقى صوتها - الغربان - داخل أذني كنعيق عزرائيل.

الرحلة إلى السراي محفوفة بالغموض، ضاعت الطريق، وحولي مئات الأرواح الضالّة، تصطف على جانبي طريقي، أستطيع أن ألمحها، تلك الأرواح، بشفافية غرائبية، متناثرة حولي، أستدير، الخمر، والهواجس، والحلبية، ومباراة أخرى مع الذكريات لن تضير، وها هي الأرواح، تتنازع حولي، أنفجر في الضحك، أسقط على وجهي، أتمرّغ وتراب الأرض، أتقلّب، وأُطلق الرّيح، ها، بطن الدّنيا أوسع.

أنهض، أحاول أن أخترق مجاهل الطرقات في عجلة، أمخر عباب الظلال التي تسكن الصباح الغائم، والأموات لم يزالوا حولي، فلتنصرفوا، ماذا دهاني؟ تسبح الأرواح، تحلّق نحو عينيّ، تنقر حدقتيّ، فأغمض عينيّ، فتتناوب النقر، وأرى أبي وأمّي والأرمينية وعروسي و"مريم" والحلبية و"كردستان" والجبل والسّهول، والجثث المحترقة، والغربان تدبّ فوق رأسي، وتنعق، وتنقر بدورها فروة رأسي، وفي أعقابي جنون وهوس، والوقت ضبابي، والضباب لا يُخفي عن بصري

مقنوفات المفردات التي تقتحم حشاش عينيّ، مغّي يرتج، أجل تضيع الأوطان بلا جدوى، تضيع هدرًا، وقد جرعت المرارة.

يجفّ حلقي، وأنا أدنو من شطّ تُرعة، وتجف أنفاسي، ويخترق بصري كوم طين قابب من حدّ الضفّة، فهناك، على جنب الكوم، وفوق حصيرة من حلف، ورائحة الفضلات المحشورة في بدن الحلف تقيّد أنفي، والأجواء مُوحشة، كان ممدّدًا، ساكنًا، وجهه مطمئن، لكنّ ابتسامته مألوفة، تحمل ارتياحًا عجائبيًا، هناك، يبدو أنّ.. هل هذا أنا؟ هل الميّت هذا أنا؟ أتساءل، ولا أحر جوابًا، أقترب، وفي غضون لحظات، تتكشّف لي غيبات ما أعجبها!

أحتضن جسدي، وعيناي تنغلقان. "زاخولي".. الصوت البعيد، يندهني، والريح تقبض على عينيّ، وجفوني أضعف من أن تنفتح وتهبني الرؤية، أشاكس بيديّ يمنة ويسرة، أركل كلّ شيء من حولي لعلّي أرى، فلا أرى. تظهر بوجهها الساطع؛ أختي "مَدّ"، وجناحاها يرفرفان، تمدّ لي ذراعها بقنّينة رائحتها مسك، تقول لي: - تلك رائحة ثوبي يوم البعث.. سوف أُبعث ملاكًا.

أتناول القنّينة بغبطة بها شيء من الرهبة، فتنقشع الغيوم، وتتبدّد الريح، وأفتح عينيّ، وأرى هذا البستان الذي لا آخر له.

وأستيقظ داخل بيتي القديم، أدعك عينيّ وأتثاءب، يا له من حلم! لكنّ رائحة المسك لا تزال ساكنة أنفي، أمّي جالسة مع صاحبتها، وأبي يصلّي، أدخل حمّام بيتنا ونور الصباح يثب نحوي، يخمش عينيّ، آه، لكم تبدو له الأشياء قديمة! تبدو وكأنّها أسفل طبقات من التراب، ثم

أحدّق في المرآة، وأنا..! أنظر إلى نفسي، يعتليني الغُبار، أحسّ أنّي أبدو قديمًا.

الملل.. هذا الملل، ينشر طلاءه فوق جدران بيتنا، يضرب جذوره داخل أعماق نفسي، الملل يسكنني، ويسكن المدينة، ويسكن حتى كلّ زوايا البيت.

أخرج من الحمّام، ثم..

الغرفة، حين أدفع بيدي بابها، تحتضنني.. حضنًا غريبًا، الغرفة، مالها دافئة مثل هذا دفء! تُرى، لمَ يختلج فؤادي بإحساس طمأنينة مبهمة! ورائحة المسك هذه كأنّها من الحُلم خرجت لتعبق واقعي.

نور يضئ الغرفة، كان النور منبثقًا من هناك، دقّقت على فراشي النظر وتسمّرت، لم أر نورًا كهذا قبلاً، كانت قنّينة الحُلم ملقاة فوق فراشي، ولها نور ينعكس في قلب المرآة، لا يعنيني أن أفسّر أو أعي الحدود بين عالمي اليقظة والحُلم، أنا واثق تمامًا من أنّ هذه القنّينة الكائنة فوق فراشي هي نفس القنّينة التي أخذتها من أختي في منام قديم، هذا الإحساس حديث التجربة، أود لو أحلّق بعيدًا، كما فعلت أختي، مرفرفًا بجناحي الخُلود، أشمّ القنّينة، وأنا أسحب إلى صدري كلّ هواء الحياة كاتمًا أنفاسي، زافرًا على مضض، راغبًا الاحتفاظ برائحة القنّينة في رئتيّ، رائحة المسك، بل وأغمض عينيّ وأطير فوق آلاف السنين من الزمن، كل هذا النور في قنّينة الحُلم، تُرى.. كيف تكون الجنّة إذًا؟!

أضع القنّينة على فمي، ثم.. جدران الغرفة تتباعد وتتباعد ويحتويني هذا النور المدهش، برودة منعشة تسري في الجو، رائحة المسك تتغيّر،

رائحة المسك تختلط في أنفي بروائح أخرى لا مثيل لها على هذه الأرض، بخور يتراقص دخانه في الهواء، ملائكة تصفّق بأجنحتها في الهواء، والهواء ذاته يبدو لي ريحًا هادئة هادئة تحمل نفسي إلى بدايات زمن الصّفاء، فأصرخ منتشيًا، أجري في السّماء بين البساتين الخضراء وبين حقول الوجد وأجري، العالم يدور وتتبدى لي غياهب عقلي المظلم، والبخور، لا يبدو دُخانًا له لون ورائحة عذبة تحتوى الأنوف، بقدر ما يبدو لي رحيقًا أصيلاً من حدائق الجنّة، أعلو بروحي فوق كلّ شيء، كلّ شيء، وقد كنت مكشوفًا لي.

ملامحي تتخالط في المرآة، وصوت أختي يندهني ثانية: "زاخولي". أخرج يا "زاخولي"، اتبع هذا الصوت، إنّه قادم من هناك، من بين الغبطان البعيدة، محفوفًا بالغيب، ملازمًا للأسطورة، المجد للأسطورة، والمجد لمن عايشها، ومن صدّقها، تنازل عن ذاتك، استهلك كافّة الرغبات، كُن خالدًا، طف يا "زاخولي"، هكذا قد تتعدّد الرغبات، بقدر تعدّد حاجة النفس إليها، ومخاوف النفس، وظنون النفس، إنّي أرى ربّا للبحر وربّا للأرض وربّا للسّماء وربّا للرّيح وربّا للأمطار وربّا للنّور وربّا للظلام، تتعدّد الرغبات، ويتعدّد الأرباب، والسموات السبع - إن كن سبعًا - لها سبعة أرباب، والأراضين السّبع لها...

الطاقة تنفجر أمام عينيّ، التُرع من جانب، والزروع من جانب، ومن بعدهم تقوم القيامة، يمتدّ جبل "طوروس" في إجلال وفي رهبة، مَن يُمكنه ذرع الجبل روحة وإيابًا؟! هل أحدٌ نهض نحو الجبل وعاد؟ لا أذكُر! ينفرد الزّمن أمام عينيّ، وقد يتسنّى لي أن أقبض على عنصر الإطلاق، وأضغم زوايا الزّمن جميعها، الخوف موروث، والعظمة

كذلك، التُرعة تشق جسد المدينة كجرح طويل مستدير يفصل بينها وبين الخيالات، لكنّي منطلقٌ، لا أعتدّ. أعبر التُرعة، لأعبر الزّمن، يتلاطم موج التُّرعة وقدميّ، كانت نشوة لا تماثل. النهار، والّليل، كلاهما ظلمة، وأنا أهبط منجذبًا نحو الجوف الدّاكن البهيم، أدرك كما لم أدرك من قبل أنّ ليست هناك لذة أحلى من مراودة المحرّم والخُلود! الجوف أعين ترصدني وأنا أنحدر فأنحدر، ألسنة باردة تبعث قشعريرة تدغدغ ساقيّ. يا للمتعة! وأنا أتضاءل مختفيًا بين المياه، تتنازع بداخلي أصوات من هنا وهناك، كأنّ صوتًا بعيدًا يستنجد بي، أشقّ بذراعيّ الموج مخترقًا حرمته المقدّسة، هاه! لا تنفعل أيّها الموج واحسبني جئت في الخير لا أضمر لك شرًّا، لي بغية أسعى إليها فشدّ أزري، إنّي ماض نحو وطني البعيد، ناولني ساعدك أيّها الموج وادفعني قريبًا منه، لا أدّعي الشجاعة، في الواقع أراني مندوهًا، أو لم أزل محمومًا مسكرًا بطعم الشّراب والحلبية، أتحسبني مجنونًا! لجننت حقًّا لو لم ألق بكياني في عبابك منازعًا صبرك على لهفتي إليها، لا تنفعل، لا، لا تنفعل، اهدأ، وامنحني قليلاً من زمن بعدها أصل لمبتغاي، لا، حدّث الموج يا ربّ يفلت ذراعيّ فهي عوني، حدّث الموج لا يندفع عاليًا فلا جدوى من الغرق، لم أقطع الشوط الذي يستحق التّصفيق الحادّ منها، قفزت برغبتي، جدّفت برغبتي، خلعت على الضفّة حيرتي بكلّ ما أوتيت من رغبة، فالهون - إذًا - على مغامر خالد لم يزن الموازين.

أين الهواء؟ هذا الماء الأسود يحاصر أنفاسي، يمنعها من الخروج، عيناي لا تلمحان غير عمالقة تقف حائلاً بيننا، لكنّي ألكم لأجلك الموج يا وطني، إمّا ضعت.. أو سبحت في خضمّ الأبدية! أصفع خدّ الماء لعلّه

يمرّرني، لعلّه يستحي عزيمتي، لكن ماله يكبّلني؟ ماله قاس الموج ومالي لا أخور؟ كلّ هذه الرغبة إليكِ يا وطني البعيد؟! أم للإجابة عمّا يعتمل بتفكيري! أيّهما فلا مفر في واقع الأمر. أنا الآن أصارع الأمواج مصممًا أن أربح، أناصبها العداء - التُّرعة - ويتعاظم موجها فيصبح ماردًا يجعجع، لا يخيفني، لا يخفض ثورتي لنيل مأربي، المياه ترتفع بي أم أنّ روحي ترتفع؟ أم أنّ الآلهة تسحبني لأعلى؟ تتشابك التخمينات ويظلّ جسمي سابحًا في ملكوت الهواء، يتأرجح كأنّني معلّق في خيط بين الأرض والسّماء، أكابد، فيمَ أكابد؟ لا حيلة لي، ولا فكاك، سواعدي لا تتقدّم بي، يتقاذفني الموج الأقوى لبعضه البعض فلا أجدني غير لاهث على الضفّة الشّرقية كأنّي أضرب في متن صخر.

لكنّني لن أسأم المحاولة، ولو أفنيت لأجلها عمري. وثبت إلى الماء مجدّدًا، هذه المرّة بغيظ من الموج عظيم، لم أقربك عمري أيّها الموج فما هذا العداء! إنّي واهب للوطن والذكريات حياتي فلا مناص، ورأيت "عمّار" يمدّ لي يده من بعيد، من فوق، يستحثني أن أستكمل طريقي نحو الوطن.

وقبل الظهيرة، في حشايا التُّرعة الكبيرة الملفوفة حول بدن المدينة كجرح مستدير غائر، يجدونني طافيًا، لم أمُت، إنّ الموت نُزهة - لو يعرفون - بالنسبة لي.

22

تترقرق جميع الوجوه من حولي، تنصرف وجوه أمّي وأبي وبنت العمّ و"مريم" وأختي، تتفتّت أمام بصري، ويبقى وجه "بيومي" المحدّق فيّ، وما إن فتحت عينيّ حتّى دنا منّي، بدا مفزوعًا، وكان يصرخ:

- كدت تموت في التُّرعة يا كُردي.. كدت تموت! هذه آخرة الخمر المغشوشة عند الزفت "أبو مازن"! ألم أحذّرك؟

- ماذا جرى؟

- وجدوك مرميًا ومدفوسًا في عبّ الماء.. لولا الصدفة ما تمكّن أحد من إنقاذك.

حاولت أنهض إنّما كان بدني كلّه متمزّعًا، شعرت بالألم في رأسي، لم أعرف ماذا حدث بالضبط، ومتى حدث! لكنّي بدأت في الاستفاقة، وصور من الماضي تتأرجح أمام ذاكرتي.

- قلت أنّك ممسوس! والله فيك شيطان مريد، يا ولدي ألا تريد أن تطرد الماضي وتبدأ في استعادة حياتك! سوف نزور الشيّخ "أبو الزّمن" ثانية.

- إلاّ الشّيخ يا عمّ "بيومي"، يكفي المرّة الفائتة!

- لا علاج لك إلاّ القرآن، سوف يقرأ عليك ونتعشّم أن تُشفى.

- شفائي لا علاقة له بمشايخ!

- الشّيخ واصل مع السّماء، هو يعرف أكثر، صدّقني.

- هذه خرافات.

- استغفر ربّك يا كُردي.. ولا تغلط في الأولياء.

- أنت رجل تعرف ربّنا يا عمّ "بيومي"!

- وماله! المشايخ أيضًا يعرفون ربّنا، لكن لهم سِكك يجهلها الغلابة أمثالنا.

لم أدر مَن يُمكنه استغفار الله! تعجّبت من منطق "بيومي"، كان متناقضًا، يصلّي وفي نفس الوقت يشرب الخمر، ويعشق النساء، وكذلك يمنح رأسه للخرافات والعبث، ويوبّخني على إثقالي في شرب الخمر!

تمكّنت من إقناعه بأنّ زيارة الشّيخ "أبو الزّمن" يُمكن أن تؤجّل ليومين أو ثلاثة، ريثما أسترد عافيتي بعد ليلة من الجنوح والخبل، صفر في النهاية بعد توجّس، ولعلّه تيقّن من أنّي لن أعود للشّيخ مهما توالت الأيّام.

الشّجر الفارع والسّحب والسّماء التي تتحايل على الألم بليل جديد، والسراي الشاغرة إلاّ من الحكايات الملوّثة والأسرى المجبورين، ما زلت أنتظر طلّة الهانم، ما زلت أحدّق في الفراغات الشّاسعة مثل أبله، ولم تزل أرواح الموتى تعانق مدى بصري، بالأمس في حُلم خاطف تنشّقت رائحة ثوب أختي الذي ستُبعث فيه، بالأمس حلّقت حولي الملائكة، وزعقت الغربان، وكانت الحرائق وضاع الوطن، إنّما الأمس يمضي مثل سحابة معكّرة، تقطّر سمومها فوق أرض أخرى، ولا يُجدي اجتراره، الأمس يمضي ولا يعود، ولا يُمكن أن يتجدّد أيّ أمس، يا للأمس! كلّما

نهضت من حسرة انتشلتني حسرة غيرها، أجل حياتي لم تعُد غير أحجية من الحسرات والعثرات والمرار الطافح، ولكن خُيّل لي أنّ جسد الحلبية قد يساعدني على نسيان الحسرات، ثم ماذا؟ هل يُمكن حقيقة أن أنسى؟ إنّي أتحايل على الحقائق، من البديهي أن يُسكنني الألم ما حييت، عدا الألم، لا يوجد فكرة أخرى، إنّما كيف يُمكن أن أستعذب هذا الألم وأعيش به إن كنت عائشًا فيه؟

سيّارة يقودها جندي تدخل من باب السراي، فطنت أنّ الصفقات لم تزل تدور، لكن صندوقها كان مغطى على جانبيه، قلت لعلّ صندوق السيّارة مليء بصناديق السّلاح والذخيرة! توقّفت السيّارة أمام الدرج الصاعد إلى ردهة السراي، حشرجت قليلاً قبل أن تتوقّف، ونزل سائقها، ونزل من صندوقها جنديان آخران، لكنّي انتفضت وأنا أسمع صرخة الهانم:

- لماذا يا أبي؟

ورأيتها تهرول من قلب السراي لا ترتدي غير قميص شفّاف، ووجهها دامع محتقن، وخلفها يخرج الباشا، وكانت تصيح:

- ألم نتّفق؟!

وكان الباشا يصرخ:

- انتظري!

إنّما لم تنتظر، وفي الأجواء انتشر الصخب، واستيقظ الخدم جميعًا، والهانم تحاول أن تفلت من يد أحد الجنود لتتمكّن من رؤية

صندوق السيّارة، اقترب الباشا في حركة سريعة من سائقها وصافحه وهو يقول في عجالة:

- بلّغ تحياتي للبك، اشكره كثيرًا، واترك الأمانة هنا.

وانتقل معه حيث صندوق السيّارة، فتح الجندي الصندوق، وسحب جسدًا مقيّدًا بالحبال ورماه أرضًا، فالتفت الباشا إلى الهانم يقول باستهزاء:

- تفرّجي على حبيبك الغبيّ.

كان الجسد مكمّمًا وساقطًا أرضًا منكفئًا على وجهه، ارتمت الهانم عليه وهي تنتحب:

- سوف أفعل كلّ ما تريد، إنّما اتركه يا أبي، اتركه واجعلني خادمتك العمر كلّه!

- سبق السيف العزل.

وطاف حولها يقول وكان جسدها يرتعد:

- يحسب هؤلاء الجرابيع أنّهم قادرون على ترقية أنفسهم، أنا أفهمهم عنكِ، أنتِ عبيطة، هم لا يقرّون أنّنا نفهمهم، ويُمكننا أن نقف على نواياهم، نتركهم يعبثون بالعالم من حولنا، لأنّ نهاياتهم مضمونة، إنّما أن يتطاولوا حدّ أن يعبثون في عالمنا نحن فهذا غير مقبول.

- لكنّ الموضوع انتهى منذ زمن!

- كلاّ لم ينتهِ بعد، أتحسبينني أعمى! مغفّل!

ودكّه برجله، فبدأ الجسد ينتفض، وحاوطته الهانم بجسمها، لكنّ الجسد أخذ يستدير، وكان يُمكنني أن أستوضح ملامحه وإن شاب وجهه الجروح والكدماتِ.

تقدّمت عليه أستوضح أكثر، لم أكن أفهم شيئًا، هل هذا معقول؟ لا يُمكن، كان صديقي "مصطفى"، نعم هو صديقي الصحفي، الذي أعانني بلا مقابل.

هرولت نحو الباشا هلعًا، وقفت أمامه، قلت:

- يا باشا حرام.....

ولم يتركني أكمل كلامي، دفعني بساقه فتقهقرتُ للوراء، تمرّغت على الأرض، لكنّي نهضت ثانية، وعينا الهانم تستغيثان بي، هو أوان الإغاثة، لكِ وله يا هانم. كانت السيّارة تمضي خارج حدود السراي والخدم يقفون يتبادلون النظر في دهشة ممزوجة بالرّعب، وكان "بيومي" يرميني بنظرة فزع، كأنّه يدعوني للصمت، لا لن أصمت، أما كفاني خزيًا في هذا العالم البغيض! سوف أُنقذ ما يُمكنني إنقاذه، لم أُنقذ شيئًا من ذي قبل، ولا حتّى أحلامي.

اندفعت في مجوَن، أحطت الباشا بذراعيّ، فارتاع الخدم، وتسمّروا، إنّما كان بدنه عفيًّا، في لحظة استدار لي، بعينين امتلأتا حَمارًا وفُجرًا، وضربني برأسه في جبهتي، ثم أزاح الهانم بساقه وأخرج من طيّات الجاكت فرد خرطوش، في لحظة أفرغه في جسد "مصطفى"، فراح يرتجف لوهلة، ثم سكن، تجمّد المشهد، هبطت أرضًا أتأمّل صديقًا من الماضي، كانت عيناه قد تحجّرتا، أدركت أنّ الموت يلازمني ويبدّد كلّ من أعرفهم، ويتركني لأجوب العالم مثل لعنة طلسمية، بُحّ صوتي،

وانحبس، والباشا يقف ظافرًا فوق أجسامنا، يعتلينا مثل عمود من الجحود والقهر، الهانم دفنت رأسها في جسد صديقي، يا لها من حياة تدور بلا اتّساق ولا تناسق! يا له من قدر غير مخضرم في تحديد هويّة الأحداث! كيف تضفّرت الخيوط بمثل هذا الشّكل؟ ثم رفعت الهانم رأسها، وتبدّلت ملامحها كأنّها ملبوسة، وقامت تهرول إلى بطن السراي، والباشا يستدير نحوي، بعد أن دشّن خرطوشه ثانية، وسحبني وسط الخدم، وأخذ يجرجرني حتّى بلغنا الإسطبل، لا يجرؤ أحد منهم على أيّ اعتراض، القدر نافذ، لكنّي أعرف أنّي ضدّ الموت، أنشأ معي صفقة سريّة من المرارة والألم، ولن يتركني كي أرتاح، أعرف هذا، الباشا يجرجرني، ثم ترتفع ذراعه في بطء كي يفرغ الفرد الخرطوش جوفه ثانية في جسدي، إنّما قلت أنّي ضدّ الموت، رأينا الهانم جميعًا وهي تعدو من قلب السراي وجسمها مشتعل، قلت إنّ المشهد تجمّد، لكنّها نهاية عابثة حقًّا! الهانم تعدو بين الخدم والنّار تشتعل في جسدها، وتصرخ، ورأيت الملائكة يحلّقون حولها، ورأيت "مَدّ" في الأفق، ورأيت الحرائق والدُخان، والهانم تمضي لا يستطيع أحد أن يوقفها، في يدها خنجر، وفي قلبها يأس، تعدو نحو الإسطبل، نحو الباشا، تدسّ الخنجر في فؤاده، وتعضّ رقبته، فتتدفّق شلّالات من الدّم، وترتخي يداه، وتتصلّب رأسه، ويدوخ العالم، والهانم تجري بين الخيول، تفتح الحجرات، وجسمها كتلة من لهب، تجري الخيول خارج مدار الزّمن، تتلاطم، يستثيرها الجنوح، وترتطم ببعضها البعض، ويحترق الإسطبل، وصراخ الهانم يدوّي، يدوّي، أنهض ألاحقها، بلا جدوى، الموت أسرع منّي، يسبقني دائمًا وينفذ مشيئته، لكنّي أحتضنها، والخيول ترمح من حولنا، والخدم يقفون خارج حدود الإسطبل، أحتضنها بنيرانها، تودعني

نظرة أخيرة، تحتضنني بعينيها، وتمنحني الشكر الموائم للإغاثة التي أثبتت عدم جدواها، النيران تشتعل، وتسقط الجدران، وتطقطق جذوع الأشجار، ويتهدّم الإسطبل، يسقط فوقنا، والموت سريع، الموت يبسط ذراعيه على العالم، الأسقف تتهاوى، تردم كلّ شيء، ويغفى المشهد داخل حلقة من الغبار والدُخان والنّار، الهانم في حضني، وعيناها تقتحمان أعماق عينيّ، لكنّ صوتها يفحّ، أستغيث بالسّماء، دون طائل، السّماء بعيدة يا هانم، بعيدة يا بنت عمّي، الحرب قامت يا أمّي، كيف لم ينقذنا استشعارك للخطر؟ ولماذا تركتنا لبأس الحياة ومكائدها يا أبي؟ كم أنّ العالم يستعذب الضلال! يبدّل ثوبه القديم، يستعذب بكلّ جوارحه، بلا احتساب، شاحذًا بأسه وجبروته، بات الدّم والموت والألم والدهشة والغباء والبلادة والقمع والعجز يسكنون هذا العالم، أجل أيّها الموت اللا مبال، إنّ الإنسان لم يكن سرًا للرّب أبدًا، بل كان مجرّد نفخة، عارضة، كان الإنسان وكيلاً، مجرّد وكيل للرّب في هذه الأرض الغارقة بدمائنا، نحن المستهلكون سلفًا.

أضمّ الهانم بين ذراعيّ وأصرخ، أرفع وجهي للسّماء، جسدي يشتعل باشتعال الإسطبل، تخور الهانم في صدري، وأصرخ أكثر، لا يا ربّ، لم تصلك رسائلي، ثمّة خلل في بريدك، ثمّة خلل في منظومة هذا العالم.



نزفٌ أخير

غرب طيبة



1

وهناك، كان ممدّدًا، ساكنًا، رجلٌ عجوز، وجهه متآكل، وبين أصابعه وريقة متهالكة، تناولتها ويدي ترتجف، بل وكان العجوز يحدّق فيّ، وعيناه تومضان!

هناك، في الأحلام، يُمكن أن تفتعل الأحداث، أمّا في هذه الحياة، فالأحداث مفروضة عليك قسرًا.

أخذت الوريقة من العجوز، في الحُلم يُمكن أن تصبح الوريقة رسالة، ويُمكن أن تصبح خنجرًا، ويُمكن أن تصبح وردة يستنشقها المعذّبون.

وسرعان ما تطير الأحلام، ويدحضها واقعٌ مرير. في يوم مثل هذا اليوم تمامًا، بذات تفاصيل المكان، وتفاصيل البشر، ذات ملامحهم، وجنوحهم، بنفس الظلام الذي عشّش في رءوسهم، أجل كان بعيدًا هذا اليوم، ربّما لا يتذكّره أحدٌ بالمرّة، ولن يسرده تاريخ، وقد يسقط - كغيره - أثناء دوران عجلة الزمن، إنّما؛ أنحن في حاجة لذكره؟ من يدري؟ ففي يوم كهذا، رأيت الموت بعينيّ يسخر منّي.

جلست مقرفصًا وراء الساقية غرب البلد في "القرنة"، حيث يقطن "بيومي" وأقطن معه، أسبح بعينيّ في الخواء الممتدّ أمامي - خواء القرية، مثل قطّ يتلصّص باحثًا عن مأوى، تروح عيناي تجري فوق امتداد أرض القرية، لحدّ الأفق، والشّمس تنزلق خلف البيوت، في بطء، كعادتها كلّ مغربية. أعمدة الإنارة ترعش في وهن من بعيد،

الوقت مساء، والقرية ساكنة إلاّ من الغيطان البعيدة التي تمتدّ بامتداد الحجارة، حجارة تستكمل بها القرية صورتها إيّاها، صورة مغبّرة.. قديمة.. بالية، ومن خلف الحجارة تقوم صحراء، الصّحراء التي في الغالب لا يهبط إليها نفر، ولا يخرج من متاهاتها - إن هبط - نفر. قلت لنفسي: السيرك، ملهاة البشرية، العالم سيرك، والقرية سيرك كبير، نفس الوجوه، نفس الأشكال، تدور في القرى، بين النجوع، والزروع، السيرك قائم - إذًا - ربّما ليوم السّاعة.

جوار بيت "بيومي"، يقف تمثالا "ممنون"، كان يُمكنني أن أسمع همسهما، والنغم الذي يخرج منهما كلّ مساء، قال لي "بيومي" إنّ الغرب هنا مليء بالأساطير، بعضها حدث، وبعضها سوف يحدث. حكا لي عن حرب قديمة دارت بين "سِت" إله الشّر، وبين "حورس" ابن أخيه، تمكّن "سِت" فيها من أن يقتلع عينًا من "حورس"، عينًا مقدّسة، هكذا تقول الحكاية، العين التي بإمكانها تفسير الغيب، ورؤية المهالك، لم تزل العين مفقودة، إنّما قال لي "بيومي" إنّ هذه العين تدور بين أولياء الله، تفتح لهم طاقات في السّماء وتكشف لهم حُجب الغيب، لذلك هم مباركون، يتناوبونها بينهم، وهمس لي: العين الآن مدفونة جنب السّاقية.

خطوة، خطوتان، وربما ثلاث، هي الفاصلة بين السّاقية وبين شجرة الليمون، التي - لم أعُد أدري - كأنّما خُلقت دون ثمرة واحدة! شجرة تبدو كأنّها جافّة منذ الأزل، عجوز، ربّما جاوزت الزّمن ذاته. كم خطوة؟ أنهض، لأقطعهم، وأعود، ثم خطوة أخرى، فأتردّد، ثم أرجع لشجرة الليمون، أجلس تحتها، وأخدش أناملي بأغصانها الخشنة، أتعمّد أن أوجع نفسي، هذا الوجع المؤقّت، أوجعها بخدش أناملي، ثم أتنهّد في

تذكّر، وأُغمض عينيّ، إنّ المكان هذا - تحت شجرة الليمون - بات مستحبًا للتذكّر.

النجوم فوقي تتوضأ من عفر النهار، وتلتمع في انتظار السّواد الأعظم، لو أنّا نحادث الرّب لعاتبته على كلّ شيء، لكنّ الرّب بعيد. رحت أتذكّر الأرمينية التي كانت تتحرك تحتي يمنة ويسرة، فرفعت ذيل جلبابي، ومضيت أداعبني وأنا أذكر الأرمينية حين كانت تحتّك بي، أفور، فتفور، أدخلهِ أكثر، إنّما تلك أواصر المتعة، تذكّرت عندما كنت أنقبض كلّي، يُعتصر جسدُي كحزمة من عُشبٍ أخضر، أتحجّر، ثم..

أنتهي سريعًا من معاشرة جسدي بكفّي، ألهج وأنا أكبّهم فوق التراب، مصيرنا في النهاية! أضحك في مرارة، ثم أتّجه للبيت، كان يفصل بين البيت وبين شجرة الليمون خطوتان ثلاث أخرى.

المصباح، شحيح الزيت، والضوء المرتعش، واللّيل الذي أقضيه مستيقظًا، كعادتي، والنافذة المفتوحة على الخلاء، والبرد، والمرارة، نفس المرارة. في الأفق البعيد - أو القريب، لا شيء غير الفحيح، إن لم يكن الصّمت، آه من الصّمت، ضلفة النافذة تروح، وتجيء، تتطوّح، والريح تعبث، وغراب ينعق، ينتظرني فوق إفريز النافذة، ككلّ ليلة، بات يلازمني، يحدّق فيّ، عميقًا، وأنا لا أريد أن أتطيّر، لا أحبّ التطيّر، إنّي لو أردت، لو عندي بال، لتطيّرت، أعرف أنّ الموت يهزأ بي، لكنّ بالي مشغول بالأحلام المستعصية المستحيلة، والذكريات القهرية، والخواء بليد، والقرية سيرك، والسيرك قائم أبدًا.

انظر في المرآة، واضحك، كممسوس، أجل احترق وجهي، واحترق جسدي، واحترقت الهانم بين يديّ، كانت أمامي الألوان، مبعثرة على كلّ

مفردة، يُمكن - كذلك - أن أرجّح أنّ الذاكرة قد تعكّرت بعشوائية الألوان! أُمسك مساحيق الألوان - يحلو لي العبث بالألوان، من زعم أنّ المساحيق خُلقت لأنثى؟ أُمسك المساحيق، وأرفع رأسي إلى المرآة وأبقى قليلاً أحدّق في وجهي المتآكل، وأضع المساحيق، أزيّن وجهي، صارت عادتي أن أصنع وجوهًا كلّ ليلة، ولو حتّى نلت سخط "بيومي".

ظلّت شعلة المصباح تتأرجح وتموّج وجهي داخل المرآة.

أحاول أن أبتسم ثانية، إنّما؛ لم تكن المساحيق قد أخفت النصف الآخر من فمي العابس المتآكل، لم أُنهِ صنع وجهٍ جديد، فظلت ابتسامتي معلّقة، وبدا لي هذا التشوه صريحًا، أهاتف نفسي:

- هل هذا أنا؟!

رحت أميل برأسي يمينًا.. يسارًا.. لأعلى.. ولأسفل، أتأمّل الوجه داخل المرآة، كانت التقاسيم مشوّشة، والألوان متداخلة دون تجانس في ملامحي، انطلقت منّي ضحكة خافتة مجروحة وأضفت لنفسي:

- هل هذا أنا حقًا؟

مسلوخ من تّصل الماضي، الفاقد كلّ شيء لا يبحث عن تسربة! الفاقد معنى الحياة، ومعنى الموت أيضًا! دموع بدأت تسيل فوق وجهي وتعبث بالقناع الملوّن الذي يغطّيه، راحت بعض البقع تتحوّل بين ملامحي إلى ما يُشبه الدقيق المتخثر، بأناة نهضت، توّجهت نحو حنفية الحمّام، وأزلت القناع، ثم رجعت لمرآتي، وجلست أمامها، زفرت زفرة طويلة وهمست بغصّةٍ في حلقي:

- ولست أنا هذا أيضًا..!

أنتظر وقتًا، إلى أن يجفّ جلد وجهي تمامًا (سوف أصنع وجهًا جديدًا - وجهًا آخر).

فردت علب المساحيق الملوّنة وبأناملي شرعت في رسم وجه جديد، رسمت أولاً ابتسامة، ربما كنت أخشى ألاّ أتقنها فبدأت بها، كانت عيناي تجوبان متن المرآة فيما يشبه التحسّر، وكانت كلّ التفاصيل من ورائي تبادلني التحسّر، كتمت بكائي - لماذا تبكي أيّها الأحمق؟ ما جدوى البكاء؟ - واستدرت عن مرآتي بقلب منقبض، وقبل أن أذهب بعينيّ لها مرّة أخرى تساءلت: هل كان لابد أن نُخلق في الخواء؟ هل كان لابدّ أن تُنجبنا الخرافات وتتركنا السّماء بعدها؟

وجلست، رميت المرآة الرابضة أمامي بنظرة مشروخة.

بيد مهتزّة، جعلت أُكمل رسم الوجه الجديد، غير أن التشوّه لازم يدي، كانت المرآة مصطخبة، تشبّع المشهد أمامي بضباب تسلّل أمام عينيّ عنوة، تهبط عيناي إلى أسفل، الوجوه القديمة إيّاها تائهة - لم تزل - في مدار العدم، آه، لم أزل أتذكّرها، عندما ترن ضحكاتها الممتلئة بالحياة في أذني، تهبط عيناي وتتّسعان، وضحكات المفقودين تتدحرج مسرعة، ترنّحت قليلاً ثم استقرت لامعة هذا اللمعان الأشبه بلمعان عينيّ هذه اللحظة داخل المرآة، تابعتها ببصري حتى استقرت، وجفّ حلقي، لكن غمامًا يلفّ بصري، والدنيا كلّها تسودّ، وأحسّ - إحساس التمنّي - كأنّ الكابوس لم ينتهِ وسوف أصحو على واقع جديد.

(وكانت كما الوجوه القديمة كلّها - تبحر بين أمواج المرآة المعتركة وتضرب عزيمتي هذا الضرب الموجع المبرح - سحابة بيضاء غائمة).

بلعت ريقي، مسحت بمنديلي القطني حبّات العرق التي نبتت فوق جبهتي، يعلو صدري، ويتزل، وأغمض عينيّ، أتململ قليلاً على كرسيّ، تهدأ قليلاً أنفاسي، وقد سرحت في جسد المرآة.

صوتها! صوتها في رأسي!

- لماذا يا أبي؟

تستغيث، فألتفت، تحتويني ابتسامتها الرائقة، ونغم البيانو يقدح، أضحك بجذل وأنا أتقدّم نحوها في ابتهاج، أبتسم وأضمّها بعينيّ، لكن سريعًا ما أفرك عينيّ، كانت أمامي خيارات العالم، ولم يكن أمامها خيارٌ واحد، أفرك عينيّ، والهانم آتية من عند الأفق البعيد بجسدها المشتعل، آتية تصرخ، تستغيث بي، ولا أغيثها، قد جرى الذي كتبه القدر يا هانم.

أفرك عينيّ، وكلّ ما حولي، الكنبة العريضة بطول الصالة، الستارة، المساحيق، كل ما حولي، فقد بقدرة قادر لونه، وتحوّل كل شيء يحوطني في الغرفة للون الأبيض والأسود.

الغمام رمادي اللون يسبح أمام بصري، كيف تحوّلت معالم المكان إلى مثل هذه صورة قاتمة تحجب عنّي ألوان الحياة! الوقت يجري ببطء، أنفاسي تختنق، صدري ينغلق، اللون الرمادي يجثم فوق حدود البصر، لا أحتمل، كلّ شيء من حولي مزعج، كلّ شيء رمادي، روحي تنازع الصعود، ليتها تصعد، لكن كم مرّة سوف أموت؟ أتمّ إنهاء رسم الوجه وأحاول النهوض، ارتخاء قدميّ يكبلني في هذا المقعد، مال كلّ المعالم كساها اللون الرمادي؟! أين بالله لون الحياة فيكم؟!

مصيري مرهون والحياة الرمادية، باب الحمّام.. رمادي اللّون.. بعيد، لكنّي أجري، وأجري، أدفع بنفسي إلى الدّاخل بإصرار الألم، تدور رأسي في هستيريا ويأس، محتملة عودة الحياة إلى كل التّفاصيل المُحيطة، تدور رأسي، فأنثني، وأفرغ من جوفي عبء الماضي؛ ذنب الجميع الذين استلبهم الموت منّي، وضحكات الجميع، فتبدو الضحكات، وهي تشق الهواء، هاوية لأسفل، لامعة، برّاقة، مقرونة بالذنب، يحمل بريقها إلى عينيّ، لونًا عذبًا، يتناقض ولون الأشياء الرمادي.. لون كلّ الأشياء.

في وهن أتمدّد، أختزل هواء الدنيا في رئتيّ ثم أتنهّد تنهيدة طويلة وأبدأ في تقمّص الرجل الآخر، الذي رسمته فوق ملامحي، الآن مكتوب عليّ أن أمشي بين النّاس كواحد دون رُوح، هكذا هو السيرك، لا شيء يبدو على حقيقته، التلفيق سيّد المشهد، والدّم على يديّ، الدّم دافئ، والجُرح نافذ، والأرواح تصفّق.

كانوا يصفّقون - دماؤكم على يدي!

أخرج بوجهي الجديد، إلى الخلاء، أتحسّس ملامحي، في حذر، أجل خُلق المساء للتخفي، أعبر الجسر، وأمام التُّرعة الممتدّة بامتداد الألم أجلس، أتأمّل، والسّماء تشوبها علامات الاستفهام، أحاول أن أرتفع ببصري إلى أبعد مدى، غير أنّي كلّما عبرت ببصري، صدّني التّساؤل: ما الذي اقترفته في شأنك يا ربّ؟ وحولي الضّفادع تتقافز، والحلفاء ساكنة، الكائنات غافية، وكذا ذكرياتي، بدت غافية لأجلٍ غير مسمّى، المياه تجري، ولا تريد الذّكريات أن تجري، واقفة عند لحظة بعينها، لحظة أن احتضنت الهانم في صدري، واحترقت أحلامنا معًا، لا لن

أشعر بالمرارة، سوف أشعر بالزهو، إنّي من ماتت بين يديه، واحترق معها وبها، إنّما كيف انطفأ الكون كلّه بعدها؟

2

كان الغراب واقفًا على إفريز النافذة، وجناحاه ملومان على جسمه، همست إلى "بيومي" وكان يعدّ كوبين من الشّاي:

- لا أعرف حكاية هذا الغراب! كلّما طار بعيدًا واعتقدت أنّي استرحت منه جاء، يجيء في اللّيل فقط.

- يا خوفي يكون عزرائيل!

- عزرائيل لا يتخفّى، إنّه يظهر لي علنًا.

كنّا نجلس في صحن الدّار، وأشعل "بيومي" ركية النّار، وهو يقول:

- لا بأس أن يرينا عزرائيل نفسه، المهم كيف يُمكن أن ننجو من أفخاخه!

لوّحت له بإصبعي وأنا أبتسم، ثم غمزت "بيومي"، فأدرك أنّي أريد الخمر، ففتح كوّة في الحائط الطيني وسحب زجاجة يلفّها خيش، وهو يقول:

- أخفيتها ليوم الحاجة.

- واليوم نحتاجها.

- احذر.. بعد هذا الشراب قد يحلو لي أن أضاجع امرأة.

- هنيئًا لك.

فتح الزجاجة وهو يقول:

- هذا نبيذ، لو تعرف قيمة النبيذ! إنّ النبيذ لا يفوقه خمر، يسري في العظام، ويؤجّج الرغبات جميعها.

- أتحسبني لم أشرب نبيذًا من قبل؟

- نبيذي يختلف.

- سأجرّب!

- كلاّ، نبيذي يأتي من خارج الصحراء، يعتّق في كهوف الملائكة، خارج مدار الأرض.

- ما أجمل أوهامك!

لم يردّ عليّ، رماني بجنب عينه، وأخذ يصبّ من الزّجاجة، كان لون النبيذ أحمر قان، كأنّه دَم، لكن قبل أن يصبّ كوبه، التفت إليّ وقال:

- ثمّة من يُمكن أن يشاركنا الشرب.. هل لديكِ مانع؟

تطلّعت بعينيّ حولي وأنا أردف:

- شكلك مخاوي!

- تركنا لك العفاريت يا كُردي.

وشبّ، ثم حذّرني بإصبعه يقول ضاحكًا:

- انتظرني، لا تلمس زجاجة النبيذ!

وخرج، قضى ما يناهز السّاعة، بعدها خبط الباب ودخل، وكانت تتأبّطه امرأة ملتفحة بثوب أسود.

ولجت، ثم توقّفت لحظة وهي تتفرّسني بوجل، كنت جالسًا على الكنبة، وكان صوت الغراب عاليًا، لكنّها مفزوعة تراجعت، وكادت أثناء تراجعها تدلق زجاجة النبيذ والكوبين، ورغمًا عنها أخذت تقشعر، كأنّما البرد قارص، واستندت على مرفقيها، وبدت أنفاسها بطيئة، فهمهمت:

- من هذا يا "بيومي"؟

- لا تخافي منه، إنّه صديقي الكُردي.

ثم استدار لي يقول:

- كنت مسحت هذه المساحيق من على وجهك يا أخي! المهم تشربي معنا نبيذًا؟

سألها، وهو يلتفت ببصره إليها، فرفعت إليه عينيْها، وأكمل:

- قلت لك لا تخافي منه!

ازدردت لعابها، وهمهمت ثانية:

- أنـ لـ..

- إنّه مثلنا.. بشر!

وانصرف يقهقه، وعادت هي بعينها إلى الكنبة، وكنت هناك، فوقها أجلس، أخذت تحدّق فيّ بعينين نافذتين، تومضان، بوميض ساطع، لم تتبيّن ملامحي، استغرقها الفزع، ليتها تعرف أنّ وجهي محترق!

راحت تتفقّدني ثانية، كانت عظام وجنتها بارزة، وصبّ "بيومي" كوبًا ثالثًا لها، ثم صعد به إلى فمّها يتدلّل، ولم تزل عيناها تحدّقان فيّ..!

لكنّها تركت كوبها ومضت تستأنف النظر نحوي، واستدارت إلى "بيومي" تستطرد:

- لكن لا تقل لي أنّ صديقك سوف يشاركك!

فابتسم، وقال:

- لا أظنّ لديه رغبة أو شغف.

استراحت للوراء قليلاً، وزفرت وهي تقول:

- آه يا أخوي، أنا هذه اللّيلة مرهقة.

ونظرت لي ثانية فقال "بيومي" وهو يضحك:

- صديقي يحب أن يلعب بالمساحيق.

فقامت، تقدّمت عليّ تتحسّس وجهي في استغراب، فضحكتُ، وعلى وجهها علامات الاشمئزاز، أنا ميّت، هكذا تمامًا، لا شيء قد يكون أكثر موتًا منّي! وبدا أنّ رائحتي بدأت تملأ أنفها، رائحة لاسعة، قالت وهي تسدّ فتحتي أنفها:

- غريب أنّ رائحتك هكذا!

قلت:

- هي رائحة المساحيق.

- مساحيق! شكلك شفّال في سيرك، شبه الـ. الـ.....

قلت:

- نعم، البلياتشو.

توجّست وجلست، وهي تتطلّع إليّ بإمعان، ثم أخذت تسترد أنفاسها، وتجوّل بعينها في تقاطيعي على ضوء اللمبة الشحيح، لا لم تعُد توجد بوجهي ملامح بعينها، على العكس، إذا أزلت المساحيق كلّ ما يُمكن أن ترصدينه مجرّد فم حوافه متآكلة، يخرج منها صديد، مختلط بدّم، وشفتان ذابلتان.

أطلقت سعلة متقطّعة، وبلّلت طرف لسانها بشفتيها، وفي كثير من شغف، وحذر، مدّت يدها إلى ساقي، كأنّها بلهاء، كانت يدها ترتجف، إنّما بدا أنّها أرادت أن تستكمل إحساسها بحيويتي غير المنطقية، وعجزت - لحظتها - عن النظر فيّ، فاستدارت عنّي وقد تقلّصت ملامحها، وأصابعها تغوص في لحم ساقي، بدت لم تشعر بمثل هذا الإحساس البارد المباشر والحقيقي من قبل! أجل أنا ميّت، وكان لابدّ أن تراودها الظنون بشأن "بيومي"، الذي أخذ يضحك من فرط توجّسها، وعلى أيّة حال، شرعت في احتساء النبيذ، توهّمت أنّ النبيذ بإمكانه تفتيت الفرضيات، وإقناعها بالفرضيات غير المعقولة، غير أنّها لعلّها أدركت بعد كوب فآخر، أنّها لم تزل مفزوعة منّي.

قالت هامسة:

- لعلّ صديقك الكُردي يرغب في مضاجعة تردّ له دّم الحياة!

ثم وهي تصيح:

- إنّما كلّه بحسابه يا "بيومي".

فقال "بيومي":

- ليكن إن أراد صديقي!

لكن بدا أنّ الفكرة جعلتها تشمئز أكثر، فألقت كوب النبيذ، وقالت:

- لا لا.. كفاية أنت يا "بيومي"، صاحبك شكله مجنون!

انفجر "بيومي" في الضحك، وانتثر من بين شفتيه رذاذ النبيذ، ثم أخذ يسعل، واحتقن وجهه، فحدجته بنظرة مستغربة، وضمّت حاجبيها، فأسرع يقول:

- إن أخبرتك حكاية صاحبي ما جرؤتِ أن تصفيه بهذا الوصف!

وكان الغراب ينعق، نعيقًا كالزعيق، متواصلاً، وضلفة النافذة تخبط من شدّة الرّيح.

الرّيح في الخارج تقوم بتراب الأرض، وتغبّر به الأفق، وتضبّب به العيون، لعلّ الذي يبقى - عند الصباح - سحابات متفرّقة ترابية تلتهمها أشعة الشّمس، سحابات تمضي، نحو الفضاء الفسيح، ولعلّ العيون تعوّدت ألاّ ترتفع نحو السّماء، كأنّ السّماء عارية، تخجل منها العيون. الرّيح خارج البيت، والغراب ينعق، والظلام غاف في الأركان وبين شقوق الحوائط، لكنّ ظلاله ترتعش فوق وجهي، فأبدو كتمثال عطب، وأنا أحدّق في وجه المرأة.

- لماذا تنظر لي؟

واستكملت احتساء النبيذ.

قلت وأنا أرفع كوب النبيذ:

- النبيذ يُشبه أرواحنا، كلّما تعتّقت اكتسبت غلوًّا، وثمنت، وأنا رُوحي معتّقة، لن أقول لكِ أنّ عمري آلاف الأعوام، لكنّ عمر ألمي يجاوز هذا وأكثر.

قال "بيومي":

- ليس من ألم خالد.

- لكنّي خالد الألم.

قالت المرأة:

- حسبك! إنّ رأسي ثقيلة.

فقلت:

- وحكايتي ستجعل رأسك ثقيلة بما يكفي لأن تصدّقها.

ثم تحركت برأسي مستديرًا إليها، وجلست جوارها أرضًا، هرعت ترتدّ للخلف، وأسقطت كوب النبيذ من يدها، فجرى النبيذ بين شقوق الأرض يهرب، فاختفى، وقال "بيومي":

- لا تجزعي.. إنّه تأثير النبيذ.

ليل الجنون والهذيان، إنّ رأسي تدوخ، النبيذ تغلغل في خلايا عقلي، فكنت أن أخذت أصغي للفحيح، والغراب من إفريز النافذة المفتوحة خلف ظهري يحدّق فيّ بعينين لامعتين، الغراب، والفحيح، من أين يأتي هذا الفحيح؟ وانطلقتُ أروي حكايتي، وأخذت المرأة تضحك كلّما رحت أحكي، ووجهي بدا يتضبّب في غيم الدمع الذي يسيل من عينها، فلمّا اكتشفت دمعها، وظنّت أنّها - هي الأخرى - جُنّت، أدركت أنّها كانت تضحك في هستيريا ضحكات متواصلة إنّما غير مستريحة، ظنّت - والظّن مشروع - أنّ الأمور في بداياتها مجرّد عبث، وفكاهة، لكنّ الحقائق لا يُمكن التفكّه بها، ثم - وسط الهذيان - بدا أدركت أنّها حمقاء حدّ الغباء كي تصدّق حكاية بائس مثلي، وقد أخبروها أنّ

المهاجرين يحملون الأسرار، ويرمونها في عباب التُرع والجداول، ويتركونها لتسافر نحو الشّمال، لكن هذه الأسرار تصل مفتّتة، لا يُمكن التحصّل لا على أولها ولا على آخرها، ومن الحماقة - كذلك - ألاّ يكون للمنبوذ مكان فوق هذه الأرض، فهل كان لي مكان آخر ألوذ به؟!

هكذا أنهيت حكايتي.

3

كيف يُمكن أن أسدّد ضربة نافذة لهذا العالم؟ ضربة أخيرة أستريح بعدها. كنت أسير بين النّاس بأكثر من وجه وأكثر من قناع، أطلع لوادي الملوك، أباشر تأمّل نفس وجهي في الرسوم الفرعونية التي تُغرق الجدران، أتطلّع إلى معبد الدّير البحري الذي تلفّه بعد الفجر كُتل الضباب، وأتفقّد الحجارة المتناثرة التي تملأ الوادي، بعينين خابيتين، ولم أشعر أنّ لي إلهًا يُمكن أن أراسله، رغم تعدّد الآلهة المحفورة داخل جدران المعابد والمقابر.

في الوادي أجزم الجميع أنّي مجذوب صالح يطوّف البلاد ويسير بينهم، أسير بلا رُوح، لم تعُد النسوة اللواتي يتشمّسن أمام بيوتهنّ في انتظار تخمّر أرغفة الخبز يخجلن من مروري، لم يعُد يرهبني الغلمان، أجالس الكلّ، أدخل بيوتهم، أشرب معهم الشاي وآكل من طعامهم، سرى في البرّ أنّ مجذوبًا اسمه الشّيخ "عبد السّميع" يدور كلّ يوم بوجه ملوّن، بل وأقسم البعض أنّهم كانوا يرونني ممتطيًا حصانًا أبيض له جناحان وأرتدي لباسًا أخضر في أخضر، لم يكن أحد يعرف أنّ هذا المجذوب قد احترق عالمه، ولم يترك عليه غير أثر الحريق، وصنعوا لي غرفة من حجارة في عمق الوادي، وبارك "بيومي" هذا الصنيع، ربّما أراد أن أفارقه بلطف، وربّما أراد لي الخير في النهاية، لست رقيبًا على نوايا البشر. وكنت أقضى السّاعات في غرفتي متأمّلاً سخرية الكون، ولم يفارقني الغراب، لاحقني من مكان لمكان، وتقمّصتني شخصية "مَدّ"، حيث كان الغراب يسير معي

واقفًا فوق كتفي، ممّا منحني ميزة أخرى لدى عموم النّاس هنا، ميزة تداخلت مع هيئتي، وبتّ أليق بلقب المجذوب.

وكانت النساء تأتيني من كلّ حدب وصوب، فقط لأقرأ على رءوسهنّ، أو أفكّ عملاً حال دون زيجة أو ربط رجلاً، وتهادنت لي الأمور، وصدّقني الجميع، صدّقوا حيلتي في التهكّم على هذا العالم، وكانت غرفتي هي مبتغى كلّ من له حاجة أو من عنده ضيق أو مسّ، وفي بعض الأيّام، كانت النسوة يفترشنّ الفضاء حول غرفتي، وبات لي مريدون مؤمنون بولايتي، وإذا مرّت السنوات ما شعرت بها، رجل بلا وجه لا يكترث لمرور السنين، فاضت لحيتي وأغرق البياض شعر رأسي، ولم أكترث، لم أحاول حساب الزّمن بحسابات البشر، كانت لي حساباتي الخاصّة، أصلها الماضي في الأساس، وزعم البعض أنّه يراني أطير في السّماء، أجل كانوا يرونني سارحًا.

زعموا أنّي أحمل الغراب فوق كتفي لأنّه يستشرف عنّي الغيب، ثم أحلّق معه، وأستكشف الأشياء بصوتي، زعموا أنّ صوتي حادّ، يجلجل في أرجاء اللّيل، فيستيقظون، ويشاهدونني وأنا أطير في السّماء، أطير زاعقًا، وأحوّم فوقهم، وأنّي أرتدي لباسًا من ورق الشّجر، فتصبح سماؤهم مفروشة بأوراق الشّجر التي تبعث على الأمل، فهل أصدّقهم؟

وكثيرًا ما زارني "بيومي" كي أباركه، كنت أقول له: وأنت صدّقت أيضًا؟ فيقول: والنبي أنت مبروك يا مولانا. فأضحك وينزل على يدي يقبّلها.

وفي يوم دخلت عليّ المرأة التي قابلتها قديمًا في المعبد، جلست مقرفصة وهمهمت:

- ألم أخبرك يا مولانا؟

- لم أكن أعرف!

- أجل، إنّما يكفي أنّك اهتديت إلى شخصيتك الحقيقية.

- كلاّ، أخشى أن تصدّقيني أنت كذلك!

- صدّقتك في رؤيا قديمة، رأيتك يا مولانا، وآمنت بك، وظللت أعوامًا في انتظار أن أقتدي بك إليك.

- كيف يُمكن أن يصدّقني الجميع؟! أرجوكِ افهمي طبيعتي.

- طبيعتك منحة، لا تُمنح جزافًا.

توجّست من حكمتها المُبالغ فيها، لكنّي كنت أعلم كم أنّ الناس هنا مفوّهون بالفطرة، لعلّ النقوش التي يعيشون فيها والأساطير التي يسيّرون حياتهم بها بدّلت طبائعهم ومصائرهم!

ولم أعُد أنظر في مرآة، مع الوقت، لم تكن المساحيق تنمحي، ظلّت ملازمة لي، كأنّما تداخلت مع أنسجة وجهي، فمن ثمّ صار لي وجه واحد، لا أغيّره.

وكانت النساء يأتين ببناتهنّ كي أمارس عليهنّ سطوة الولاية، لم أكن لأرفض هذا الدور، شاع في الوادي والوديان المجاورة والقرى والنجوع البعيدة والقريبة أنّ البنات لن يعصمهنّ غير بَركتي، بعد داء استشرى في الوادي، وهو أنّ البنات كنّ ينزفن، بلا سبب ولا مبرّر، فكنّ يأتين، أختنهنّ في مفارقة قدريّة.

البنت تنام تحت قدميّ، أرفع وجهي للسّماء، أتذكّر "مَدّ" التي أزهقها خاتِن مثلي، لكنّي بدا أنّي استطبت حلول البركة، البركة التي يتحاكى عنها الجميع، أجل في يدي بركة، وفي حضوري سحر، أفتح ساقيّ البنت،

وأنزل بحدّ الموس بين فرجها، وأجزّ. أستنشق رائحة الدّماء، ويعرفون أنّ الولد له شأن آخر، الولد يُمكن لمزيّن أن يقطع لحمه. إنّما البنات في الوادي أصابهنّ الدّاء، ودواؤه عندي، والدّماء تسري بين أصابعي، للدّم لذّة، وللهتك أيضًا، ليس من بديل عن الهتك، أجزّ ولا أبالي، أجمع الجُلود في مقطاف كبير، وفي اللّيل، يُمكن للخرافة أن تتجسّد.

يأتيني من لهم حاجة أو في حاجة لفكّ عمل أو رَصد، اصطاد أفراخ العصافير من بين أغصان الشّجر، ليتني ما وعدتك يا أبي! فأنا أذبح العصافير عمدًا، وأسقي أقمشة الحوائج بدمائها تعوّذًا، ويرتدي محوّطتي كلّ من في جسمه داء أو مسّ، وأتساءل يا أبي: كيف تحوّر مصيري؟ هذه تساؤلات أظنّها لن تجدي، المصائر غيبية، وأنا عاقرت الغيب، واستطعت أن أتلمّس مصيرًا مغايرًا، أمّا الذكريات فمعظمها تغبّر، لكنّ الحرائق لم تزل مستعرةً في رأسي، لا بأس يا أمّي، يومًا سوف تنقضي الحاجات ونلتقي، وأنتِ يا "زينب"، لك السّماء من بعدي، والملائكة التي طلعت بأختي، كلكنّ ملائكة، أمّا الشيطان، فيسكن الأرض، ألم يُطرد من السّماء؟

أجمع جلود البنات، تخامرني رؤى يُمكن أن تؤدّي للخرافة، إنّما أنا صاحب الخرافة، ومعايشها، أدقّ جلود البنات، أفردها، أدبغها، ثم أكتب من نّار آيات القرآن، أجل أباح لنا الله أن نستخدم قدسيته.

الملائكة ترفرف، هجّت من مدينتنا، والصّحراء أقامت في رُوحي، والرّسالة لعلّها وصلت، لعلّ أهلي يراسلونني من هناك، يخبرونني إنّما أنا تعجّلت، وهم ما زالوا يسكنون حشايا المدينة.

وبعد منتصف اللّيل أخرج، أفتح القبور، ألملم جلود البنات وأحشو فمّ الموتى بها، تلك طقوسي، وهذا مصيري، أعوّذ الجميع، برقيا الجلود، وأباركهم، إنّها مشيئتهم، واختيارهم الإرادي. أحشو فمّ الموتى بالجلود النافقة، وأعابث السّماء، وألهو مع القدر والغيب، أنا بركة، غير مسبوقة، وعند القبور، بعد منتصف اللّيل، أرى "مَدّ" سارحة، كأنّي أراها للمرّة الأولى، تمدّ لي يدها فلا أصدّق، إنّما يدها باردة، وتتناهى من حولي أصوات الموتى، ورفيف الملائكة، وتصعد رُوحي، رُوح سوداء قاتمة، لكنّها تصعد، وتعود، وتصعد، والموت يهزأ بي، وأرجو أن أترك خلفي - فوق هذه الأرض- الفراغ والرّماد والألم، بلا جدوى، إنّ رُوحي آثمة، سوف تختزل كلّ الآلام والشكوى والعبث والهزل والحريق والرّماد والملائكة والشّجر والرّب، ومع ذلك، لن تصعد.





تنحدر "مَدّ" نحو الشّط، شطّ النّهر، أجل بهذا القرب، لا تخاف، تتحسّس أناملها جسم المركب، الجسم الخشبي، الدافئ، وتصبح قادرة على رؤية الأسمرين، تتأمّل أعينهما، إنّ خيالاتها لابدّ ستأتي، حتمًا.

الدّم يجري نحو مياه النّهر، يسافر إلى الجبل، الدّم لا يترك لون المياه، و"مَدّ" تتمعّن من فوق، تُشرف على هذا العالم، تنظر وتضحك، لكن الملائكة -منذ هذا اليوم- غادروا، انسلخوا من أشجارنا.

وتقول أمّي: أكبر الخطايا كانت أن نترك الملائكة ترحل، وقد رأينا الأجنحة وهي تخفق طلوعًا إلى غير رجعة، لم يشفع لنا رجاء، هجّت الملائكة، سافرت حيث "مَدّ".

وتقول وهي تهيل التراب على وجهها: ماتت لنا بنت.. ماتت لنا بنت!

وتقول: تبًا لوطن تهجره ملائكته! لم تعُد الملائكة، لم تعُد.

أدهم العبودي

روائي مصري، يكتب مقالات دورية في العديد من الجرائد والمواقع منها: الأهرام، القاهرة، كتب وكتاب، الشباك، وغيرها.

أصدر مجموعة قصصية "جلباب النبي" في 2011، وأربع روايات "متاهة الأولياء" و"الطّيبيّون" و"خطايا الآلهة" و"باب العبد" الفائزة بجائزة الشارقة 2012، كما حاز العديد من الجوائز الأخرى منها جائزة "إحسان عبد القدّوس" في القصّة القصيرة وجائزة اتّحاد الكتّاب.

تصميم الغلاف: محمد سيد


ISBN 978-9-77428-082-5
9 789774 280825 >



مصر العربية للنشر والتوزيع
19 شارع إسلام - حمامات القبة - الزيتون
القاهرة - جمهورية مصر العربية
تليفاكس : 22562268 02 2+
تليفون : 24505863 02 2+
masrelarabia@hotmail.com



توزيع:
مكتبة أطياف
1 شارع البستان السعيدي - متفرع من محمد صبري أبو علم
وسط البلد (عابدين) - القاهرة
محمول 01020097171